

خطوات لاهثة

د. وسام نسيب منذر

د. وسام نسيب منذر

خطوات لاهثة

التدقيق اللغوي : م . ن

تصميم الغلاف و التنسيق : عبدالله فرج

الطبعة الأولى (٢٠٢٢)

تقديم

لا تسـألوا مـن أقفـل ذاكرتـه علـى بـلاده، وهـي تغتسـل بمـاء آذار، فيكـرج المـاء علـى جسـدها كسـائح ويحسـد نيسـان علـى عروسـه. لا تسـألوه وقـد رآهـا علـى بـاب آذار جديـد، تشـحذ المـاء الناكـر للجميـل، لتغسـل جراحهـا الممهـورة بخناجـر أهلهـا.
لا تسـألوه لمـا ترحـل، وقـد أعـد ألـف صمـتٍ لـكل سـؤال قبـل أن يعـد حقائـب السـفر. لا تسـألوه، وادعـو لـه أن يسـابق الوقـت علـى صهـوة العنـاد فيسـبقه كـي يعـود. وادعـو لـه أن ينجـو بحلمـه مـن جمـارك الأحـلام علـى الحـدود، وادعـو لـه أن يتنصـر علـى قيـد المـكان بقلبـه، حتـى يبتسـم بـه النبـض، وينبئـه بوطـأة أقدامـه علـى أرضٍ تـراه بمـرآة روحـه، فينتمـي لنـا حبـاً، وينتمـي لحلمـه طواعيـة.
ولا تخافـوا علـى مسـافرٍ يعـرف الطريـق إلـى قلـب طفـل ليجعلـه يضحـك، ويـرى أن الله نـور يرفـد أرواحنـا بضميـر الإنسـانية، وأن ضمائرنـا هـي نبـع نورنـا وأرض سـلامنا وجنـاح إبداعنـا. لا تخافـوا عليـه، فقـد اعتـاد المكابـرة حتـى الوصـول منـذ كان طفـلاً صغيـراً هنـاك.
هنـاك فـي بيـتٍ انخفـض عـن الزحمـة والضجيـج خمـس درجـات طويلـة، يعلمـك كيـف تخطـو خطـوةً أكبـر عنـد الصعـود، وارتفـع عـن ذويـه فـي مشـهدٍ يعلمـك الفـرق بيـن العلـو والرفعـة. هنـاك فـي بيـتٍ يتنـاول الشـمس مـن بيـن أغصـان تينـة عجـوز لطالمـا تسـترت علـى عبـث كفوفنـا الصغـار، حيـن تمتـد وتقطـف بعـض ثمارهـا الرضـع. ويبسـط الأرض أمامـه ملعبـاً صغيـراً، يعلمـك كيـف تـروض كـرةً أفسـدت خياطـة قماشـها الممـزق كرويتهـا،

ويعلمك كيف تركنها في مرمىٍ ضيق إحدى قوائمه جذع تينة. بيت يعلمك كيف يأتمر الطريق بنهج الطريقة، وينحني بحلمك محاذيا لحائط همه أن يرد كراتك عليك. هناك، وفي غرفة صغيرة تفردت بذاتها عن أخواتها، كي تبتعد عن الطريق أكثر وتقترب من الأرض أكثر، ليجبرك دربها الضيق، أنّ تنحني من تحت غصن وتمسك بغصن آخر، فلا تقع. هناك تعلم أنّ الأحلام لا تتعب من الركض، بل هي تخاف علينا ألا نتقن النبض على وقع خطانا.
في ذلك البيت، دثر حلمه على الرف بين أحلام تقاسم معها دفء المكان، والتقى معها على طبق يقطر زيتونه روح العرق، كي يطلق العنان للروح وتزهر الأغصان من طعم التحدي ثماراً فريدة. هناك انتمى الحلم لنفسه، وأبقى على حصة المكان من الانتماء، كي لا تيبس الذاكرة مع اخضرار الحلم. هناك درب نفسه كي يؤمن بطول أذرع الأمل، وكي يغازل مجالاً بعيد المنال غير مستحيل، نصف قطره يمتد بين جذع التين المتين وبين حلم صادره الوطن واستعادته المنافي.
والآن وبعد زمنٍ دافئ بدفء وطن وبارد ببرودة ذاكرة غربة. الآن وبعد زمن، هرم من انتظارنا في الوطن، واخضر من اخضرار الحلم على عوده الندي في الغربة. الآن وبعد زمن سمن من اتساع الفراغ في أيامنا السريعة في الوطن، فمشى ثقيلاً مثقلاً بقيد انتمائنا، وجرى كخيلٍ تسابق نفسها على وقع خطواته اللاهثة في الغربة.
الآن اقرأ أنت.

الشاعر فراس الخطيب، سوريا ٢٠٢٢

إهداء

أؤمن أَنّ عينيّ حلمي سماءٌ وبحر، وشريانه نيلٌ يرفد احتمالي، وصوته نايٌ تُدرب الريح أَنْ تخف كنسمة.

أؤمن أَنّ الحب يضيق في مسماه، فهو يحتاج الصعود ويحتاج الغرق. وأومن أَنّ الانتماء لا يطيق القطع والوصل في همزاته، فهو يحتاج لحرفٍ ينحني كي يشقُ الدرب ... تبعاً لقلب.

وأؤمن أَنّي أتهجى الحب والانتماء كأنني أمشي على الحروف، فيغرقني حرفٌ حتى الشغف، وينتشلني حرفٌ حتى الحياة، وأصعد.. أصعد حتى منتهى مدى الأبجدية، أكتبُ اسمي على حلمي وأعود على مهلٍ، وكأَنَّ حرفاً يُمسك بيدي، ويدرج خطاي إلى نافذةٍ تطلُ على السلام.. كي أرى نتاج عمري من النجوم.

إلى نيلي وناي

شكروتقدير

خالـص الشـكر والتقديـر للطيَبيـن الذيـن لمسـوا روحـي ودعوهـا لمأدبـة الأمـل.

الطريق إلى بيروت

(1)

”هـي لحظـة انعـدام الحقيقـة، لحظـة حيـرةٍ وارتيـاب، وكأنّهـا الخـطّ الفاصـل بيـن العبقريّـة والجنـون. هـا أنـت تقـف مواجهـاً تلـك الجبـال العاريـة كعُريك الداخلـيّ، تنظـر إلـى الأفـق أمامـك لتبـدأ رحلتـك فـي عالـم مجهـول. تعتَريـكَ مشـاعرُ يصعـب وصفهـا لكنهـا حقيقيّـة إلـى درجـة أنّـك تنـوء بحملهـا، وهـي تلامـس الخيـال إلـى حـدود أنّهـا تبـثّ فـي روحـك السـعادة والفـرح، سـعادةَ طفل صغير حصل لتوّه على هديـة العيد. هـا أنت تقف الآن هنـا وفـي يدك اليمنـى جواز سفرك مـع تأشيرة الدخول، وتتـردّد فـي مسـامعك كلمـات ذاك الضابـط اللبنانـي، وهـو يقـول لـك: ”نحـن نرحّـب بالسـوريين أمثالـك، نرحّـب بحاملـي الشـهادات العليـا، لكـن كمـا تـرى، فالآخـرون ليسـوا سـوى رعـاع، فوضوييـن، وهمـج“.

تقضـم كلامـه حرفـاً حرفـاً، وتزفـره قصائـد عـن الشـام وحـبّ الأوطـان، وتمضـي وأنـت تتمتـم: ”أولئـك الرعـاع بشـر، بشـرٌ يلبسـون الخـوف والحـرب. كيف لم يخبرك أهلك مـا الـذي تصنعه

الحـرب بالطيّبيـن؟!"

هـا أنـت، لا تعـرف كيـف تتجـه، ومـاذا تخفـي تلك الجبـال خلفهـا. تتسـاءل فـي خلـدك، هل أنـت شـخص حالـم يفتّـش عـن أثـرٍ للمعرفـة فـي كلّ مجهـول، أم أنّ الكبريـاء العنيـد بعثـرك، لتلتـمّ كطيرٍ أكثـر انتمـاءً للهـواء وأكثـر إيمانـاً بجنـاح حلمـه الـذي سـيحطّ بـه أبعـد مـن السـفارة الألمانيـة فـي بيـروت التـي رفضـت طلبـك لإكمـال دراسـتك فـي الخـارج؟ أم أنّـك محـض صديـق يريـد أن يفـي بوعوده فيتنـاول القهـوة مـع صديقـه المهاجـر فـي ديسـلدورف، تلـك المدينـة الألمانيّـة التـي أحببتهـا فـي خيالـك فقـط، وأنـت لا تعـرف حتـى إذا مـا كان ذلـك حبّـاً أم أنـه محـض طيـوفٍ وأوهـام، تمامـاً كحـبّ غسـان كنفانـي غـادة السـمّان؟

هـا أنـت تقـف حائـراً، وتفكّـر بأغانيـك التـي كنـت تسـمعها ومـا تخيّلـت أنّهـا سـوف تصبـح واقعـاً فـي يـومٍ مـا، تفكّـر فـي أغنيـة جـون لينـون وتـردد بصـوت عـالٍ لا يسـمعه سـواك:

Imagine there is no countries. It is not hard to do."
Nothing to kill or die for and, no religion too. Imagine
"all the people, Living life in peace.... oh

ومـن ثـم تعـود لأغانـي مارسـيل خليفـة لتـردّد

بصوت أعلى، صوتٍ يملأ كلّ المساحات الفارغة في تفكيرك، صوت يختزل المسافة بين الحقيقة والخيال، صوت يقلّل ذاك الرعب الذي يعتريك عندما تشهد طوابير الناس أمامك، صوت يقول فقط:

"كلّ قلوب الناس جنسيّتي ... فلتسقطوا عنّي جواز السفر".

ها أنت تقف هنا، تنتظر المسافرين الآخرين الذين يشاركونك سيّارة النقل العموميّة كي يحصلوا على ختم الدخول لتتابع مسيرتك نحو مطار بيروت الدّولي. تتضارب أفكارك وتجتاحك أعاصيرُ تتلاعب بهواجسك، من نظرة طفلتك البريئة ذات الستة أشهر، والتي قبّلتها على وجنتيها وداعبتها منذ أقلّ من ساعتين ونصف، إلى بكاء أمّك وأقاربك في لحظة وداعك، إلى ذاك الشعور الذي ينتابك كلّما نظرت الى خطّ الحدود الوهميّ الذي يفصل سوريا عن لبنان. ذاك الشعور الذي في لحظة واحدة قد يرميك أرضاً لتقبّل تراب سوريا وبلحظة أخرى سيجعلك تكره ذاك الثرى. ها أنت لا تعرف ما إذا كان عليك الالتفات إلى الوراء أم مواصلة النظر إلى الأمام. تحترق الدمعة في جفنيك، وتكابر على نفسك كما اعتدت أن تفعل، وتبتسم

مرّة أخرى لحديث سائق السيّارة وأسئلته التي لا تتوقف عن مخطّطاتك المستقبليّة؛ إلى أين أنت ذاهب وماذا ستفعل وكيف تركت أسرتك و..و...، لكنك تتمسّك برباطة جأشك وتحاول إجابته باختصار أنّ كلّ شيء على ما يرام، لكيلا يكتشف تلك البراكين المتفجّرة في داخلك، ولكيلا تنتحب كذلك الطفل الرضيع الذي يترامى بين ذراعيّ والدته، ويصرخ وكأنّه لم يعد قادراً على التنفّس وسط هذه الجموع.

ها أنت تجلس على رصيف الحدود بين الماضي والحاضر والمستقبل المجهول. تنفث دخان سيجارتك وتتأمّله يتصاعد ثم يتلاشى تدريجياً في الهواء من حولك، تفكّر في ذاتك الأكثر قرباً من عشق الطبيعة خارج غرف التجميل، والأكثر قرباً للموسيقى من الضجيج. تفكّر في أولئك الأطفال التوحّديين الذين كثيراً ما رسموا البسمة على وجهك، وعلّموك كيف تقتفي الجمال في خلق الله، وكيف يصير للتحدّي معنىً أجمل بجانبهم! أولئك الأطفال الذين من أجلهم تحدّيت مديريك في العمل، وانتهى بك الأمر لفتح مدرستك الخاصّة بك. تفكّر بتلك الجبال المترامية أمامك، الجبال القاحلة المنتمية لما تمّ تسميته ذات يوم "سوريا". تفكّر.. هل هذا هو

الوطن حقّاً؟ أم أنّ الوطن هو فقط ذاك الشعور بالشغف للمكان الذي ترعرعت فيه؟ ذاك المكان الذي يحمل في طيّاته ذكرياتك الطفوليّة البسيطة المكتنزة بالضحك والغضب، الاهتياج والهدوء، المعاناة وراحة البال، السهر في الليالي المقمرة والأحاديث العبثيّة مع الأصدقاء؟ هل يمكن لكلّ ذلك أنْ يتلاشى كما يتلاشى الدخان المتصاعد من سيجارتك؟ تفكّر بمشاهد الدماء والتفجيرات التي عشتها والرصاص المترامي من حولك وأصوات انفجارات القنابل الذي كنت تسمعه في كلّ حين، الدخان الأسود المتعالي حتى يكاد يمتزج بالسماء! تفكّر وتفكّر، وأنت ترى مشاهد حياتك تمرّ مسرعةً أمام ناظريك كفيلم سينمائيّ، هنا في هذا المكان المكتظّ بمئات الأشخاص. إلّا أنّ ذلك كلّه لم يستطع محوَ حقيقة واحدة، هي الوحشة التي تملؤكَ الآن! فجأة جاء ذاك الصوت من البعيد ليقطع سلسلة أفكارك ويعيدك إلى أرصفة الحياة على الحدود السورية - اللبنانية“، ولترى سائق السيّارة يلوّح بكلتا يديه وهو ينادي:

- وسام...وسام هيّا بنا الشباب جاهزون، دعنا ننطلق قبل ازدحام طريق ظهر البيدر[1].

- ها أنا قادم

أحمد ومحمد ورامي وسائق السيّارة هم من رافقوني في تلك الرحلة. الآن أجلس في المقعد الأماميّ وأستمع لاحتجاجات وغضب أحمد من تلك المعاملة التي واجهها من ضبّاط الحدود، ومحاولة محمّد التعبير عن غضبه لترك سوريا، والأسباب التي دفعته لذلك. لا أحد يعرف إلى أين المسير، لا أحد يعرف وجهته القادمة، كلّها محض أحلام مبهمة تسوق خطانا، كلّ ما يعرفونه هو أنّ أحداً منهم لا يريد البقاء في هذه المقتلة، ولا الالتحاق بالخدمة العسكريّة الإلزاميّة التي لم يشتمّ منها سوى رائحة الموت، وأنت ترى شباباً كالورود تمتلئ بهم القبور تباعاً، ولا أحد يعرف تماماً ما الذي سوف تنتهي إليه الأمور. هؤلاء الشباب الذين لم يجدوا أمامهم سوى خيار واحد، وهو ترك كلّ شيء وراءهم والفرار بأحلامهم نحو عالم مجهول وكأنّ كلّ أحلامهم تتجسّد بعبور تلك الحدود.

١- ظهر البيدر: هو ممر جبلي في لبنان ضمن سلسلة جبال لبنان الغربية يقع بين جبل الكنيسة وجبل الباروك يمر من خلاله طريق بيروت-دمشق، يرتفع قرابة ١٥٠٠ متر عن سطح البحر، ويربط قرية صوفر ببلدة شتورة كما يعتبر حدود فاصلة بين محافظة جبل لبنان ومحافظة البقاع.

هل يمكن للوطن أن يتحمّل كلّ تلك المعاناة؟ هل يمكن للحرب أن تبعثر أشلاء الذات في تلك الطرقات المتعرّجة الغامضة النهايات؟

محمّد لم يجد غير الشتائم، يذروها في كلّ اتّجاه كي يصف ما يحدث في سوريا، وكأنّه يعيد إشعال فتيل الحوار الذي اعتدت إخماده على مدار أربعة أعوام مضت، ما الذي يحدث هنا؟ من هم هؤلاء ومن هم أولئك؟ هل هذا الذي يطوّح بنا يميناً وشمالاً ثورة أم أزمة؟ كم ستكون تلك المسافة الممتدّة بين السواد والبياض، بين الخير والشر؟ تساؤلات لا نهاية لها ولا أجوبة مقنعة يهدأ لها الخاطر.

في هذه البقعة التي لم تعد تتسع لمنطقة رماديّة، إمّا أن تكون مع هنا أو مع هناك، فكيف وأنت لم تشغفك الصراعات يوماً، بل بقيت كما أنت، تغريك تلك المنطقة الرمادية اللامنتمية! ببساطة، أنت الآن منفيّ في كلّ الجهات!

استمرّ الحديث بين الأشخاص الأربعة في السيارة؛ السائق يوزّع التهم جُزافاً، ويلقي باللوم على كافّة الأشخاص الذين كانوا سبباً في خلق تلك الأزمة من وجهة نظره، في حين كان أحمد ومحمّد يريان أنّه ما من كلام يعنيهما الآن، وأنّ كلّ ما يريدان أن يحققاه هو العيش بكرامة فقط!

الساعة تجاوزت الثانية عشرة ظهراً، ولا زال لدينا ساعتان لنصل إلى بيروت، بيروت تلك المحطّة التي ستفصل بين حريّة شعب ودمار بلد تنزح أدمغته تباعاً دون أن يعي أحدٌ خطورة ذلك!

بالنسبة إليّ كان الحديث كلّه ممجوجاً كرهتُ سماعه فكيف أن انخرط فيه!

*****

(2)

تلتفتَ لتنظر عبر زجاج النافذة ولتتذكّر ذلك اليوم، تلك الشقّة التي كانت تجمعك مع بعض الأصدقاء يعبدون الله بطرق شتّى، هناك تقاسمت مع محمّد وأحمد وعليّ أجمل اللحظات منذ ثماني سنوات خلت. تتذكّر ما يقوله عليّ في الصباح، كلّ صباح، هي جملته المأثورة لحظة استيقاظه وركله للفراش بخفّة غزال: "تشرب قهوة؟"

ومع أنّه كان على يقين بأنّني سأشرب القهوة معه، لكنّه لم يكن يشعر أنّ سؤاله المكرّر زائد عن اللزوم.

الآن لم يعد بإمكان عليّ ومحمد التواصل مع بعضهما بعضاً كما اعتادا، فقد وصلنا إلى مرحلة تلاشي المعنى الذي يقرّب بين أرواحنا، والتركيز فقط في

الانتماءات التي صنّعتها لنا المصادفات ولم نخترها أبداً. أكاد أجزم الآن أنّه لم يعد للإنسان السوري من اسمه نصيب سوى دلالة طائفيّة مقيتة حملناها من عصور الضلالة، كيف يمكن أنْ يحدث هذا كلّه في سوريا؟ هل هي حرب طوائف شخصت أمامنا فجأة بقرونها المدمّاة؟ أم هي ثورة لشعب يطالب بحرّيته التي راح يؤجّلها منذ صدّر للعالم أوّل أبجدية وأوّل موسيقا وأوّل حكاية عشق مجيدة؟ أم هي مؤامرة كونيّة لدحر نظام اشتراكي؟ أصحيح أنّ نظاماً ملتبساً لا يمكن وصفه بغير يافطةٍ تَطامَن تحت ظلّها خمسين عاماً ما يزال يبدو عليها بقايا حروف كالحة لكلمة اشتراكية؟

بين هذه الأسئلة وتلك، تسافر بعيداً في خيالك. وتعيدك أسئلة السائق الفضوليّ، إلى واقعك البائس. في هذه المرّة كان يسألني عن رأيي فيما يحدث:

- ما رأيك دكتور؟

لكنني فضّلت الصمت مثل رامي الشاب الثلاثينيّ المسافر إلى لبنان لإعالة أسرته آملاً أن يجد فرصة في أعمال البناء. ألحّ السائق بسؤاله، حاولت اختصار الإجابة عليه بالقول:

- لكلّ شخص الحقّ في هذه البلاد المنكوبة أنْ يرى الأمور كما يشاء، لذلك فالأفضل لنا جميعاً أن ندع هذا الحديث الآن على الأقلّ ما دامت أذهاننا عكرة تطوّح بأفكارنا في كلّ اتجاه!

أدرت مفتاح مذياع السيارة ليصدح صوت فيروز بأغنية أسامينا ... شو تعبوا أهالينا تَ لاقوها.

لم يستطع السائق أنْ ينهي أسئلته الفضوليّة فتابع مغيّراً اتّجاه الحديث:

- كم من العمر تبلغ ابنتك؟ وما اسمها؟

أجبته باختصار:

- ستة أشهر، اسمها ناي

- يا له من اسم جميل!

- نعم... أنا أعشق صوت الناي!

"ناي".. أيّها البرعم الذي يتفتّح شيئاً فشيئاً، يا وجهاً ينعكس في براءته بياض الثلج، في عينيكِ الجميلتين تنعكس زرقة السماء على ماء البحر الساجي، يا أيّها

الملاك الذي كلّما نظرت إلى إبداع الخالق في تفاصيل وجهه، أيقنت كم من الحبّ يتجلّى فيه. أين أنتِ منّي الآن؟ حبيبتي ناي.. أتمنّى ألّا تكبري قبل الأوان. أتمنّى ألّا أسمع منك كلماتك الأولى ملوّثة بثقافة هذه الحرب التي لا ناقة لك فيها ولا جمل.

أذكر أنّنا عندما كنَّا أطفالاً صغاراً كان كلّ ما يطير في السماء هو محض طائرة من ورق، نتراكض لمشاهدتها ونبحث عنها بأعيننا النهمة قبل أن تختفي وراء الأفق. أمّا الآن فبدلاً من تلك المتعة بمتابعة التحديق إلى السماء واللعب مع تلك الطائرة، يختبئ الأطفال لحظة سماع أزيزها يملأ الجوّ، ومن ثم تنطلق أسئلتهم هل هي سوخوي أم أنّها ميغ٢١؟

ويستعرضون خبراتهم التي لم تعد بريئة أبداً!

ناي يا حبيبتي... لا لن أدعك تعيشين ذاك الدمار ما دمتُ حيّاً، فأنت تستحقّين التمتّع بطفولتك تماماً كأيّ طفل على وجه هذا الكوكب المأزوم!

في خلدي، تنتابني مجموعة من الأسئلة التي لا أجوبة لها، أو أنّني لا يسعفني عقلي أنْ أجد لها إجابات مقنعة:

متى سيتاح لي أنْ أحدّق في عينيّ ناي؟

متى سأتمكّن من تقبيل وجنتيها؟

هل سأكون قادراً في يوم من الأيام أنْ أعود إلى ذلك المكتب لمناقشة الخطّة التربويّة لطفل مع والديه؟

هل سأتمكّن من رؤية أولئك الأصدقاء العاملين في المركز مرّة أخرى؟

هل سنذهب مرّة أخرى في إحدى رحلاتنا المعهودة أيام العطل لكي نعيد النشاط لأرواحنا والتخفيف قليلاً من ضغط العمل؟ هل؟ وهل.. وهل؟ إنّها أسئلة أصبحت الآن كالطلاسم لا أملك لها أيّ إجابة.. بل إنّني أخاف التفكير في البحث عن إجابة، فكلّ ما تبقّى لديّ الآن هو حقيبة ظهر تحتوي ملابسي الضروريّة لرحلة السفر، إضافة إلى حقيبة أخرى سوف أودعها لدى أحد الأصدقاء في تركيا.

كلّ ما أعرفه الآن هو أنّ وجهتي القادمة هي: اسطنبول. وما أعرفه أيضاً أنّني تركت عملي، معهدي، أصدقائي، أسرتي وكلّ ما رافقني في يوم من الأيام. الآن لم يعد لديّ سوى صديق واحد فقط، هو تلك الحقيبة التي سترافقني خلال سفري، وملايين الصور والذكريات التي تأكل رأسي، وعليّ أن أتركها كلّها هنا تماماً عند الحدود، وربّما استطعت أنْ أهرّبها في غفلة من رجال الجمارك، عندها سوف يصبح وطني حقيقةً في حقيبتي، أحمله على ظهري أينما قادتني قدماي وأينما يمّمت وجهي!

مضت نصف ساعة تقريباً، كنّا في الطريق إلى بيروت وكان علينا بداية الانعطاف نحو مدينة "عالية"، تلك المدينة الجميلة في الجبل اللبناني، حيث ستكون المحطّة الأخيرة لرامي. في حين تبقى محطّتي الأخيرة معلّقة حتى إشعارٍ آخر. فجأة قرّرت أنْ أقضي بعض الوقت أيضاً مع أخي الذي كان يقيم في عالية تلك الأيام، قلت في نفسي: "لمَ لا؟ لدي وقت طويل، فطائرتي التي سوف تقلّني إلى تركيا موعد إقلاعها في الثانية بعد منتصف الليل." وبالفعل شكرت سائق السيّارة، وتمنيّت التوفيق لكلّ من محمّد وأحمد. ثم ودّعت رامي ومرّ الوقت سريعاً بانتظار لقاء أخي جلال. جلال كان يقيم مع شابّين آخرين من مدينتي السورية السويداء.

كان مسكنهم شقّة حالها كحال العديد من الشقق المخصّصة للإيجار في عالية، متواضعة جدّاً وسيّئة التجهيز بالرّغم من ارتفاع الإيجار. كانت الغرف تصطفّ على نسق واحد مع مدخلٍ مشترك ضيّق دون فسحةٍ أو فراغ بين تلك الغرف، والشقّة كلّها تقلّ عن مساحة غرفةٍ واحدة في بيتنا. إنّ تلك المساكن، بكلّ بساطة، بل بكلّ فجاجة، تُعرف بشقق السوريين العاملين في لبنان. وبالرغم من الإيجار الباهظ، كانت الكهرباء تأتي بعد ست ساعات انقطاع، وفي غيابها تعمل المولّدات الكهربائيّة، وذلك كلّه استدعى التقنين

في استخدام الأدوات والانتظار حتى عودة الكهرباء النظاميّة لتشغيل سخّان الحمّام مثلاً أو كيّ الملابس وما يشبه ذلك. ومن جهتي لم يكن الأمر بالغريب عليَّ أبداً، فأنا أملك صبر جملٍ على مثل هذه الأمور، فلقد ترعرعت في أسرة فقيرة، أو بالأصحّ في أسرة خسرت كلّ أموالها قبل ولادتي. حيث كنّا نعيش في منزل غرفُه القليلة ذات أسقف من الزنك، يُكمل المشهد تصدّعات في الجدران تنزّ منها مياه الأمطار طوال فصل الشتاء، وهذا اضطرّ أفراد الأسرة التسعة، الأب والأمّ وأطفالهما السبعة لمواصلة الكفاح دائماً للصمود في ظروف العيش القاهرة هذه، فامتزج الخبز بعرق الجبين، لتصبح هذه المعاناة في العيش دافعاً للمضيّ قدماً في خوض غمار هذه الحياة القاسية مع الثقة أنّه ما من حال تدوم إلى الأبد.

حمل لي التفكير في تلك الشقّة البائسة نوعاً من الانتعاش والشعور بحريّة مفاجئة أحسّها كلّما تسنّى لي الهرب من جيشان أفكاري التي ما فتئت تحاصرني، كحصار نيرون في قصره في أنتيوم بينما كانت روما من حوله تحترق، فقط أنا لم أستطع العزف على الكمان مثله، بينما كنت أنا ووطني تلتهم النارُ أحشاءنا. تمنّيت لو كنت قادراً على سؤاله كيف تمكّن من فعل ذلك. أفكاري تسجنني، في زنزانتي الانفراديّة، أين المفرّ؟

في تلك الشقّة، كانت الأحاديث المترامية تتناول مواضيع الحياة اليوميّة، ماذا يفعل الأهل هناك، ماذا يحفظون من قصص الشباب القادمين من سوريا، والذين حلّوا ضيوفاً في تلك الشقّة الغريبة والكريمة معاً، حتى بدوا وكأنّهم أصحابها. لينعرج الكلام في النهاية فيصل إليّ، وتتقاطر تلك الزخّات من الأسئلة، عن وجهتي المستقبليّة، ودواعي سفري. ومن السائلين من يعتقد أنّ وضعي الماديّ والعلميّ والمهنيّ والثقافيّ، كلّ ذلك كان يجب أنْ ينزع فكرة الهجرة من رأسي ويؤهّلني للبقاء، فنجاحي في سوريا كوني أستاذاً جامعياً ومحاضراً في جامعة دمشق، وافتتاحي لمركزين لذوي الاحتياجات الخاصّة، كلّ ذلك لا يترك لي أيّ مسوّغ أو حجّة للدفاع عن رأيي في اللجوء إلى قرار الهجرة!

جاء دور أخي بعد أصدقائه ليختزل الحالة بكثافة جارحة عبر ذاك السؤال اللاهث دائماً وأبداً:

نعم، ما الذي يدفعك للسفر؟ لديك كلّ مقومات الحياة الجيّدة في سوريا، وأنت ناجح في عملك، فلماذا تسافر بحقّ السماء؟

"أمّا أنا فلا أرى أيّ غرابة في هذه التساؤلات، فالمحيطون بك لم ينتعلوا حذاءك مرّة، وهم يجهلون تماماً تلك الضغوط التي تعرّضت لها

في الجامعة والتي دفعتك بشكل أو بآخر لتعرف أنّ مكانك ليس هنا، وأنّه لا بدّ لك من التفكير في الهجرة لأنّها خلاصك من هذا الوسط الذي يتساوى فيه الأستاذ الجامعيّ وأيّ عابر سبيل يحمل توصية من مخبر مجتهد!". هكذا هتف صوت جارح في خلدي.

*****

(3)

في أحد الأيام، وبينما كنت أحاضر كالعادة حول نوع من الاضطرابات النفسيّة التي تدعى البارانويا (جنون العظمة) لطلاب السنة الخامسة بقسم الإرشاد النفسيّ، كنت قد طلبت سابقاً من طلابي أن يبحثوا في الإنترنت عن مقطع مصوّر يصف أعراض البارانويا، فقامت إحدى الطالبات بتجهيز المقطع وعرضه في القاعة. كان المقطع يتناول شيئاً من حياة الرئيس الليبي الراحل معمّر القذافي، ويصف الذين أعدّوا ذلك المقطع أنّ الرئيس القذافي كانت شخصيّته تجسّد اضطراب البارانويا بأجلى صوره، وقد حاولوا جاهدين إسقاط جميع خصائص هذا الاضطراب وأعراضه على شخصيّة القذّافي الراحل. مع عرض بعض المقابلات المسجّلة للرئيس لإثبات وجهة النظر

تلـك. طبعـاً وكعادتنـا فـي جميـع المحاضـرات كان لا بـدّ أنْ نناقـش تلـك الاضطرابـات النفسـيّة بشـكل علمـيّ وموضوعـيّ، قمـت بتوجيـه السـؤال التالـي للطـلاب:

- مـا رأيكـم، هـل تعتقـدون أنّ مـا ورد فـي هـذا المقطع صحيح؟

ومثلمـا هـو متوقّـع، انقسـم الطـلّاب، فأجـاب بعضهـم بالموافقـة، بينمـا أنكـر الباقـون أنْ يكـون مـا ورد فـي الشـريط المسـجّل منطقيّـاً!

فـي تلـك الفتـرة كان "الربيـع العربـي" تشـتعل نيرانـه فـي ليبيـا ويغرقهـا فـي الخـراب بشـكل منظّـم ومـدروس تحـت يافطـة الديمقراطيـة الجديـدة والانتقـام للشـعوب العربيّـة المضطهـدة مـن حكّامهـا (الجلّاديـن) وبذلـك كان علـى ليبيـا أنْ تلتحـق بركـب مشـروعات تدميـر بنيتهـا التحتيّـة كاملـة كمـا خطّـط السـادة الأمريـكان.

طلبـت مـن إحـدى الطالبـات أنْ تشـرح مـا تـراه صحيحـاً فـي هـذا المقطـع، فقامـت بسـرد أحـداث وذكريـات ومواقـف سياسـيّة يتداولهـا النـاس غالبـاً مـن مصـادر سـماعيّة غيـر دقيقـة، وهنـا تدخّلـتُ كمديـر للحـوار، بعبـارة حاسـمة:

أعتـذر عـن قبـول هـذا المقطـع شـاهداً علـى امتـلاك

القذّافي حالة جنون العظمة في شخصيّته، لسبب بسيط أنّ المقطع تحكمه توجّهات سياسيّة واضحة، وبالتالي فهو ليس بريئاً من هدف التشويه والعدوانيّة السافرة على الرجل!

وسوف توافقونني الرأي أيّها الطلّاب الأعزّاء أنّ كلّ من يؤيّد القذافي سوف يرى في المقطع اجتهاداً وفبركة مبالغاً فيها، بينما في المقابل سوف يرى كلّ معارضي القذافي أنّ ما جاء فيه صحيح مئة بالمئة، لذلك أعتقد ببساطة أنّ هذا المقطع لا يصلح دليلاً علميّاً على توضيح وبيان أعراض البارانويا بقدر ما يحمل في طيّاته أهدافاً سياسية مبطّنة!

وأردفت:

إنّ قبولنا هذا المقطع سوف يفتح علينا باباً واسعاً ويفرض علينا أنْ نقبل مقاطع أخرى نحن في غنىً عنها، فهناك بعض التحرّكات الآن في بلدنا ونخشى أن يكون ذلك مقدّمات لما حدث في بلدان هذا الربيع! ليبيا ومصر وتونس، وقد يكون حان دور سوريا، وفي مثل هذا الواقع كيف يمكننا الحكم فيما لو قام أحدهم بإعداد مثل ذلك المقطع للرئيس السوريّ؟ والفكرة، كما تعلمون، واردة جدّاً وسهلة بالنسبة للغرب، فهل في مثل هذه الحال سيتعيّن علينا قبوله على أنّه حقيقة أيضاً؟ لذلك فالقول الفصل الآن: إنّ

هـذا المقطـع لا يُعتبـر مـادّة علميّـة تصلـح للدّراسـة.

كان هـذا كلّ مـا قلـت، ولـم أضـف كلمـة أخـرى، ولكـنّ الـذي حـدث أنّـه بعـد عـدّة أيـام وأثنـاء وجـودي فـي حـرم الجامعـة، تفاجـأت باسـتدعائي إلـى مكتـب عميـد الكليّـة، وكان ثمّـة بضعـة رجـال غربـاء بانتظـاري، راحـوا يحدّقـون إلـيّ بنظـرات تكفـي لتخبرنـي مـن هـم، هـؤلاء الأشـخاص تقدّمـوا نحـوي وطلبـوا منّـي مرافقتهـم إلـى خـارج الحـرم الجامعـي، بحجّـة أنّنـي مسـتدعىً للتحقيـق، تأمّلتهـم واحـداً واحـداً

ثم خرجتِ الكلمة من بين أسناني: لا.

تحت أيّ بند تستدعونني للتحقيق؟

سـرنا بخطـا مرتبكـة نحـو عمـادة الكليـة، وهنـاك علمـت أنّ بعـض الطـلاب قـد تقدّمـوا بتقريـر ذي صفـة أمنيّـة سياسـيّة، فحـواه أنّنـي تناولـت شـخصية الرئيـس السـوريّ بـكلام السـوء علـى المـلأ فـي إحـدى محاضراتـي. صُعقـت مـن سـماع ذلـك التلفيـق والتشـويه للحقائـق، والكـذب الصريـح عـن لسـاني بقصـد تشـويه سـمعتي التـي هـي عنـدي أثمـن مـا أملـك لأنّهـا ركيـزة كرامتـي الشـخصيّة والمهنيّـة. كنـت قـد شـرحت للمحققيـن مـا حصـل فعـلاً بـأدقّ التفاصيـل، وأكّـدت لهـم بأنّـي لـم أكـن يومـاً ذلـك الشـخص الـذي يهتـمّ بالأمـور السياسـيّة علـى حسـاب قضايـا العلـم، والأهـمّ مـن ذلـك كلّـه أنّنـي لسـت

علـى هـذه الدرجـة مـن الحماقـة لأقـوم بالانتحـار المهنـيّ بهـذه الطريقـة السـخيفة! فأنـا منـذ نعومـة أظافـري كنـت أعـي خطـورة اقتحـام أحـد أركان الثالـوث المحـرّم فـي المجتمعـات العربيّـة؛ الدِّيـن والجنـس والسياسـة.

وصـادف أنّـه فـي اليـوم نفسـه كان علـيّ أن ألتقـي الطلاب الحاضنيـن لأصحـاب التقريـر الكيـديّ، فاعتـذرت مـن المحققيـن أنّ علـيّ أن أغـادر لأنّ طلابـي بانتظـاري فـي قاعـة المحاضـرات.

انبرى العميد قائلاً:

- لا عليك، أنا سوف أتولّى المهمّة بدلاً منك!

- قلـت: لا بـأس، لكـن أرجـو أن تسـمح لـي أن أبلـغ الطلاب بهذا الأمر بنفسي.

- حسـناً، افعـل ذلـك بسـرعة مـن فضلـك، وسـوف تجدنا بانتظارك.

صعـدت إلـى قاعـة المحاضـرة في الطابـق الثانـي، دخلت بابتسـامتي المعهـودة وحييتهم:

صبـاح الخيـر، اليـوم كان مـن المفتـرض أن نخطـو خطوة جديـدة فـي مسـيرتنا العلميّـة، لكننـي للأسـف قد علمت أنّ ثمّـة عارضـاً يتطلّـب منّـي أن أبقـى خـارج المحاضـرة،

وهـا أنـا جئـت بذاتـي لأعلمكـم بالأمـر، تهامـس بعـض الطـلّاب متسـائلين، فوجـدت سـبباً لأبـوح بالسـرّ:

ليس فـي الأمـر سـرٌّ، علمـت للتـوّ أنّ طالبتيـن مـن هـذه القاعـة قـد تفضلتـا بتقديـم تقريـر سياسـيّ ضـدّي، لـذا سـيقوم عميـد الكليّـة اليـوم بإعطائكـم المحاضـرة بـدلاً منّـي وبالتأكيـد سـوف يتـمّ سـؤالكم مـا إذا كان الادّعـاء المقـدّم ضـدّي صحيحـاً أم لا. مـا أذكـره تمامـاً أنّنـي لـم أقـل مـا ورد فـي التقريـر عنّـي، لذلـك، أرجـو منكـم أن تكونـوا صادقيـن فـي التعبيـر عـن رأيكـم فـي الموضـوع فـي حـال تـمّ سـؤالكم.

هممـت بمغـادرة القاعـة، وقبـل خروجـي تفاجـأت بطالبـة وقفـت فجـأة وقالـت لـي:

- عـذراً لقـد كنـت أنـا وطالبـة أخـرى مـن كتبنـا التقرير!

ولـم تتحـرّج كذلـك أن تصـرّح لـي باسـم الطالبـة شـريكتها فـي المهمّـة.

لـم أكـن أعلـم مـا الـذي يجـب قولـه حقيقـة، فـي داخلـي تلجلـج ذاك الصـوت يقـول "أيّ اعتـذار هـذا! كلمـة آسـف لا تلغـي ذنبـاً يوشـك أن يـزجّ بالنـاس فـي عتمـة السـجون! ربّمـا قـد تخفّـف مـن وقعـه علـى النفس علـى أيّ حـال"

أكّـدت لهـا علـى مسـمع زملائهـا أنّ مـا قامتـا بـه هـو أمـر غيـر أخلاقـيّ ولا يليـق بإنسـان يخطـو فـي حـرم الجامعـات، وأضفـت مبتسـماً:

- إنّ هـذا الغلـط فـي حقّـي لـن يؤثـر علـى درجاتكمـا الأكاديميّـة فـي المقـررات الخاصّـة بـي، وأنّنـي أتفهّـم أنّ البشـر قـد يتصرّفـون أحيانـاً مدفوعيـن بنزوات خاطئة.

عـدت إلـى مكتـب العميد لأجد رجلـيّ الأمـن مـا يـزالان بانتظـاري، وبينمـا كان أحدهمـا يطـرح الأسـئلة علـيَّ كنـت بالـكاد أنتبـه بيـن لحظـة وأخـرى، لأنّـي لـم أكـن أصغـي حقيقـةً، فقـد كان عقلـي يسـافر ويرتحـل تابعـاً أفـكاري النازفـة والمنسـربة نحـو عوالـم أخـرى!

ربّمـا خطـر لـي فـي تلـك اللحظـة كاختصاصي فـي النفس البشـريّة أن يتبحّـر ذهنـي فـي الدوافـع التـي تخطـف المـرء للتصـرّف بطريقـة غايتهـا إيـذاء الآخريـن؟ وهـل هـذا فعـلاً هـو جـزء راسـخ مـن الطبيعـة البشـريّة، كمـا أراد أصحـاب نظريّـة أنّ الإنسـان مفطـور علـى الشـرّ والعـدوان؟ أم أنّهـا محـض محـاولات بسيطة مـن الطلاب للتخلّـص مـن أسـتاذهم الـذي ربّمـا كان صارمـاً ويلـحّ علـى جميـع طلبتـه بضـرورة المواظبـة علـى القـراءة والتفكيـر بعمـق فـي القضايـا، وتحصيـل الثقافـة، بـل

المعرفة العميقة في الكتب التي يطّلع عليها؟

ربّما، بل ربّما كانت الطالبتان ليس أكثر من أداة لتنفيذ غايات أشخاص آخرين يكثر وجودهم في مكاتب الكلّيات الجامعيّة، ويتقاضون رواتب على مهمّات غير منظورة تحت مسمّيات غامضة!

كلّ ذلك جاش في خاطري تلك اللحظات المقيتة، على الرغم من عدم اقتناعي بنظرية المؤامرة الكونيّة!

عاد العميد حاملاً بيده ورقة ممهورة بتواقيع كثيرة بادية للعيان، أدركت مباشرة أنّها ذات صلة بموضوعي الذي أصبح حديثاً على كلّ لسان في الكلّية، وقد سرى الخبر مثل كلام مغموس بالشوكولا، حدست بالتأكيد أنّ تلك الورقة سوف تحمل في طياتها معجزة تشطر مصيري إلى براءة أتمرّغ في رخائها غير المستدام أو إلى صكّ تهمة قد تقودني إلى نزول أدراج مظلمة رطبة وربّما التدلّي على حبل مشنقة متعدّدة الأشكال في ظلمات لا يمكن تخيّلها!

هكذا راح عقلي يخمّن أقصر طريق لتدمير حياة ومستقبل دكتور جامعيّ أمضى أربع عشرة سنة من عمره لكي يحصل على شهادته العليا. بعد إلحاح شديد على حقّي بقراءة تلك الورقة –الدعوى- أمكنني الحصول عليها من عمادة الكلية.

كانت الكلمات تندلق واضحة، تكاد تمدّ لي لسانها ساخرة منّي:

"ادّعت طالبتان من طلاب السنة الخامسة – من قسم الإرشاد النفسي، بمعرفة أحد الزملاء أعضاء الهيئة الإداريّة في الكلية خلال المؤتمر الطلّابي أنّ الدكتور وسام منذر لجأ إلى السخرية من السيد رئيس الجمهورية في إحدى محاضراته، حيث وصفه بأنّه شخص مصاب بجنون العظمة، والدليل أنّه لا يظهر كثيراً على شاشات التلفاز في وقت تستدعي ظروف الوطن ذلك، كما بدا الدكتور وسام شامتاً وهو يعلن على مسامع الطلّاب في القاعة أنّ ثلاثة أرباع سوريا قد أصبحت بأيدي الجيش الحرّ!

لذلك يُرجى من كلّ واحد من طلاب هذه الشعبة أن يدوّن اسمه وتوقيعه فيما إذا كان هذا الادّعاء صحيحاً أو لا، راجين أن يتمّ ذلك بكلّ صدق وشفافيّة ومسؤوليّة."

دوّن أربعة وستّون طالباً من أصل سبعة وستين، هم مجموع طلّاب السنة الخامسة، أسماءهم وتواقيعهم مؤكّدين أنّ ما قيل ضدّي هو محض زور وبهتان، بينما كتب الطالب الخامس والستّون:

"لقد عرّج الدكتور في عرض حديثه على بعض الأمور السياسيّة ولكن ليس كما ورد في التقرير"،

بينما أصرّت الطالبتان صاحبتا الغيَرة الوطنيّة على قولهما: "نعم، لقد قال ذلك". وبالطبع كان لا بدّ من التواصل مع رئاسة الجامعة في يوم تمّ تحديده لاحقاً لاستكمال التحقيق حول هذه الحادثة.

ما أكثر الذين لم يعلموا بكلّ ذلك، ولا بالجرح الغائر الذي تركوه في نفسي حول ماهيّة الوظائف الجامعيّة، فلقد تأكّدت أنّ ثمّة نمطاً من الثقافة في الجامعة يجب أن أتبعه وأكرّسه معصوب العينين، لكنّني لم أفعل، أو حتى لم أدرك أنّ الأمر بمثل تلك الدرجة من العماء في مكان يفترض أنّ أجلى سماته التنوير العلمي وبثّ المعرفة الحقّة، لكم كنت بريئاً ومتطامناً حينما اعتقدت ذلك، بينما أولو الأمر يريدون منّا أن نصطفّ في إحدى جهتين، وصفوهما بالبيضاء أو السوداء، وأنّه لا مكان لفسحة رماديّة بينهما. أمّا أنا فقد كنت شديد الانتماء لتلك المنطقة الرماديّة، لأنّني رأيتها الأكثر إنسانيّة ونقاء كيف لا وهي تمثّل وقف نزيف أبناء الوطن مهما كانت الظروف، عندها أيقنت عين الحقيقة؛ أنّه لا مكان لي هنا، فأنا منفيّ منفيّ منفيّ!

"هل يمكنك أن ترى الحياة من عدسة بيضاء أو سوداء؟ لا شيء بينهما سوى تفكيرك أنت. أهي معادلة بين سواد طاعةٍ عمياء وبياض بريق وهم؟ هل أنت الحالم العنيد؟ أم أنّك ذلك

المحارب المتعب الذي لم يعد يهتمّ بالبياض أو السواد، فقط يريد أن يتّكئ على أقرب حائط ويغفو قليلاً! هل كُتب للأفكار الحرّة في وطني أن تبقى أسيرة؟ أصحيحٌ أنّ الكلمة لا تختلف عن خطيئة التعرّي؟ وهل الصمت حكمة إلهيّة في ذاك الموقف أم أنّه ليس أكثر من ترويضٍ وقتلٍ رحيم لفكرٍ حاول الاستفاقة من غيبوبته؟ هل يحتاج التعبير الذي لا يرغبه السلطان إلى الحماية الإنسانيّة؟ أكان عليك أن تفكّر وتظلّ صامتاً لا تنبس بأيّ كلمة؟" راح صوت لجوج يقرع بوّابات عقلي!

مع أنّ تحقيقات الجامعة لم تفضِ إلى التوقيف على أيّ حال، لكنّها لم تبرّئني من التهمة صراحة، بل أثارت خلفها زوبعة من التساؤلات، حين طُلب مني أن أكتب ورقة على شكل تعهّد أو اعتراف يصف موقفي الداعم لشخصيّة الرئيس ومواقفه، وذُيّل الكلام بملحوظة واخزة:

تذكّر أنّك قلت الرئيس السوريّ ولم تقل سيّد الوطن!

قفزتْ إلى دماغي حينها سخرية الماغوط بأنّ حريّة التعبير والكلام والمعتقد مضمونة لجميع فئات الشعب ويستطيع أيّ مواطن عربيّ في أيّ بلد عربيّ أن يدخل على أيّ مسؤول ويقول ما يشاء، ولكن متى يخرج

فهذه مسألة أخرى!

علمت في تلك اللحظة أنّ ما سينطق به لساني سوف يكون ذا أثر عظيم في مستقبلي القريب والبعيد، فأجبت:

"أعتذر فقد أخطأت التعبير، لم أكن في تلك المحاضرة بصدد التفكير في الأمور السياسيّة، كنت مركّزاً فقط في المقطع المصوّر الذي تمّ عرضه".

وكم تمنّيت وأنا أتفوّه بهذه الكلمات اللولبيّة لو كنت شخصاً مصاباً بداء البارانويا! لكي أمجّ كلّ عنجهيّتي ووجع ذاتي المأزومة في وجوههم، معلناً أنّني شخص له أيضاً قيمته العظمى في الوجود! لكنّني آثرت الصمت والرّزانة مضيفاً درجة أخرى من الثقة بأنّ وقت الرحيل قد حان! فالخوف القابع في مخيّلتي منذ كنت طفلاً بدا وكأنّه لم يرحل، وعاد ليراودني كما كان في السابق حلمُ يقظة لكنّه لا يشبه أحلام الأطفال، بل كان كابوساً! يتمثّل بأنّي في يوم من الأيام سأكون في زنزانة انفراديّة بتهمة حريّة التفكير، حتى لو دون التعبير، تماماً كما قرأت عن كثيرين من أبناء وطني عاشوا تلك التجربة، قابعين في السجون المظلمة لسوء فهم وما من ذنب لهم سوى أنّهم جهروا بحبّ أوطانهم التي سُرقتْ من أحلامهم الخضراء اليانعة!

"أنت لست ذاك الشخص، ولم تكن يوماً تتباهى أنّك تملك توجّهات سياسيّة وتكره أو تحبّ الأحزاب، فغالباً ما وصفت نفسك بأنّك شخص طموح يعشق تطوير ذاته وعمله، يفكّر بغيره، يتمنّى أن يحلّ السلام في أصقاع الأرض كلّها، أنت شخص لا يرى حدوداً تفصله عن الآخرين. كلّ ذلك ساطع لديك كالشمس في يوم صيفيّ، لكنّ الذي غاب عنك أنّك لكي تكون طموحاً، وتستطيع أن تخطو صعوداً نحو أحلامك الكبرى، عليك أن تكون خبيراً في الصمود والتصدّي، لأنّ من حولك من الأشباه الذين امتلأ الوطن بهم لا يروق لهم أنْ يروا أحداً سواهم يحقّق هدفاً ناجحاً.

حقيقةً مَن أنت؟ أنت ذاك الشخص البسيط والمعقّد على حد سواء! بسيطٌ كطفل في السنة الأولى من عمره بما يكتنفه من سلام داخلي، ومعقّد أكثر من الهندسة الفراغيّة عندما يتعلّق الأمر بالتكيّف مع المحيط الخارجيّ". صرخ الصوت في خلدي.

****

(4)

لم يكن أحد من شركاء أخي في الغرفة يعلم المفارقات التي مررتُ بها، حمدت ذلك لأنّه جنّبني الخوض في أحاديث لا أريد الانغماس فيها، مبتعداً قدر استطاعتي عن استدعاء تلك اللحظات المعتمة التي عشتها من قبل، كلّ ما أشتهيه الآن أن أحتسي كأساً من المتّة مع رفاق أخي الطيّبين، وأنْ أرسّخ في نفوسهم الانطباع أنّني اتخذت قرار الرحيل بملء إرادتي، فلخّصت الإجابة عن أسئلتهم كلّها:

"إنّني متّجه إلى أوروبا لأنّها بلدان متقدّمة، راسخة في العلم، وبهذا تكون حلماً لكلّ مَن امتلك طموحاً مثلي."

وقد كان كلامي واثقاً إلى درجة أنّني صدّقت نفسي أنّ ذلك هو السبب المعتبر الوحيد لرحيلي!

مراراً وتكراراً يصرخ صوت في خلدي: "نعم، أنتَ لم تهاجر فقط بسبب الحرب ولا هروباً من أيّ خطر كان يتهدّد حياتك في سوريا، بل إنّك تسافر لتحقق ذاتك! كم هو مثير للشجون عندما تقول إنّك غادرت بلداً تمزقّه الحرب، إنّك غادرت ذكرياتك وأحلام طفولتك، فقط للحصول

على حياة أجمل ممّا كان متاحاً لك. أهو التفسير الوحيد المقنع لما تبقّى من عقولنا؟ ولأنّك لستَ معنيّاً بشرح كافة الأحداث للآخرين الذين قد لا يملكون الوقت لسماعها، أو ربّما يحدث أن تقودهم تساؤلاتهم إلى زوايا يضيق بها الإحساس والصبر والوقت مجتمعة، فأنت هنا مسافر، مع حقيبة ظهرك التي قد يكون وطنك بكلّ ما فيه قد أصبح داخلها، مسافراً فقط.

نعم.. مسافر، وهذا كلّ شيء حتّى هذه الساعة!

أمّا ماذا سوف يعتقد الآخرون عنك، فتلك مسألة زائدة في الحسابات، لأنّ هؤلاء الآخرين يهذرون بكلام يطوّح بالأفكار في كلّ اتجاه وهم يجهلون أنّهم جزء من المشكلة التي جعلتك تتأبّط حقيبة السفر وتُلقي على كلّ ذكرياتك نظرة ربّما تكون الأخيرة!"

ما لا يعرفه هؤلاء الكثيرون أيضاً، أنّه معي في تلك الحقيبة ورقة رسميّة ممهورة بأختام وتواقيع، ورقة ليست كأيّ ورقة أخرى بالنسبة إليّ، إنّها تعادل عندي وضع سكين حادّة على حَنجرتي! إنّها تتضمّن إيقافي عن التدريس في الجامعة إيقافاً فوريّاً غير قابل للتعديل أو التجديد، إنّه حكم مبرم يحمل اسمي

وتوقيع رئيس الجامعة، وهو قرار مبنيّ على تحقيقات كانت المعادلة فيها مستحيلة الحلّ تعتبر أنّ رقم اثنين من فصيلةٍ ما أكبر وأهمّ من الرقم خمسة وستّين من البشر الطبيعيين!

هنا، وبعيداً عن الحساب والرياضيّات في وطني، يحدث كثيراً ما يذكّرنا بأنّ الصِغر والصَغار مشتقّان من جذر لغويّ واحد.

ربّما يحمل الرقم الصغير إشارات غامضة ومعانيَ أكبر من قيمته الحقيقيّة، وقد كان في حالتي إشارة البدء للانطلاق نحو كون جديد، إشارة لإغلاق دفتر الذكريات، ووضع اليد على الجرح والضغط بشدّة لإيقاف النزيف، نزيف قلبي اللاهث والمشغوف، بفجاجة أبناء الريف البسطاء، في عشق هذا الوطن، حالة اختصرها الشاعر وجعلتُها أنا مثل تميمة تتدلّى في عنقي أيّنما يمّمت وجهي:

"إنّني العاشق والأرض الحبيبة" لكنّني خالفت درويش الآن حين حشرت ما تبقّى لي من الوطن في حقيبتي الكالحة، وها أنا عازم على السفر!

درويش وأدونيس، الشيخ إمام، مارسيل خليفة، جوليا بطرس، سميح شقير، ماجدة الرومي، هؤلاء هم رفاق قلقي وسعادتي في كلّ حين، أترنّم بأشعارهم وأغانيهم، وطيوفهم تؤنس وحشة روحي، حيث يجعلون الحياة

تدبّ في عروقي كلّما أوشكت على الانطفاء.

مع قدوم المساء مضيت إلى المطار، نقطة الانطلاق إلى عالمي المجهول القادم وكأنّما كنت أحاول أن أمنع نفسي من شيء يشبه البكاء، رحت أدندن بصوت مكتوم:

"لا برّ إلا ساعداك.. لا بحر إلا الغامض الكحليّ فيك. أنت الآن وحدك، فاجعل من كلّ متراس بلد، لا...لا أحد، لا أحد إلّاك في هذا المدى المفتوح للنسيان، لا... لا أحد!"

كان عهدي بالنوم قد أصبح بعيداً، مع سيل أفكاري التي راحت تحاصرني؛ وداع أسرتي، ومع هذا الوداع أشحت بوجهي الحزين مرغماً عن كلّ ما يشغفني في هذا الوطن، وها أنا الآن تتثاقل خطاي في مطار بيروت الدوليّ، طائرتي في الثانية بعد منتصف الليل، سوف تنهش عقارب الساعة جلدي ريثما يحين الموعد، فهي الآن الحادية عشرة ليلاً فقط، لم يكن المطار مكتظاً في ذلك الوقت المتأخّر، لكنّ الطائرات كانت تنتشر في كلّ مكان، تلك التي تتّجه غرباً وتلك شرقاً، بينما الأخرى تزحم عتمة الليل وهي تشقّ طريقها فوق بحر بيروت.

يجيش في صدرك السؤال: إلى أين يرحل كلّ هؤلاء الناس؟ هذه الطائرات التي تشارك النجوم وميضها،

كم من القلوب التي تركت أحباءها خلفها تحمل في بطونها الآن؟ كم من السوريين تقلّ إلى فجاج الأرض الشاسعة وهم يبحثون عن أوطان جديدة سوف يعيشون فيها غرباء الوجوه والأيدي والألسن؟ وتذكّرت ذلك الطفل الذي كان لا ينقطع عن البكاء عند معبر الحدود، بينما أمّه تحاول تهدئته بأيّ طريقة، ترى هل استطاع وأمّه أن يعبرا الحدود مثلي؟ هل يمكن أنّ ذلك الطفل ظلّ يبكي حتى جفّت دموعه فهمد ينشج دون صوت؟ أم أنّ هؤلاء العشرات من المعذّبين ما يزالون هناك تلوب قلوبهم في حلقة مفرغة من الانتظار؟ يستجدون عطف عناصر الدرك، أولئك الذين توارثوا أحقاداً راسخة زرعها الطغاة في قلوبهم، فباتوا لا يملكون سوى الشماتة كلّما رأوا سوريّاً يتمرّغ في وحول الذلّ والإهانة؟ إنّها أوقات تقف الإنسانيّة فيها على رجل واحدة ترشح عرقاً بارداً ودماً!

ثمّة نظرات شرسة فاضت من رجال الحدود نخست السوريين المهاجرين بين أضلاعهم بحرابها المسنونة، نظرات فحواها أسئلة متوحّشة يختزلها سؤال أكثر توحّشاً:

لماذا أنت هنا؟ يعني لماذا أنت ماتزال على قيود الأحياء؟ كيف نجوت من القصف أو الموت غرقاً في أعالي البحار؟ أيّ معجزة قذفت بك إلينا بينما أخوة لك من ذات الوطن باعهم تجار البحر بالجملة أو

بالمفرّق في تجارة أعضاء عابرة للحدود والقوميّات؟

في ساحة المطار أومأتِ الساعة أنّ وقت الرحيل قد أزف، فودّعْ أخاك وصديقه، عانقهما، وحين تبتعد قليلاً لوّح لهما بكلتا يديك!

إلى اللقاء!

"أترى؟ إنّها تصرّفات بسيطة، وليست كما ظننتها سوف تجعل روحك تنخلع وتُجلسك على فوّهة بركان الدموع!

لا شيء سوى بحر بيروت من خلفك، وبوّابة المطار من أمامك، ها أنت تحرق كلّ السفن وراءك، وكأنّ روحك تلهج: لا عودة، لا عودة!"

جررتُ حقيبتي ودخلت، كانت اللوحات تقودني من يدي لأحدّد اتجاهي، قرأت تاريخ ذاك اليوم الذي سوف يكون منعطفاً حادّاً في مسيرة حياتي، إنه السادس من شهر تموز/يوليو عام ٢٠١٥.

هكذا كان الصوت يدوّي في خلدي: "ربّما يكون اليوم بداية أخرى في حياتك، إنّه يوم يجب أن تتلاحم فيه كلّ نوازع إرادتك، لكي تكون صلباً، لكي تبدأ من جديد، لكي تدقّ أبواباً جديدة،

فلا تخذلك همّتك، من هذه اللحظة سوف تستلّ سيفك وتمتطي صهوة فرس روحك المطهّمة لكي تخوض حرباً جديدة. اليوم هو خطوة البداية في حرب جديدة شرسة مع خصوم مجهولين، إنّها ليست كتلك الحرب التي عشتها في سوريا من أجل البقاء على قيد الحياة، بل هي حرب انتصارُك فيها أن تُثبت ذاتك في عالم المجهول. الطريق شرقاً تفضّل، من الآن عليك أن تنجز كلّ شيء بذاتك، ولن تجد أحداً يسندك سوى نفسك، عليك أن تفرض مواهبك لا أن تستجدي من أحد. إنّك تستحقّ، أنت تعرف ذاتك جيّداً، تعرف أنّ لديك كثيراً من الأشياء الجميلة داخلك، ما من أحد يستطيع رؤيتها الآن، إنّه ليس ذنبك، لا بدّ أن يأتي ذلك اليوم الذي تسطع فيه روحك وتنجلي قدراتك البارعة، عندها سيراك الآخرون كما يليق بك أن تكون!"

تتّجه شرقاً وأنت ترنو إلى موظّفة التفتيش في المطار وهي تنظر بازدراء إلى جواز سفرك السوريّ، ثم تطيل التحديق إليك وتتفحّص جميع تفاصيلك وكأنّك قادم من كوكب بعيد، لكنّ زاوية فمها الموارب أوحت بأنّها ربّما كانت تخشى أن تجد قملاً في شعرك. مرّة أخرى يسطع كره السوريين في الملامح، ما ذنبي

أنـا؟ إنّـه جـواز سـفري، يحمـل اسـم بلـدي، أمّـا النظـرات التـي كانـت المـرأة ترمقنـي بهـا والأسـئلة الغريبـة التـي صبّتهـا فـوق هامتـي أثنـاء التفتيـش كانـت تدلّنـي علـى أنّنـا شـعب غيـر مرحّـب بـه، لا يهـمّ، فلسـنا مسـؤولين عـن مشـاعر الآخريـن تجاهنـا، بـل ربّمـا يكونـون علـى بعـض الحـقّ حينمـا يكشّـرون فـي وجوهنـا.

لا يهـمّ، هأنـذا منسـحب مـن كلّ مـا يسـبب لهـذه السـيّدة النفـور. ابتسـمت لهـا وشـكرتها، فلقـد شـعرت لحظتهـا أنّ قـوى روحانيّـة غامضـة انثالـت فـي قلبـي حتـى أوشـكتْ أن تجعـل لسـاني يجهـر بمـا يشـبه الوصايـا المقدّسـة:

"وَأَمَّـا أَنَـا فَأَقُـولُ لَكُـمْ: أَحِبُّـوا أَعْدَاءَكُـمْ. بَارِكُـوا لاَعِنِيكُـمْ. أَحْسِـنُوا إِلَـى مُبْغِضِيكُـمْ، وَصَلُّـوا لأَجْـلِ الَّذِيـنَ يُسِـيئُونَ إِلَيْكُـمْ وَيَطْرُدُونَكُـمْ"

لـم أكـن قـد سـافرت سـابقاً عبـر مطـار بيـروت، لذلـك بـدا كلّ شـيء جديـداً وغريبـاً، إنّـه إيحـاء بأنّنـي لـم أكـن قـد رأيـت شـيئاً فيمـا مضـى مـن سـنيّ عمـري، وأنّ الجديـد سـوف يبـدأ الآن.

راحـت عينـاي تتنقّـلان سـريعاً، تتفحّصـان اللافتـات كلّهـا، محـاولاً رسـم تفصيـلات طريقـي وأنّنـي أعـرف جيّـداً أيـن سـتخطو قدمـاي. إنّـه شـعور مـن يكـون فـي حضـرة سـباق خيـول وقـد راهـن بـكلّ مـا يملـك مـن مـال علـى جـواد اختـاره بمحـض حدسـه ليـس إلّا، فـراح يتابـع

المضمار ويرصد غابة سيقان الخيول المتلاطمة، وقلبه يلهث متمنّياً أن يصل جواده أوّلاً! حدقتا عينيّ تجولان بأقصى سرعة، هنا محلات التسوّق، وهاهنا خدمات المطار. اشتهيت أن أرتشف فنجاناً من القهوة وقد عبقت رائحتها اللذيذة في رأسي، فرحت أبحث عن المنطقة المخصّصة للتدخين.

حوالي الساعة والنصف هو الوقت المتبقّي على موعد طائرتي، حتى وجدت ضالّتي أخيراً.

جلست وحيداً في المكان المخصّص للمدخنين، كان ثمّة بعض الطاولات، جلست إلى إحداها وطلبت فنجاناً من القهوة، ورحت أرتشفها بتلذّذ وأعبّ من لفافتي بنهم منتقماً من طعم غامض أردت أن أحرّر مذاق روحي منه! يا إلهي كم هي لذيذة القهوة فعلاً! إنّ الذي ابتكرها يضاهي عندي الآن أهمّ العلماء والمخترعين على هذا الكوكب، شكراً سيّدي، لقد منحتني قهوتك شعوراً غامراً بالسعادة اختلط بنشوة المغامرة التي أنا صاعد إليها الآن!

"انظر لنفسك! ها هو ذلك الطفل المحبط الذي لم يكن يملك القدرة على التنقل داخل سوريا، وطنه الصغير، تنفتح أمامه الآن متعة تجربة الأشياء الجديدة، إنّه مذاق لم تكن قد تحسّسته قبل اليوم!"

أغمضت عينيّ متناسياً كلّ ما حولي، تخيّلت حمامة السلام ترفرف بالقرب منّي، حاملة إلى روحي كلّ ما عندها من الغبطة الداخليّة رغم كلّ ما كان يجول في خاطري، فتمرّد الصوت في أعماقي لاهثاً:

"من اليوم أنت قادر أن تفعل ما تريد وليس ما يريده الآخرون، من اليوم، سوف تجتهد لتجعل الحزن أسيراً داخل أسوار روحك، ولن يمحو ذلك حنينك لوطنك، سوف تظلّ تتغنّى بأغاني سوريا وأرضها المعشوقة، فإذا ما انشغلت بملاحقة شهاب بعيد في السماء، سوف يظلّ نور الوطن أشدّ سطوعاً من كلّ الشهب والكواكب التي تشغفك. كم كنت تحصي النجوم وأنت طفل بينما يؤنّبك الكبار:

" لا تعدّ النجوم يا ولد! فسوف تملأ الثآليل يديك!" لكنّك لم تكن تأبه، وتواصل عدّها سرّاً وليكن ما يكون، يا لها من ذكرى تملأ النفس بشعور جميل!"

أخرجت كتاباً كنت أحمله معي، ورحت أتمتّع بقراءة قصيدة أحبّها، يسطع فيها حبٌّ كبير للأرض وللإنسان الذي يذرع فجاجها الواسعة زارعاً الخضرة والألق في كلّ بقعة تطؤها قدماه!

(5)

الثامن والعشرون من شهر تشرين الثاني عام ٢٠١٢، الساعة ٦:٤٥ صباحاً، رنّ جرس الهاتف في منزلي، من تُرى الذي يتّصل في هذا الوقت المبكر؟! أجابت زوجتي على الهاتف ثم هُرعت إليّ قائلة:

- وسام، أسرع! اتصلت أمّي لتخبرني بأنّها كانت تحدّث ابن عمّي عبر الهاتف، ابن عمّي الذي يقطن في ساحة الرئيس هنا في جرمانا[٢]، وفجأة سمعَتْ صوتاً مدوّياً وصوت زجاج يتكسّر! ثم انقطع الاتصال ولم تُجدِ كلّ محاولاتهم للاتصال به ثانية !

ركضت خارج المنزل دون أن أبدّل ملابسي، متّجهاً نحو المنطقة التي يسكن فيها ابن عمّ زوجتي، والتي لا تبعد أكثر من أربعمئة متر عن منزلي. قطعت حارتين للوصول إلى الشارع الرئيسيّ وأنا أجري نصف نائم، ورأسي يضجّ مثل حجر الرحا! لمحت بعض الأشخاص يهرولون كذلك في نفس وجهتي، سألت أحدهم:

٢- جرمانا مدينة سورية ومركز ناحية جرمانا في محافظة ريف دمشق. تقع على أطراف دمشق في الجنوب الشرقيّ وتصلها بدمشق منطقة الكباس والدويلعة.

- ما الأمر؟

- يبدو أنّه انفجار!

لـم أتوقّـف حتـى لألتقـط أنفاسـي، بـل تابعـت الركـض بأقصـى مـا أسـتطيع.

كانـت بضـع سيارات تمـرّ مسـرعة في الشـارع الرئيسـيّ الواصـل بيـن طريـق المطـار وسـاحة الرئيـس، ومـا إن صـرت قريبـاً، وقبـل أن أنعطـف يمينـاً باتجـاه المنـزل الـذي أحـاول الوصـول إليـه، سـمعت صوتـاً مدوّيـاً مثـل بـركان طـال احتباسـه، ينفجـر فجـأة مطلقـاً دويّـاً لا يمكـن تخيّلـه!

صـوت لا يصـمّ الآذان وحسـب، بـل إنّـه يجعـل القلـب يوشـك أن ينخلـع ويرتمـي بعيـداً عـن الجسـد الـذي يحتضنـه!

تملّكنـي رعـبٌ لـم أعرفـه مـن قبـل، وبشـكل عفـويّ رحت أمسـح السـماء ببصـري متوقّعـاً أن أرى طائرات أشـباحاً، لكـن نظـري ارتـدّ حاسـراً عـن سـماء سـاطعة الزرقـة كما لـم أرهـا قبـل اليـوم. وحيـن التفـتّ جهـة اليميـن مصادفـة رأيـت شـيئاً يطيـر فـي السـماء، بالطبـع لـم يكـن طائـرة ولا طيـراً، ومـع قشـعريرة نفضـت جسـدي كلّـه عرفـت أنّـه مـا تبقّـى مـن جسـد بشـريّ طـوّح بـه الانفجـار عاليـاً! ركضـت مسـرعاً بكامـل هلعـي مقتربـاً مـن المـكان،

وحين وصلت منقطع الأنفاس، لم يكن هناك سوى بقايا سيّارة محطّمة تشتعل، وأشلاء الجثث مطروحة في كل زاوية، ثمّة أناس يصرخون بما يشبه الأنين، والآخرون تيبّست ألسنتهم في أفواههم فراحوا يتحرّكون كمن يسير في نومه. كانت تلك ساحة الرئيس التي غدت لحظتها ساحة الدم!

قريباً من المكان، عند محطّة الوقود، سمعت بضعة أشخاص يصرخون:

- تراجعوا، تراجعوا! محطّة الوقود قد تنفجر في أيّ لحظة!

ربّما تعطّلت حواسي في تلك اللحظات، كان كلّ ما أراه هو قطع من الأجساد المتناثرة في كلّ مكان، وكأنّ ساحراً خبيثاً قفز من إحدى الحكايات المرعبة ليطعم قطيعاً من الكلاب الوحشيّة من أشلاء أجساد البشر!

يا ربّ الكون، ما الذي حدث؟! لم تعد رجلاي تقويان على حملي، وأحسست أنّ أمعائي سوف تخرج من فمي. كان الناس من حولي يولولون وينتحبون، دموع كالمطر تقاطرت على الوجنات، صرخات وعويل لم أعد أعرف من أين يأتي، ركضت مسرعاً نحو منزل قريب زوجتي، طرقت الباب بكلّ ما تبقّى لي من

قـوّة، لا أحـد يسـتجيب. لـم أنتبـه للهاتـف الـذي كان يـرنّ فـي جيبـي تلـك اللحظـة، إلا بعـد عـدّة محـاولات كرّرتهـا زوجتـي لتخبرنـي أنّهـا علمـت أنّ قريبهـا وعائلتـه بخيـر. أجبـت بكلمـة واحـدة:

- نعم!

أغلقـت الهاتـف وهُرعـت للمسـاعدة في إسـعاف الجرحى، أسـاعد بعضهـم فـي الصعـود إلـى السيّارات لتسـرع بهـم إلى المستشـفيات.

كان الجرحـى بالعشـرات، إصابـات بليغـة، وأيدٍ وأرجـل مبتـورة وعيـون خارجـة مـن محاجرهـا، بينمـا الـدم أصبـح بحيـراتٍ صغيـرة لزجـة!

كانـت المهمّـة التاليـة أقسـى وأكثـر توحّشـاً، الآن لـم يبـقَ أمامنـا سـوى أشـلاء الضحايـا، رحنـا نلملـم قطـع الأشـلاء البشـرية ونضعهـا فـي أكيـاس سـوداء أكبـر قليـلاً مـن أكيـاس القمامـة، تحملهـا السـيارات إلـى المشـافي.

لا أدري كيـف جـاش فـي خاطـري ذكريـات تلـك الأيـام التـي كنّـا فيهـا عمّـال بنـاء، نجهّـز خلطـات البيتـون ممسـكين بالرفـش[٣] بقـوّة لمـزج الرمـل والإسـمنت والماء، الآن نمسـك الرفـوش بأيدينـا لنلـمّ بقايـا أخوتنـا مـن تحـت

٣- الرفش هو أداة تستخدم لخلط الرمل والأسمنت والحصا، هي أشبه بملعقة كبيرة الحجم.

الأنقاض! يا إلهي ما معنى كلّ ذلك؟ ما الذي يحدث؟ أيّ لعنة حلّت بنا؟ ألم يعد يكفينا القهر الذي نتوارثه جيلاً بعد جيل؟ هل قدرنا في هذا الوجود أن نولد عبيداً ونموت عبيداً وحينما نعلن أنّنا نريد الحريّة تحبل بها أوطاننا سفاحاً فتلد طِرْحاً مسخاً يقطر دماً وصديداً؟! لم يعد دماغي قادراً على التفكير بأيّ شيء في تلك اللحظات سوى أن أحاول محو صور الأشلاء من رأسي.

تفنّن مذيعو نشرات الأخبار وهم يعلنون تفصيلات هذا اليوم الدمويّ المشؤوم:

اليوم الثامن والعشرون من تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠١٢، الساعة السابعة وخمس دقائق صباحاً، حين بدأ الأطفال يتقاطرون إلى مدارسهم، والموظفون إلى أعمالهم، انفجرت في الساحة الرئيسية المكتظة بالناس سيارة مفخّخة مجهولة، لتفجّر معها في أقلّ من رفّة الجفن أكثر من خمسين روحاً. ولتعطب أكثر من ثمانين شخصاً بإصابات بليغة وغير ذلك من دمار في أرزاق الناس الآمنين.

بلغ بي الأمر أنّ تمرّ أيام وأيام بعد الانفجار، وأنا أشعر أنّ كلّ لقمة أتناولها مجبراً، إنّما هي ممزوجة بالدماء. وكنت على تمام اليقين بحكم اختصاصي في علم النفس أنّني دخلت في اضطراب ما بعد الصدمة،

لـذا بـدأت مباشـرة بإجـراء التدريبـات المسـتندة إلـى اسـتراتيجيات علميّـة لكـي يمكننـي تجـاوز تلـك المحنـة بأقل قـدر مـن الأذى النفسـي الـذي أعلـم مخاطـره جيّداً.

لكننـي كنـت أرثـي لأولئـك الذيـن سـاقهم قدرهـم التعيـس ليكونـوا مصادفـة فـي ذلـك المـكان لحظـة ثـار بـركان الـدم!

والأشدّ حزنـاً أنّ هـؤلاء البشـر البسـطاء لـم يكـن لـدى أيّ منهـم انتمـاءات سياسـيّة تجعلهـم خصومـاً لأحـد، فأطفـال المـدارس والعمـال الذاهبـون لكسـب رزق عيالهـم لـم يكـن يعنيهـم أيّ اصطفـاف سـواء مـع النظـام والسُـلطة أو مـع معارضيهـم أو مـع إحـدى تلـك الجماعـات الإسـلاميّة المدجّجـة بشـتّى صنـوف السـلاح وأشـرس أنـواع الحقـد. كـم هـو مأسـاوي أنّ الموظّـف الذاهـب إلـى عملـه ذاك الصبـاح المشـؤوم ليوفّـر لأبنائـه لقمـة الخبـز لـم يعلـم أنّـه سـيكون صباحـه الأخيـر! ليـت هاجسـاً أوحـى لـه بأنّـه لـن يعـود، ربّمـا كان ودّع زوجتـه وضـمّ أطفالـه إلـى صـدره وأشـبعهم لثمـاً وتقبيـلاً!

كان رأسـي المشـوّش يسـتحضر ذكرياتٍ ومشـاهد وأقوالاً لا رابـط بينهـا سـوى النفـور مـن القتـل ولعْـن أولئـك الذيـن يسـتبيحون دم البشـر مهمـا تكـن غاياتهـم وأهدافهـم.

كانـت مقاطـع شـعريّة وآيـات قرآنيـة وأحاديـث شـريفة تعبـر جمجمتـي وتزيدنـي ثقـة بـأنّ أولئـك الذيـن يسـنّون

حرابهم على رقاب الناس لا يمكن أن تكون القلوب التي تنبض في صدورهم سوى قلوب ذئاب مسعورة!

"يا أيّها الناس ألا إنّ ربّكم واحد وإنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيّ على أعجميّ... إلا بالتقوى!

يا لأبناء بلدي المعذّبين إلى أين أوصلكم القهر والسياسات الخبيثة!

سوف تتعلّمون من حسابكم وحدكم، كلّما تناثرت أشلاؤكم أنّ سنوات كاملة من جدلكم في الآلهة سوف ينهيها انفجار طارئ ويمحوها موتكم الغريب الرخيص في لحظة واحدة!

تلك اللحظة لن يفرق الموت بين رجل أو امرأة، بين كبير أو صغير، بين تقيّ ورع أو ملحد مارق، الكلّ سواء لحظة الموت! أسياداً كانوا أم رعاعاً، حسب قول ضابط الحدود، الموت يساوي بين الجميع ويغسل الأدمغة من الترّهات التي صنعها البشر في حياتهم، لا أديان ولا طبقات اجتماعيّة، لا غنى ولا تشرّد سوف يبقى الآن، الأكياس السوداء سوف توحّد بيننا حينما تتطاير أشلاؤنا في كلّ اتجاه!

ربّما يضمّ الكيس نفسه أشلاء طفل مسيحي، وآخر سنيّ، وآخر درزيّ، ثمّ علويّ، فيجتمع أطفال الوطن بطوائفه كلّها في كيس أسود واحد!

سوف تجمع الأكياس السوداء العالِم والجاهل، إمام المسجد واللصّ، القاضي الشرعيّ وكشّاش الحمام، إنّه قتل عشوائيّ أحمق، يصنع شروخاً عميقة لا تلتئم بين أبناء الوطن الواحد الذين عاشوا عبر التارخ أخوة متحابّين، فلا يعود الآن من شيء يوحّدهم سوى أكياس سوداء كبيرة تشبه أكياس القمامة وكأنّها مع هذه المقتلة التي حلّت بنا أصبحت قابلة أن تتسع للوطن بكامله! فأيّ إله هذا الذي يقبل أن يكون القتل وأنهار الدم جهاداً في سبيله؟!

أسمع ذلك المونولوج الذي لا يهدأ داخل رأسي:

"كأنّك لا تعرف ما هي الحرب بمجملها، فكيف أن تكون حرباً قذرة! إنّها لا يعنيها من هو صاحب الحقّ، هي لا تعرف الخير أو الشرّ وإنّما تسلّم قيادها لفلسفة السلاح الأقوى، وهذه لا يهمّها سوى من الذي سوف يبقى، وبهذا فالمحظوظ هو الذي يخرج منها وهو ما يزال على قيد الحياة، فما بالك بشخص يريد الخروج منها على قيد الحياة والحبّ معاً، ذلك هو أنت الآن!"

وتستطرد في أفكارك وفلسفتك، فتستحضر تلك الثّنائيّة الأزليّة الكبرى؛ الحبّ والحرب، هاتان الكلمتان اللّتان

وإن بدتا للوهلة الأولى متناقضتين وعصبِيّتين على التماهي معاً، لكن بقليل من التمحيص نتيقّن أنّهما كانتا الكلمتين الأكثر ارتباطاً على مرّ العصور. الحبّ في زمن الحرب ليس اختياراً بقدر ما هو احتياج، فبقدر ما تولِّده مأساة الحرب من دمار وقتل وتشريد وعذاب، تشعر معها أنّ قلبك يزداد امتلاء بالحبّ، الحبّ يجعلك تُهرع بصغارك إلى الملاجئ المحصّنة في أوقات الغارات على المدن التّعسة. في الحرب يا صديقي، الحياة تصبح غير الحياة، وإن بَدَت متشابهة الوجوه في الظاهر؛ فالأفكار والمشاعر سوف تتغيّر وقد تنقلب رأساً على عقب، والأهداف تغدو مشتتة موشومة بالفوضى، فلا تعجب حين ترى كلّ شيء قد أصبح مختلفاً عمّا كنّا نَعيشهُ في مُدننا وقرانا التي أحببناها على الرغم من بؤسها. في الحرب سوف تتكشّف لديك مواهب أخرى لم تكن تفطن إليها؛ الهرولة في الشّوارع والحارات لتظفر بلقمة العيش، الوقوف في طوابير الخبز وقضاء حاجات عيشك البسيط السّاعات الطويلة، حيث يفقد الوقت أيّ معنى لديك، أمّا الظفر بعروس تملأ قلبك بالحبّ وتعيد إلى وجودك بعضاً من معانيه التي هرستها الحرب فقد يكون حلماً ملغى، وأنت الشابّ الناهض إلى الحياة بكلّ ما فيها من أحلام ورديّة!

في زمن الحرب فقط تجد من كنت تظنّه حَملاً وديعاً

قد غدا وحشاً كاسراً يشرع أنيابه في وجهك!

في الحرب يمكن للرجل الذي كنت تراه قويّاً ممشوق القوام مفتول العضلات أن يتساقط وينهار من الهلع، بينما ذلك النحيل الهزيل يظلّ ينهض بالمهمّات الجسام دون كلل، فيكون أوّل من يُهرع لينقذ من تبقّى من أهالي حيّه التعيس في يوم القصف، إذا لم يكن قد أصبح مثل الآخرين جسداً بعثرته القذائف الذكيّة!

إنّما أنا أتحدّث عن مُدن الحبّ والحرب، عن تلك المدن التّي نامت على صوت الموسيقى الهادئة وعبق الياسمين لتصحو على صوت القذائف والطّائرات، تصحو لتجد نفسها غارقة في الموت والغبار والأشلاء والدمّ، عن شام الياسمين وحلب الشّهباء، عن مدن هي مهد الحضارات أتحدّث. ما أكثر ما اعتقدت أنّ البشر جميعاً أخوة، لذلك فكلّ الحروب إنّما هي في النهاية حروب أهليّة! وحده التاريخ يعلم ويمدّ لسانه ساخراً حين يرى أنّ الحروب تشعل نارَها حكوماتٌ تعتقد أنّ ثمن العداوة رخيص جدّاً، وتغفل عن أنّ أحد أكبر ضحايا الحروب هو دائماً وأبداً مجتمع عظيم تنتهي به الحال ليسقط في ساحة معركة ليس له فيها ناقة أو جمل!

"كفاك تفلسفاً، أنت الآن هنا، خارج قوس الحرب الرهيبة، وها هي طائرتك بانتظارك

لتقلـع بـك نحـو مـدى جديـد غامـض، نعـم، ولكنّـه لـن يريـق دمـك لأتفـه سـبب!" قاطـع ذاك الصـوت فـي خلـدي فلسـفتي.

أغلقـت الكتـاب، الـذي اكتفيـت منـه بقـراءة عنـوان تلـك القصيـدة:

على هذه الأرض ما يستحقّ الحياة!

أطفـأت سـيجارتي، ولملمـت نفسـي وفيـض ذكرياتـي التـي كانـت مـا تـزال تفـوح منهـا رائحـة الـدم والرمـاد، واتجهـت نحـو بوابـة الطائـرة. هـي الآن سـوف تحملنـي إلـى محطّتـي الجديـدة الأولـى؛ اسـطنبول.

*****

(6)

لـم تكـن طائرتـي ذات فخامـة تليـق بالحـدث، فتذكرتـي مـن الشـريحة الأرخـص سـعراً وهـذا كلّـه لـم يكـن مهمّـاً عنـدي، مـا دامـت سـوف تهبـط بـي بأمـان فـي مطـار اسـطنبول التـي كنـت قـد سـمعت عـن فخامتهـا كلامـاً كثيـراً.

مضيفات الطائرة الأنيقات يلقين علينا التحيّة:

صباح الخير، مع ابتسامة رقيقة، ها نحن نرى الآن وجوهاً تبتسم! كانت تلك هي الابتسامة الأولى التي أراها على وجوه الغرباء منذ غادرت الحدود حتى الآن، لا أحتسب طبعاً محاولات أخي وأصدقائه الحثيثة إلقاء النكات لخلق أجواء من الفرح، بدت غالباً نشازاً في هذا العالم المكفهرّ الذي كانت روحي تمتلئ به من القاع حتى القمّة.

جلس بمحاذاة مقعدي في الطائرة رجل وامرأة لبنانيّان متّجهان إلى اسطنبول للسياحة. دارت بعض الأحاديث البسيطة التي ربّما جعلتني أتسلّى قليلاً، لكنّ جاري سرعان ما غفا لتستيقظ أفكاري من جديد، تعيدني إلى ذلك السجن الذي كانت روحي مغلولة داخل قضبانه! عاد صوت العتمة في داخلي ليؤنّبني هذه المرّة:

"كم مرّة قلتَ لا عندما كان يجدر بك أن تقول نعم؟ كم مرّة خلقت لنفسك مشاكل لا مسوّغ منطقيّاً لها سوى أنّك شخص عنيد وتريد أن تسود العدالة في كلّ مناحي الحياة؟ هل تعتقد أنك ماعت[٤]، من صنف تلك الإلهة الفرعونية المعتدّة بذاتها، وريشة النعام تعلو هامتك، مثلها تماماً؟" قال الصوت ساخراً!

٤- ماعت هي واحدة من آلهة الفراعنة ترمز للعدالة وتبدو في صورها وهي تحمل ريشة النعام على رأسها

هـذه المـرّة، عـادت بـي الأفـكار إلـى عـام ٢٠٠٥ م، تذكّـرت لحظاتـي الأولـى فـي ماجسـتير التربيـة الخاصّـة.

لـم يكـن فـي سـوريا سـابقاً مثـل هـذه الفرصـة، كنـت فـي ذلـك الحيـن مـا أزال طالبـاً فـي الدراسـات العليـا، وفـي لحظـة أضـاء الإعـلان أمامـي عـن اتفاقيّـة بيـن جامعـة دمشـق والجامعـة الأردنيّـة برعايـة إحـدى المنظّمـات المدعومـة علـى مسـتوى عـالٍ فـي سـوريا. كانـت معظـم الشـروط تنطبـق علـيّ فـي حـال قبولـي متابعـة دراسـتي العليـا مـن خـلال هـذه الفرصـة التـي تتطلّـب سنتين دراسـيتين للحصـول علـى الماجسـتير فـي التربيـة الخاصّـة، إضافـة إلـى فرصـة عمـل مباشـرة مـع تلـك المنظّمـة، كنـوع مـن ردّ الجميـل لأنّهـم سـوف يتكفّلـون بتكاليـف الدراسـة كاملـةً، وبالتالـي فأنـا ملـزم بـردّ هـذا الجميـل والعمـل فـي المنظّمـة مـدّة خمـس سـنوات. هـذا مـا نـصّ عليـه العقـد الـذي كانـت بنـوده قـد صيغـت علـى شـاكلة العقـود الأوروبيّـة؛ رواتـب عاليـة إضافـة إلـى كثيـر مـن المميّـزات المغريـة الأخـرى. قـرّرت أن أسـتغلّ هـذه الفرصـة، دون أن أعلـم شـيئاً عمّـا ينتظرنـي فـي دخولـي هـذه التجربـة، لكنّنـي كنـت واثقـاً أنّنـي لـن أنـدم مهمـا كانـت النتائـج، فيكفينـي أنّـي وجـدت فيهـا التخصّـص الـذي تتـوق إليـه نفسـي، لأنّنـي بطبعـي أجـد متعـة فـي العمـل الـذي يكـرّس خدمـة الآخريـن وخاصّـة إذا كان هـؤلاء الآخـرون أطفـالاً مـن ذوي الاحتياجـات

الخاصّـة!

وهذا ما كان.

أثنـاء فتـرة دراسـتي، كنـت أقطـن فـي حـيّ «التضامـن» الشـعبيّ وهـو أحـد اسـتطالات دمشـق السـكنيّة العشـوائيّة، يقطنـه خليـط مـن الأشـخاص هـم غالبـاً مـن ذوي الدخـل المحـدود. فـي تلـك الفتـرة كنـت مضطـرّاً للعمـل مـن السـاعة الثانيـة بعـد الظهـر إلـى السـاعة الواحـدة ليـلاً فـي محـلّ للتسـجيلات، وفـي الصبـاح كنـت أتابـع محاضراتـي فـي الجامعـة. مـرّت فتـرة الدراسـة بشـكل جيّـد ونجحـت بإنهائهـا رغـم كلّ الضغـوط الماديّـة والمعنويّـة التـي أثقلـت كاهلـي. فكثيـراً مـا كنـت، علـى سـبيل المثـال، أضطـرّ للدراسـة أثنـاء عملـي فـي المتجـر، واسـتغلال كافّـة لحظـات الراحـة لإنجـاز متطلّبـات الماجسـتير، وهي بالطبـع لـم تكـن بالأمـر السـهل. ومـا إن أنهيـت دراسـتي حتـى بـدأت العمـل لـدى تلـك المنظّمـة التـي مـا أزال حتى الآن ممتنّـاً لهـا لأنّهـا وفّـرت للدارسـين فرصـة ذهبيّـة فـي هـذا المجـال.

يقولـون: إنّ السـفينة فـي عـرض البحـر قـد تغـرق إذا لـم يكـن قبطانهـا ماهـراً، كذلـك هـي الحـال علـى اليابسـة، خاصّـة عندمـا يتسـنّم القيـادة شـخص بـلا كفـاءة، لينعكس أثـر أدائـه البائـس علـى الآخريـن مـن حولـه. كذلـك كان حـال مديرتـي فـي تلـك المنظّمـة، أدارتِ المنصـب مثـل

قائدٍ عسكريّ متسلّط، وليس في منطقه سوى التلذّذ بإزجاء الأوامر ورؤية من هم تحت سلطته يطيعون وإلّا فالعقاب بانتظارهم لا محالة!

وتلك هي مصيبتي في هذه الدنيا، فأنا لست بالشخص الذي يتقن الانحناء والرضوخ، ولا يمكنني، مهما يكن الثمن باهظاً، أن أسكت عن مواجهة الظلم بالقول الحقّ، ولا عجب ما دمت أمتلك رؤية نابعة من حقائق العلم ومنطقه، فمن حقّي أن أدلي بدلوي وأعبّر عن رأيي فيما يخصّني في عملي. تلك السمات التي كنت أحملها كانت كفيلة أن تجعلني أتحمّل كثيراً من ممارسات الضغط والقهر التي يتباهى بها أصحاب النفوس المريضة ممّن تناط بهم السلطة.

في أحد أيامي القليلة هناك، قرّرت مديرتي أن تلغي إجازات العاملين، لمصلحة العمل، كما زعمتْ، وبصدور ذلك القرار عبّر كافّة العاملين عن احتجاجهم وشعورهم بالغُبن، فطالبنا بعقد اجتماع مع الإدارة في نهاية الدوام الرسميّ من ذلك اليوم. وكالعادة، أراد منّي رفاق العمل أن أكون كبش الفداء وأن أتحدّث باسمهم في الاجتماع الذي ضمّ ما يقارب خمسة وثلاثين شخصاً، وبعد ساعة ونصف من النقاش المحتدم، أعلنت المديرة:

- يبدو أنّكم لا ترون أبعد من أنوفكم!

في تلك اللحظة، شعرت بأنّ تلك العبارة لم تكن لائقة أبداً، وأنّ فيها سخرية وامتهاناً لنا جميعاً، فرفعت يدي طالباً التحدّث لأفاجئ مديرتنا المتغطرسة بقولي:

- في هذه الحال اسمحي لي، باسمي وباسم زملائي، أن نتقدّم بطلب إقامة دورة تدريبيّة لنا جميعاً نتعلّم فيها كيفية النظر إلى ما هو أبعد من أنوفنا!

وكان أن دفعت ثمناً باهظاً لصراحتي تلك، أقلّها رفع رواتب جميع العاملين بينما أنا الوحيد المستثنى من ذلك!

في اليوم التالي امتنع جميع الموظّفين عن بدء العمل حتى الحصول على جواب من الإدارة بخصوص ما تمّ إقراره في اجتماع الأمس. التمّ شمل العاملين في الغرفة المخصّصة لهم، وراح كلّ واحد منّا يتلهّى بحاسوبه الخاصّ، لنتفاجأ بالمديرة تقتحم الغرفة كضابط أمن. فتحت الباب بعنف واستندت بيدها على حافّته وقد أمالت جسدها بوضعيّة متحدّية، أنبأتنا ببدء ميلان وجودنا في تلك المنظمة.

طرقت الباب بقبضة يدها وسلّطت نحونا نظراتٍ ناريّة وهي تزمجر:

- أنتم تضربون عن العمل؟ الآن ستبدؤون عملكم فوراً

مرّة أخرى وجدت نفسي أجيبها:

- لسنا مضربين عن العمل، فها نحن هنا، موجودون حقّاً في مكان عملنا، وليس لنا من طلب سوى أن تحترمنا الإدارة فتردّ على تساؤلاتنا.

قالت:

- يمكننا عقد اجتماع للردّ على التساؤلات.

- نعم هذا بالضبط ما فعلناه أمس، ولكننا لم نحصل على جواب أكثر من وصفنا أنّنا عديمو البصيرة!

قالت بحزم واضح:

- إن كنتم لا تريدون العمل، فأنا مضطّرة أن أطلب لكم الأمن القوميّ أو الأمن العسكريّ.

أجبتها ضاحكاً بصوت مسموع:

- يا له من تهديد! بالنسبة لنا كلاهما له النكهة ذاتها، ربّما تختلف الرائحة فقط !

عندها رأيت عينيها تنفران من محجريهما، وقد اصطبغت وجنتاها بلون اللهب الذي ينفثه تنّين الخرافات!

غادرَتِ الغرفة غاضبةً وبدأتْ باستدعاء الموظفين واحداً تلو الآخر، والضغط عليهم لإخبارها بالشخص المنظّم لهذا الإضراب، وبالطبع كان المقصود أن يعترف كلٌّ منهم صراحة أنّي أنا من قمت بإجبارهم على هذا العمل، وهدّدتهم بفصلهم من العمل في حال الرفض والتكتّم.

كان موقفي واضحاً بالنسبة للجميع، فنصحتهم: فكّروا بأنفسكم فقط، لا أكثر ولا أقلّ، اليوم أنا وغداً أيّ واحد منكم. ومن تلك اللحظة أصبحتُ الشخص المغضوب عليه، ذا السجلّ الأسود، بالرغم من أنّني كنت ملتزماً جدّاً بأوقات الدوام وأؤدي عملي بإخلاص تامّ خاصّة مع الأطفال التوحّديين، أبناء الأسر الذين كانوا يرتادون المنظّمة، وبالرغم من أنّي كنت أتعرّض لمختلف أشكال التمييز والتهديد، حتى أنّ مرتّبي كان أقلّ بكثير من مرتّبات زملائي الآخرين.

ينبثق صوت من ضميري ”لا تحزن، فكثيراً ما يكون الغرض من خلق مشاكل كهذه ليس القصد منه سوى إلهاء الموظفين بأمر ثانويّ لتشتيت انتباههم وحجب التركيز على القضية الأساسيّة وهي هنا فكرة إلغاء الإجازات.“

نتيجة لتلك الممارسات قرّرت يوماً ما بمساعدة أسرة أحد الأطفال أن أغادر سوريا، للعمل في دولة الإمارات. فأخذت إجازة من عملي، وغادرت سوريا للاطّلاع على فرصة العمل التي وعدوني بها، كان ذلك في صيف العام ٢٠٠٨م. وأثناء وجودي في الإمارات، علمت بأنّ مديرتي اتصلت بأهلي وهدّدتهم بأنّها سوف تعمل على زجّي في السجن ومصادرة أملاك أسرتي كلّها. ترك هذا التصرّف من السيّدة المديرة قلقاً شديداً لدى عائلتي، لعلمهم أنّ تلك المنظمة لها صلات واسعة النطاق، فأطلعوني على كلّ ما حدث بالتفصيل منذ اللحظات الأولى لعودتي بعد ما يقارب خمسة وعشرين يوماً. في اليوم التالي لانتهاء إجازتي، وصلت المكان قبل الساعة الثامنة بعشر دقائق، وكانت المفاجأة حين أوقفني موظّف الأمن ومنعني من الدخول بحجّة أنّه تمّ إصدار قرار من قبل المديرة بعدم السماح لي بالدخول.

وكشابّ مفعم بالحيوية والعنفوان، ويمتلك روحاً من

الدعابـة تجعلـه محبوبـاً مـن الآخريـن وقريبـاً مـن النـاس الطيّبيـن والبسـطاء، ابتسـم موظـف الأمـن وسـمح لـي بالدخـول هامسـاً:

"سـأتظاهر أنّنـي لـم أرك، لكـن أرجـوك الدخـول مباشرة إلى مكتب المديرة."

وبالفعل دخلت إليها مباشـرة، فأصابها الذهول بمجرّد رؤيتـي، وكأنّ مـلاك المـوت قـد حـلّ عليهـا!

فـي قـرارة نفسـي كنـت غاضبـاً ومسـتاء وثائـراً جـدّاً، لكنّنـي استطعت أن أضبـط نفسـي، وأن أبـدو فـي منتهـى الهـدوء، وقـد جهـدت فـي رسـم ابتسـامة عريضـة علـى وجهـي.

- صبـاح الخيـر! مبـارك عليـك شـهر رمضـان، حيث مرّ وأنا بعيد عنكم!

ودون أن تسمح لي بالجلوس، جلستُ، وقلت لها:

- علمـت مـن أسـرتي أنّـك تريديـن زجّـي فـي السـجن ومصـادرة أملاكنـا، لذلـك أتيـت إليـك لأسـهّل عليك مهمّتـك بمـا أنّـك متأكّـدة أنّنـي أحـد عبيدك!

تلعثمت الكلمات في فمها، وقالت لي بنبرة تحمل كلّ معاني الاحتقار:

- ليس لديّ وقت للحديث معك الآن.

- علمت بأنّني ممنوع من الدخول، هل أنا مفصول من المنظّمة؟ أم أنّني ما أزال موظّفاً هنا؟ عليّ أن أعرف في أيّ مكان يفترض بي أن أكون!

- أجابت: عليك التحدّث مع مدير المراكز.

في طريقي إلى غرفة مدير المراكز، التقيته في الممرّ، قال لي إنّه لا يستطيع مقابلتي لأنّهم ينظّفون غرفته، فعدت أدراجي إلى غرفة المديرة التنفيذية، وقلت لها:

- يبدو أنّكم منشغلون جدّاً، لأنّ مدير المراكز يقول إنّهم ينظّفون غرفته ولا يستطيع مقابلتي، وأنا وقتي انتهى وعليّ أن أعرف هل من المفترض ألّا أكون هنا، كي أمضي هذا الوقت في مكان أكثر متعة!

انتفضت من على كرسيّها كالسهم وسحبت سماعة الهاتف واتصلت بمدير المراكز، وقالت له:

- يقـول وسـام إنّـك لا تريـد مقابلتـه، هـو الآن فـي مكتبي، تفضّل إلى هنا.

وعندما جاء، بادرته قائلاً:

- لم أقل سوى أنّك لا تستطيع مقابلتي الآن.

كان تهديد المديرة سافراً هذه المرّة:

- يبدو أنّك لا تعلم من أنا، ومن يقف خلفي؟

- لا...لا أعـرف، لقـد كنـت غائبـاً عـن المدرسـة يـوم تلقّـى زملائـي هـذا الـدرس، ونهضـت متّجهـاً صوب الباب!

كانـت هـذه المديـرة تجسـيداً صـارخـاً للمثـل القائل"غيـاب العقـلاء يجعـل الحمقـى يتسـنّمون المناصب."

لـم يعـد أمامـي سـوى أن أتقـدّم باسـتقالتي مـن تلـك المنظّمـة، ولكـن المديـرة رفضتها وكأنّني البـريء المذنب فـي نظـر القانـون، والمتّهـم بعصيـان القائميـن عليـه، فأنـا ممنـوع مـن الدخـول إلـى المنظمـة، وممنـوع مـن تقديـم استقالتي، وفـي نفس الوقـت ممنـوع مـن الحصـول علـى شـهادة الماجستير كـون تلـك المنظمـة تقدّمـت بكتـاب إلـى

الجامعة تطلب منعي من الحصول على الشهادة إلّا بعد دفع الشرط الجزائي من العقد والذي كان يقدّر بنصف مليون ليرة سورية، أي ما يعادل عشرة آلاف دولارٍ أمريكيّ في ذلك الوقت. قلت للمديرة إنني مستعدّ لدفع الشرط الجزائيّ، وإنهاء كافّة الأمور بسلام وخير، كما يقول المثل:"دخلنا بخير وخرجنا بخير" مقابل حصولي على شهادة الماجستير وقبول استقالتي، لكنّها رفضت بحدّة وهي تهمهم:

- أموت وأعرف من الذي يقف وراءك!

- فأجبتها: الله وحده ورائي!

كان ذلك هو آخر يوم لي في تلك المنظّمة بالرغم من عدم قبولهم استقالتي وبالرغم من دخول المحاكم ورفع الدعاوى القضائيّة ضدّي لأنّني لم ألتزم بشروط العقد على حدّ زعمهم، لكنّني كنت سعيداً سعادة لا توصف عندما ألقيت التحيّة على زملائي وقلت لهم: باركوا لي، أنا الآن حرّ، فقد أُطلق سراحي!

جاء الصوت يهتف من داخلي محاولاً أن يرمّم بعضاً من انكسارات الذات:

"أتعلم لماذا كُتِبَ عليك أن تتحدّى وتظلّ جَلداً

لا تكسرك الخيبات؟

لأنك عندما تصبح الظروف المحيطة بك محض ظلمة حالكة يصعب عليك أن ترى فيها ولو بصيص نور آتياً من بعيد، بقدر القهر الذي يقودك إلى هذا السؤال الآن تكون الإجابات والمواقف نابعة من يقين عقلك وروحك معاً. تقاوم لتعيش تجربتك في الحياة، حتى تحيا في وطن يقدّر لأبنائه ما يبذلون من أجله من تضحيات، فمن حقك يا صغيري أن تدرس ما تريد، أن تعمل حيث تستطيع الإبداع، أن تتزوج المرأة التي تحبّ، أن تربّي أبناءً يقدّرون ذواتهم ويرتقون بالقيم التي تسمو بمجتمعهم ووطنهم حتى يستطيعوا في النهاية أن يكوّنوا هويّاتهم الخاصّة التي تميّزهم بشراً أسوياء نبلاء! أنت تعي تماماً أنّه إذا توالى فرض القهر على الإنسان دون أن يتمرّد عليه، فإنّه سوف يفقد إنسانيّته شيئًا فشيئاً. إنّ مقاومة الظلم لا يحدّدها الانتماء لدين أو عرق أو ثقافة، بل تحدّدها طبيعة النفس البشرية التي تأبى الاستعباد أيّاً كان وتسعى إلى الحريّة لأنّها جوهر طبيعتها المقدّس! وهذا تماماً ما أنت فيه الآن، وحدهم الأغبياء من يعتقدون أنّ ثورة تسعى للحريّة، يمكن أن تُهزم.“

منذ لحظة خروجي من تلك المنظّمة، كان عليّ أن أقرر إذا ما كنت سأختار السفر إلى الإمارات العربيّة المتحدة، أو العمل على تحقيق حلمي بتأسيس معهدي الخاصّ لرعاية الأطفال التوحّديين في سوريا.

"ولأنّك شخص عنيد، طبعاً قرّرت تحقيق حلم" قال هاجسي الذي يظلّ يتربّص بي!

بينما كنت غارقاً حتى الثمالة في أفكاري وذكرياتي، جاء صوت كابتن الطائرة، ليطلعنا على معلومات الطقس في إسطنبول ويلفت نظرنا إلى ضرورة وضع أحزمة الأمان استعداداً للهبوط في مطار أتاتورك. انشغلت بالنظر عبر نافذة الطائرة والتمتّع بالمظهر الخلّاب لمدينة إسطنبول من السماء تماماً كما يفعل السيّاح عند زيارتهم أيّ مكان جديد، تقمّصت ذاك الدور وبدأت بالتقاط الصور!

حطّت الطائرة في المطار بعد ما يقارب ساعتين ونصفاً من الطيران، لم أشعر أنّ كلّ ذاك الوقت قد مرَّ بالفعل، ربّما هي ذكرياتي الصاخبة أرادت أن تكون دائماً أبلغ بكثير من أيّ وقت.

يا له من مطار ضخم! رغم أنّني كنت مرهقاً حقّاً بسبب جفاء النوم، إلّا أنني شعرت بمتعة غامرة حين لم أحتج قراءة أيّ من اليافطات، بل اكتفيت بالسير

مـع الآخريـن، إنّــه مبـدأ اللحــاق بالقطيــع الـذي تربّينــا عليــه، حتــى تغلغـل فــي دمنــا!

*****

الطريق إلى اليونان

غريبٌ أنت هنا

لا تملـك سـوى حفنــة مــن الذكريــات وبضــع كلمــات مشوّشــة.

لا الفــرح فــرح ولا الحــزن يشــبه أحزانــاً عرفتهــا فيمــا مضــى.

ها أنت تلاحق حلماً لا تدرك مغزاه

غريبٌ أنت هنا

كغربة طفل حُرم من ثدي أمه

تتسابق أفكارك لتسموَ بك نحو أفق بعيد

وتتثاقل خطاك في عالم المجهول

غريبٌ أنت هنا

تسير ولا تدرك إلى أين تسير

تناغي الروح بحثاً عن أمل ضائع في زحام المطار!

(1)

السير ضمن مطار أتاتورك كالسير في مضمار سباق الماراثون، فهو مطار ضخم فيه العديد من الصالات التي تتداخل ببعضها بعضاً بطريقة هندسيّة لافتة، ليس بالغريب أن يحتلّ هذا المطار المرتبة الرابعة على مستوى الدول الأوروبيّة، من حيثُ حركة المسافرين. على أيّ حال، ساعدني مبدأ القطيع الذي مشيت على هديه في الوصول إلى غايتي. يقعُ مطارُ أتاتورك في الجزء الأوروبيّ من إسطنبول التركية، تحديداً في منطقة "أرناؤوط" أو "يشيل كوي"، يُطلَق عليه أيضاً اسم مطار إسطنبول الدوليّ. يبعد المطار حوالي أربعة وعشرين كيلومتراً عن مركز المدينة، وقد تمّ إنشاؤه عام ألف وتسعمئة وأربعة وعشرين، وتمّ افتتاحه عام ألف وتسعمئة وثلاثة وخمسين. قديماً كان يُسمّى باسم يشيل كوي، وفي عام ألف وتسعمئة وثمانين تمّت تسميتُه بمطار أتاتورك، وذلك تكريماً لمؤسّس الجمهوريّة التركية "مصطفى أتاتورك".

ما إن خرجت من المطار، حتى التقيت صديقي الذي كان بانتظاري هناك، لقد مضى وقت طويل على آخر مرّة التقينا فيها قبل أن يغادر هو وعائلته سوريا. بعناقٍ حميم التقينا وملامح السعادة تشعّ من

أعيننا. يا لسخرية القدر، فالحرب فرّقتنا والحربُ جمَعتنا مرّة أخرى! خارج المطار كانت هناك خدمة حافلات دورية تقدّمها شركة "هافاتاش" وهي من أضخم شركات النقل البريّ في تركيا، كما صرّح صديقي، حيث تنطلق الحافلات كلّ نصف ساعة من عدّة مناطق من داخل مدينة إسطنبول إلى المطار. كان صديقي قد رتّب كلّ شيء قبل وصولي، من تجهيز مكان الإقامة حتى تأمين تذاكر السفر، ولم ينسَ إعداد برنامج للأماكن التي ينوي اصطحابي لزيارتها. كلّ ما كان عليَّ فعله هو المشي على خطاه. صعدنا الحافلة وصديقي لا ينفكّ يشرح لي عن المناطق التي نمرّ بها، وبالرغم من إرهاقي، كان حديثه يصلني شيّقاً جدّاً وبارعاً فيه معلومات ثمينة لا يبوح بها سوى الأدلّاء السياحيين المحترفين إضافة إلى حسّ الدعابة وخفّة الظلّ اللتين فاحتا من حديث صديقي الجميل.

عبرت بنا الحافلة مضيق البوسفور الخلّاب، وصديقي مستمرّ في وصف الأماكن، حتى أخبرني أنّه قرّر أن نتناول عشاءنا في إحدى السفن الراسية في ذلك المضيق.

إسطنبول، كثيراً ما قرأت أنّ هذه المدينة هي واحدة من أجمل مدن تركيا وأكبرها من حيث الكثافة السكّانية وأهمها من حيث التأثير الثقافي والدّور الاقتصادي في البلاد، أمّا بالنسبة للسياحة فإسطنبول هي المدينة

الأكثر جذباً للسيّاح عند خيار السفر إلى تركيّا، وهي مصنّفة ضمن أكثر المدن السياحيّة جذباً في العالم. حملت هذه المدينة أسماء عدّة خلال تاريخها الطويل، وعديدٌ من الأحداث المؤثّرة تركت بصمتها الواضحة على شوارعها ومبانيها الأثريّة المُدرجة في قائمة اليونسكو لمواقع التراث العالميّ، هذا إلى جانب موقعها المتوسّط بين القارّتين الأوروبيّة والآسيويّة، وإطلالتها الجريئة على مضيق البوسفور الذي أضفى مزيداً من السحر على معالمها الأثريّة ومُتنزّهاتها الفخمة وعلى أسواقها الشعبيّة والعصريّة الراقية معاً.

وصلت بنا الحافلة إلى مركز منطقة "أق سراي" في إسطنبول. وهي تقع في منطقة تدعى "الفاتح"، وتعدّ من أكثر الأماكن التي يرتادها العرب في تركيّا. حتى أنّها أضحت تشبه الأحياء العربيّة القديمة في مصر وسوريا والعراق. ومقارنة بغيرها من الأماكن التركيّة، قد تكون أقلّ جمالاً لكنّها أكثر حيويّة، حيث يرتادها الكثيرون، وأوّل هؤلاء هم السوريّون الذين نزحوا في الفترة الأخيرة. في تلك المدينة كان صديقي قد حجز غرفة في أحد الفنادق، وصلتُ إليها وقد بلغ بي الجوع والإرهاق أقصى حدّ. فأصبح كلّ ما كنت أريده هو تناول بعض الطعام والخلود إلى النوم، فقد نسيت آخر مرّة غفوت فيها!

كان الفندق متواضعاً، والغرفة تحوي سريرين،

وحمّامـاً داخليّـاً، وهـو بالضبـط مـا كان ينقصنــي الآن؛ حمّـام سـاخن. وضعـت حقائبـي ودخلـت الحمّـام، كانـت المـيـاه فـي تلـك اللحظـات تنثـال علـى جسـدي بغـزارة، كأنّمـا تريـد أن تغسـل الدمـاء المتيبّسـة على جسد محارب مـن العصـور القديمـة! هـذا غيـر الحـرب الداميـة التـي أخوضهـا مـع أفكـاري. حملـتِ المـيـاه عـن كاهلـي كثيـراً مـن التعـب، فبـدأت أشـعر بالراحـة، وكان صديقـي أثنـاء ذلـك قـد أحضـر بعـض الطعـام، ومـا كـدت أبتلـع آخـر لقمـة حتّـى رحـت فـي نـوم عميـق. وقبـل أن أغـرق فـي نومـي انتبهـت أنّ السـاعة كانـت تقـارب الثامنـة صباحـاً. منـذ وقـت طويـل لـم أنـم نومـاً عميقـاً كهـذا! غريـب هـذا الشـعور، فهنـا فـي "أق سـراي" لا أسـمع تلـك الأصـوات المفاجئـة التـي كنـت أسـمعها فـي سـوريا. ليـس هنـاك قنابـل عشـوائية تتفجّـر هنـا وهنـاك، لا أسـمع أصـوات الرصـاص يتطايـر فـي كلّ الاتجاهـات، لا أشـعر بالخوف أو الحاجـة لتفقّـد أبـواب المنـزل كلّ حيـن. والأهـمّ أنّـه ليـس ثمّـة أشـرطة لاصقـة علـى شـبّاك الغرفـة، لحمايـة الزجـاج مـن التفتـت إذا مـا سـقطت قنبلـة هـاون بالقـرب منّـا. كلّ ذلـك كان جديـداً علـيّ، فمنـذ أربـع سـنوات لـم تعـد تلـك الأحاسـيس تجـد متّسـعاً فـي حياتـي.

صحـوت فــي السـاعة الثانيــة بعـد الظهـر، فوجـدت صديقـي قـد تـرك إلـى جانبـي ورقـة صغيـرة كتـب عليها: "اتصـل بــي عندمــا تسـتيقظ."

كأنّ صديقـي الـذي كابـد مشـاقّ الطريـق قبلـي، عـرف أنّ سـلطان النـوم سـوف يغلبنـي، فذهـب لبعـض شـأنه. اتصلـت بـه، فدلّنـي علـى المـكان القريـب الـذي كان فيـه، التحقـت بـه لنشـرب القهـوة، بينمـا كانـت المدينـة فـي ذلـك الوقـت أشـبه بخلّيـة نحـل، تزدحـم السـاحات والشـوارع بالنـاس. فـي المقهـى الشـعبيّ الجميـل بطاولاتـه الصغيـرة المتقاربـة، وضجيجـه الرخيـم الـذي يشـبه فرحـة الفلّاحيـن بهطـول المطـر بعـد مواسـم طويلـة مـن الجفـاف، اسـتمتعت بشـرب القهـوة مـع صديقـي وهـو يسـرد لـي عـن ذكريـات أيامـه الأولـى هنـا، ومـا مـرّ بـه قبـل تأقلمـه للعيـش فـي تركيـا، معرّجـاً علـى أحـوال أطفالـه وظـروف أسـرته. كانـت كلماتـه، رغـم مـا ضمّـت مـن مواجـع الذكريـات، تحمـل فـي طياتهـا بشـرى ببـدء الربيـع وتفتّـح الأزهـار. سـعدت روحـي كثيـراً لرؤيتـه يُنهـي حديثـه مبتسـماً بفـرح كبيـر!

نهضنـا للقيـام بجولـة فـي الأسـواق الشـعبيّة والعصريّـة فـي المدينـة، تلـك الأسـواق التـي تجّمـع فيها كلّ مـا يخطر ببالـك مـن العناصـر المتناقضـة دون تنافـر بـادٍ، فـكأنّ طبيعـة الحيـاة أرادتهـا أن تكـون كذلـك! كان وقـت الذهاب إلـى الباخـرة فـي السـاعة السـابعة والنصـف مسـاءً، حيـث خطّـة صديقـي لتنـاول العشـاء علـى إحـدى البواخـر فـي مضيـق البوسـفور. تضمّـن برنامـج رحلـة الباخـرة فـي البوسـفور مجموعـة مـن العـروض، بدايـة مـن البوفيـه

المفتـوح مـع أشـهى المأكـولات الشـرقيّة والغربيّـة، وفقـرات مـن العـزف علـى آلات موسـيقية متنوّعـة مثـل البـزق والقانـون، إلـى العراضـة الشـاميّة، وبعـض فقرات الطـرب العربـيّ وعـروض الدبكـة والسِّـحر وألعـاب الخفّـة، دون أن يغفلـوا الفقـرات المخصّصـة للأطفـال، إضافـة إلـى الرقـص العثمانـي المعـروف بـ(المولويّـة). مـرّ الوقـت كقطـار سـريع لينقلنـي مـن ذاك الضيـاع الروحـيّ إلـى فسـحة بهيّـة للتمتّـع برفاهيّـات الحيـاة ومـا فيهـا مـن جمـال سـاحر ينعـش القلـب!

كان صـوت هاجسـي الـذي هجع الآن يترنّـم على أصوات الموسـيقى المتناغمـة، وضحـكات العائـلات تنطلـق مـن هنـا وهنـاك، وكأنّـه يهمـس مربّتـاً علـى كتـف روحـي:

"نعـم، ابتسـم يـا صديقـي، فالحيـاة دائمـاً يجـب تسـتمرّ، وهـي ليسـت سـاذجة لكـي تتوقّـف عنـد حزنـك."

عدنـا أنـا وصديقـي إلـى الفنـدق عنـد منتصـف الليـل، كان متعبـاً، لا يـكاد يسـتطيع إبقـاء جفنيـه مفتوحيـن وهـو يحدّثنـي، وأخبرتـه أنّنـي أنـوي أن أواصـل رحلـة هجرتـي فـي اليـوم التالـي، لكنـه اقتـرح علـيّ قبـل ذلـك أن أقـوم بزيـارة متحـف "آيـا صوفيـا" فـي الصبـاح قبـل أن أغـادر، لشـدّة افتتانـه بـذاك المتحـف، فوافقـت. بدّلـت

ملابسي واستلقيت في السرير أتأمّل السقف المطليّ باللون الفستقيّ الفاتح، وأتجوّل في خبايا أفكاري وأنا أقلّب دفاتر الماضي، عجزت عن النوم لأنّني كنت قد نمت طويلاً خلال النهار، وربّما منعني قلقي من القادم المجهول. هنا سمعت هاجسي يسرع ليشدّ من أزري ويحفزّني:

"تذكّر أنّك قد تركت خلفك صعوبات لا تُحصى فيما سبق، لقد ساعدك عنادك على تحقيق حلمك، يا لك من مكابر عنيد!"

سبحت في لجّة أفكاري من جديد لتعيدني إلى العام ٢٠٠٨م.

هذه المرة أخذتني أفكاري إلى تلك اللحظة الفاصلة التي خرجت فيها من المنظّمة لأبدأ مشروعاً طالما حلمت به؛ أن أفتتح معهداً للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصّة، فبعدما رفضت المنظّمة تقاضي مبلغ نصف المليون -غرامة فسخ العقد- كنت بحاجة ماسّة إلى العمل، فبدأت حالاً التخطيط لمشروعي. اتّفقت مع ثلاثة من أصدقائي أصحاب الاختصاص؛ اختصاصيّ واختصاصيّة في المجال النفسيّ واختصاصيّة نطق، على فكرة بدء مشروع افتتاح مركز خاصّ بالأطفال التوحّديين، فلاقت ترحيباً منقطع النظير. وضعتُ

تصـوّراً للمعهـد بـدءاً مـن تجهيـز المـكان والأثـاث وانتهـاء بالخطـط وآليـة العمـل فيـه. ودأبـت علـى البحـث عـن مـكان مناسـب أولاً، الـذي استمرّ شـهراً كامـلاً، ثـمّ هـا هـو منـزل أرضـيّ واسـع مـع حديقـة صغيـرة فـي منطقـة هادئـة. اسـتأجرته وباشـرت بعمـل التعديـلات عليـه. كانـت الأوقـات الأولـى التـي بـدأت فيهـا بتجهيـز ذلـك المـكان مـن أسـعد لحظـات حياتـي. تملّكنـي شـعور مَـن أفـاق فوجـد العالـم بأسـره رهـن إشـارته. أسـعدني جـدّاً الشـغل علـى التفاصيـل الصغيـرة، مـن التخطيـط لكيفيّـة توزيـع الفصـول إلـى طريقـة صـفّ الطـاولات، إلـى تجهيـز مـكان اللعـب، مـروراً باختيـار ألـوان طـلاء الجـدران!

كنـت المعنـيّ الأوّل بتجهيـز ذاك المـكان، فشـركائي كانـوا منهمكيـن فـي أعمالهـم الأخـرى ذلـك الوقـت، ولا يمكنهـم التفـرّغ والمسـاهمة فـي أعمـال التجهيـز. رسـمت مخطّطـاً مميّـزاً للمعهـد، حيـث اتفقـت مـع نجاريـن بارعيـن لتصميـم الأثـاث والمقاعـد الدراسـيّة بشـكل فريـد مـن نوعـه؛ حيـث جعلـت لـكلّ طالـب مقعـده الخـاصّ، وخزانتـه الخاصّـة، باللـون الـذي يحبّـه. وكانـت كلّ ثلاثـة مـن المقاعـد تتراصـف لتُشـكل نصـف زهـرة، يتوسّـط مـكان المعلّمـة فـي مركزهـا، وكنـت قـد خطّطـت أن يكـون لـكلّ ثلاثـة مـن الأطفـال معلّمـة خاصّـة بهـم، فـإذا مـا جمعنـا سـتة مقاعـد معـاً اكتمـل شـكل زهـرة ملوّنـة

بستة ألوان مختلفة، وهذا هو مجموع المقاعد في الصفّ الواحد، لستة أطفال فقط.

اخترت تدرّجات الألوان؛ الأزرق السماويّ والأخضر والليلكيّ الفاتح لطلاء الجدران لأنّها مريحة للنظر، في حين تمّ اختيار اللون الأصفر لطلاء الأسقف، لتفادي نظر الأطفال التوحّديين نحو السقف فالأصفر ليس لوناً مريحاً للنظر في اعتقادي ذلك الوقت. وكانت أرضيّة المعهد من الإسفنج القابل لامتصاص الثقل عند السقوط والذي بدا ملحوظاً أنّها أرضيّة خشبيّة عاديّة!

وبسبب من عدم توفّر الإمكانات الماديّة الكافية في ذلك الحين، ومع حماستي الشديدة لتحقيق حلمي في هذا المشروع، كنت غالباً ما أقوم ببعض الأعمال بيديّ، وأشارك العمّال أحياناً في التجهيزات، كانت قطرات العرق المتصبب من جبيني أثناء العمل تنعشني مثل قطرات ماء بارد في يوم حارٍّ، وكانت مخيّلتي تحاول ترتيب المكان بشكله النهائي، لتجعلني أراقص ذاتي على إيقاعات حلم حياتي الأجمل. وبالرغم من أنّني لا أحترف تلك المهن، لكنني عملت بحبّ عارم. فقد بدأت من الصفر، وحصلت على عدّة قروض لأتمكّن من بدء مشروعي، فلم يكن لديّ في ذلك الوقت سوى ما يقارب خمسة عشر آلاف دولار أمريكي (أكثر من نصفها غرامة يجب أن تدفع للمنظّمة، والباقي كان

ديوناً متفرّقة من مجموعة من الأقارب والأصدقاء). رغم مساهمة أصدقائي الثلاثة بما يعادل ذلك المبلغ. فقد قبلت مشاركتهم بنسبة الربع لكلّ منّا، ومع أنّي يومها لم أكن أملك منزلاً، لكن بإنشاء المعهد تجلّى أكبر حلم لدي ليصبح حقيقة تعوّضني عمّا سواه.

هناك حيث افتتحنا معهدنا في ريف دمشق التي تبعد عن مدينتي مئة كم وأكثر، فقد كان له أن يصبح منزلي كذلك. وكان عليَّ أن أنتمي إليه كما تنتمي تفاصيله إليّ. فيه رشفت قهوتي كلّ صباح على صداح فيروز، وفيه لملمت أحزاني وخيبات روحي وأخذت أعيد بناء ذاتي.

كانطلاق حصان في مطلع السباق، يدرك أنّ الصعوبة تكون في البداية، ويؤمن أنّ خطوة واحدة واثقة خير من ثلاث مرتبكة. دفعنا إيجار المكان مقدّماً لستّة أشهر واقتضى التجهيز شهرين كاملين قبل الافتتاح، وخلال الأشهر الخمسة الأولى لم يكن لدينا سوى طالب واحد في المعهد. بالطبع لا يكفي قسط طالب واحد لتسديد إيجار المكان أو حتى لدفع الرواتب أو الفواتير. كنت أنا ومعلّمة وموظّف واحد مسؤولين عن كلّ شيء في المعهد، من التنظيف إلى التعليم إلى الإعداد إلى الأرشفة إلى كتابة الخطط. بعد انقضاء خمسة أشهر جزع شركائي وشعروا بالقلق من احتماليّة فشل مشروعنا، فما كان منهم إلّا أن

أعلنـوا انسـحابهم منــه مطالبيـن بأموالهـم التـي سـاهموا بهـا. لـم يكـن لـدي مـن المـال مـا يكفـي لقـوت يومـي فـي ذلـك الحيـن فكيـف يمكننـي الدفـع لهـم! فضـلاً عـن أنّنـي كنـت غارقـاً فـي ديونـي، ولكـن وبعـد كثيـر مـن الخلافـات والجدالات توصّلنـا إلـى حلّ يرضينـا جميعـاً. وهـو أن أكتـب سـندات أمانــة للشـركاء، وتحديـد وقـت وكيفيّـة التسـديد. بـتُّ بعدهـا وحيـداً، لا يصحبنـي إلّا أمـل مجهـول يطمئننـي أنّ كلّ شـيء سـيكون بخيـر. وكلمـات أمّـي المؤمنـة لا تبـارح عقلـي: إنّ الـذي يراك فـي الخفاء، سـوف يجزيـك علانيـةً.

وفجـأة، وقبـل انقضـاء فتـرة اسـتحقاق سـداد مبلـغ إيجـار المـكان، عـرف ذاك الحصــان أنّ الكبـوة ليسـت نهايـة السـباق، بـل هـي معبـر حتمـيٌّ فـي طريـق انتصـاره، فانطلـق كالسـهم متخطّيـاً الأحصنـة الأخـرى واحـداً تلـو الآخـر. ارتفـع عـدد طـلاب المركـز مـن طالـب واحـد إلـى أربعـة، وهـذا يعنـي أنّ الأقسـاط أصبحـت كافيـة لدفع الإيجـار. لكنّهـا لـم تكـن تكفـي لبقيـة النفقـات كالرواتـب، ومصاريـف المكان. المهمّ أنّهـا إشـارة كافيـة لتـدلّ علـى بـزوغ فجـرٍ راسـخِ العنـاد، بعـد ليـلٍ حالـك السـواد.

تلقيـت دعمـاً كبيـراً مـن بعـض الأشـخاص الذيـن آمنـوا بمشــروعي وبرؤيتــي، فمثــلاً كانــت إحـدى المعلّمـات تتنـازل عـن نصـف راتبهـا للمعهـد وهـي تقـول بكامـل الثقـة: "يـداً بيـد، يمكننـا صنـع المسـتحيل!"، الأمـل

الذي كان يقدّمه لي هؤلاء الداعمون كان ينتشلني من خواطر اليأس العابرة. ففي كلّ مرّة كنّا نصطدم بعقبة جديدة أو نفقات طارئة لا نقدر على تحمّلها، يظهر الأمل بهيّاً ليجعلنا نستمرّ. وبالفعل، يوماً بعد يوم، بدأ المعهد يكبر ويكبر، ليثبت أنّه الأجدر والأكثر ثباتاً بين كلّ المعاهد التي وجدته شاخصاً أمامها عند خطّ النهاية. وكان ذلك جليّاً من جذبه لأسر بعيدة نسبيّاً قادتها سمعته الحسنة إليه مباشرة.

كان المعهد أوّل معهد مرخّص في ريف دمشق لذوي الاحتياجات الخاصّة، إضافة إلى بعض المنظّمات والجهات غير الحكوميّة، وكان أحد زملاء الدراسة قد اختلف مع المنظّمة ذاتها قبلي فأنشأ معهداً غير مرخّص. كان بناء معهدنا تابعاً لمنطقة عشوائية غير منظّمة عقارياً في جرمانا، وهذا ما جعل أمر ترخيصه شبه مستحيل تبعاً للقانون، ممّا اضطرني إلى العمل لفترة تقارب السنتين قبل الحصول على ترخيص رسميّ، وكان هذا الفصل أخطر مشهد في المسرحيّة كلّها، فقد كان التهديد بإغلاقه وارداً في أيّ لحظة.

بدأ الحصان يشعر بوقع خطاه على الأرض ويرى سنابكه تقدح شرراً على صخور الواقع، ويحسّ أنّ دماً حامياً يجري في عروقه فلا يسمح له بالتوقف!

استمرّ العمل في المعهد بعدها، مؤتياً ثمار الصبر والإخلاص، تلك الثمار التي كانت تمسح التعب عن كواهلنا وتُندي أرواحنا بنشوة النجاح، أذكر أنّ إحدى الأمّهات قالت لي مرّة: "أتعلم أنّ أكثر ما يعجبني في هذا المعهد، هي وجوه الأطفال المتبسّمة هنا، لهفتهم البادية على وجوههم الصغيرة للقدوم إلى المعهد كلّ صباح! والحبّ الذي تستقبلهم به بنفسك كلّ يوم، عندما تجثو على الأرض لتسلّم على كلّ واحد منهم؟"، ما من سعادة تعادل رسم ابتسامة على وجه طفل، أو أن تحاول جعل العالم أكثر أماناً لطفل مبتلٍ بالتوحّد.

أخذ المعهد يكبر ويكبر، والكادر يكبر معه، فبعد مضيّ عام واحد، كان عدد الأطفال في المعهد يقارب الستّين طفلاً. عند ذلك قمت بفتح قسم مجّانيّ هدفه مساعدة الأطفال القادمين من بيئات محرومة اجتماعيّاً، وأبناء الأسر الفقيرة العاجزة عن دفع النفقات، حيث تكفّلت أنا بتمويل هذا القسم، مؤمناً أنّ السفينة التي لا تحمل شيئاً لله تغرق. كنت في كلّ يوم جديد، أتعلّم من الأطفال أشياء كنت أجهلها، فواصلت صعودي وروحي منتشية بمتعة الحياة وقيمتها.

"من هنا استمددت قوتك، وشعرت أنّك من أجل هؤلاء الأطفال قادر على محاربة أيّ

شيء، فكيف ببضعة أشخاص حمقى يقفون في طريقك. أوديسيوس تحدّى إله البحر وعاد إلى إسبارطة موطنه الحبيب بعد كثير من السنوات، رأى فيها الأهوال التي كان عليه أن يواجهها دون تردّد، لمَ لا أيّها المحارب؟ اشحذ قواك فلا تدعها تضعف، وواصل صعودك فليس هناك من مستحيل ما دمت لم تعترف به! نم يا ملاكي الصغير، فغداً ينتظرك تحدٍّ جديد. الساعة الآن تقارب الثانية بعد منتصف الليل" رتّل صوت هاجسي ترنيمته بصوت يكاد يكون مسموعاً.

*****

(2)

في صباح اليوم التالي، أيقظتني رائحة القهوة التي جلبها صديقي معه، رشفناها وانطلقنا لزيارة "آيا صوفيا"، ذلك المتحف الذي كنت قد قرأت عن تفاصيله وعن تاريخه، حيث مرّت عليه عصور وعصور، وانقلب من كنيسة في العهد اليونانيّ، إلى مسجدٍ في العهد العثمانيّ، ثم عاد إلى هويّته الحضارية متحفاً يؤمّه الزائرون في العهد الحديث. لونه الأحمر الباهت، وجدرانه وأسقفه المرصّعة بالفسيفساء، تجعل دخولك إلى هذا المَعلم يشبه احتضانك أنصع

كتب التاريخ، تقلّبها روحك على مهل بفرح عارم. وبالرغم من أنّ تركيا ذات طابع إسلامي، إلّا أن متحف "آيا صوفيا" ما يزال يضمّ كثيراً من المعالم والرموز المسيحيّة إلى جانب الإسلاميّة. بعد ساعتين من الذهول في حضرة هذه التحفة المعماريّة، خرجنا. كنت شارد الذهن مشتّتاً، فقد اقتربت ساعة الجدّ، وأنا أفكّر بالرحلة التي تنتظرني لعبور البحر إلى اليونان.

بعد الغداء،قرّرت الانطلاق بالحافلة إلى "إزمير"[٥]، وكان صديقي قد قرّر مرافقتي لأنّه يعرف المكان معرفة تامّة، حيث رافق من قبل كثيراً من الشبّان الذين سلكوا طريق الموت هذا أثناء هجرتهم عبر تركيا. استغرقت الرحلة من إسطنبول إلى إزمير ست ساعات تخلّلها بعض الاستراحات في الطريق. وبالرغم من فيض الذكريات الذي كان ينخس قلبي لم أستطع إلّا أن تمتلئ نفسي بهذا الجمال الذي كانت تركيّا تنثره في الأنحاء ليكون أشبه عندي بذاكرة جديدة!

أرض خصبة وطقس بديع ومساحات شاسعة مرسومة بكلّ ألوان الطيف، أضافت إلى قائمة أحلامي لهفة لزيارتها سائحاً خليّ البال وليس هارباً من وطن تمزّقه الحرب وتنهش الكلاب لحمه حيّاً.

٥- إزمير: هي مدينة تقع غرب الأناضول بتركيا، وتُعَد المدينة الثالثة الأكثر اكتظاظًا بالسكان في تركيا من بعد إسطنبول وأنقرة.

حـاول صديقـي جهـده جعـل مـروري المؤقّـت بتركيـا وقتـاً مريحـاً ومسـلّياً، وحـاول تخفيـف ألمـي لتركـي طفلتـي ومغـادرة كلّ مـا أحـبّ، وجهِـد لكـي يـزرع الأمـل فـي قلبـي، مذكّـراً إيّـاي مـراراً بـكلّ التحدّيـات التـي واجهتهـا وتمكّنـت مـن تخطّيهـا، معـزّزاً ثقتـي بنفسـي وبمـا أنجـزت.

سـلوكه النبيـل هـذا ذكّرنـي بالقـول: "إذا عانـى شـخص مـا مـن الاكتئـاب، فمـن المؤكّـد أنّ يكـون هـذا الشـخص قـد أحـاط نفسـه بالحمقـى!"

فكـم كنـت محظوظـاً حقّـاً بـأنّ المحيطيـن بـي كانـوا يبادلوننـي حبّـاً وتقديـراً كبيريـن ويمدّوننـي بطاقـة إيجابيّـة لكبـح جمـاح الألـم الـذي يبضـع الـروح بحرابـه المدبّبـة. صديقـي هـو عـم لطفـل توحّـدي، لـذا راح يحدّثنـي عـن وضـع ابـن اخيـه واستشـارني فـي بعـض مـن الأمـور التـي تخصّـه، وذكـر لـي حـال المركـز الـذي يرتـاده الطفـل، حيـث صُدمـت لبعـض التفاصيـل التـي اشـتكى منهـا، ممـا جعلنـي أزداد شـعوراً بالرضـا عمّـا أنجزتـه فـي معهـدي فـي سـوريا.

"الآن تبـدأ رحلتـك نحـو المجهـول، جالسـاً فـي الحافلـة مـع صديقـك وهـو يـروي لـك عـن كلّ منطقـة تمـرّان بهـا بعضـاً مـن تاريخهـا ومـا يميّزهـا مـن سـمات، وأنـت تشـاركه الحديـث

أحياناً وتصغي إلى ما يقول، وغالباً ينسحب ذهنك ليرحل بك في غياهب متناثرة، ينتشلك منها قول صديقك: "انظر، انظر هناك!" ربّما تنظر لحظة، لحظتين، لكنّ أفكارك تظلّ واقفة عند الباب تنتظرك لتقودك إلى معترك الظنون والتوقّعات المرير!"

في المساء، حططنا رحالنا في إزمير، المدينة التي فتنتني مرّتين؛ حين قرأتها، وحين رأيتها! لكننا الآن يعنينا فقط أن نصل إلى ساحة بسماني، وهناك لا حاجة لأن تسأل، فالمهرّبون يلتقطون أصحاب الوجوه الجديدة والحقائب لإعلامهم بمواعيد مغادرة القوارب إلى اليونان، ومثل أيٍّ من السماسرة المحترفين في شركات التسويق، من المستحيل أن يستغني الناس عنهم فالمتاجر في إزمير كانت تبيع ستر النجاة البرتقاليّة علناً، فها هنا دارة متكاملة يتمّ فيها يوميّاً الاتّجار بالبشر وهي تجارة رابحة جدّاً، تملأ جيوب السماسرة بمال يقطر دماً!

ولأنّ جميع الفنادق كانت مكتظّة لكثرة المهاجرين، كان علينا أن نطيل السير والبحث علّنا نحظى بغرفة في فندق ما. وأخيراً ها هو حلمنا يتحقّق، وها نحن نصغي إلى أحاديث وقصص تقشعرّ لها الأبدان والقلوب، ولعلّ أكثرها إثارة هي تلك التي تروي عن

المبالـغ التـي كانـت تُنهـب مـن كلّ شـخص مقابـل حجـز مـكان علـى متـن قـارب متهالـك، وبعدهـا لا يبقـى سـوى انتظـار أن تهـدأ الريـح لتبـدأ رحلـة التجديـف نحـو الجنّـة الموعـودة؛ أوروبـا. أخبرنـي صديقـي أنّـه يعـرف بعـض الأشـخاص فـي إزميـر ممّـن قـد يسـاعدونني فـي رحلتـي مـن تركيـا إلـى اليونـان. قابلـت بعضهـم، وانتابتنـي مشـاعر غريبـة وأنـا أسـتمع إلـى أحاديثهـم. أولئـك "المهرّبـون" الـذي يتاجـرون بالبشـر، إنّهـم لا يهمّهـم سـوى الألـف يـورو التـي سـيقبضونها مـن أشـخاص هاربيـن مـن المـوت.

بـدأ صـوت ضميـري يئـنّ، "مـن طبيعـة كلامهـم المعسـول التـي توحـي لـك مباشـرة بالنفـاق يقطـر مـن كلماتهـم، فهـم يصفـون لـك رحلـة الهـروب بأجمـل الأوصـاف والتفاصيـل، فـإذا أطلقـتَ لمخيّلتك العنـان، فسـوف تـرى نفسـك علـى متـن أفخـر اليخـوت التـي لا شـبيه لهـا إلّا فـي أفـلام هوليـود، وربّمـا قـد يشـطح بـك الخيـال، فتـرى أنجيلينـا جولـي تمسـك بيـدك فـي فيلـم "المطلـوب!" لتريـك سـحر فـنّ العمـارة فـي مدينـة البندقيـة الإيطاليّـة، وتشـتبك الأصـوات داخلـك؛ هـل سـتوافق وتدفـع لهـم المبلـغ المطلـوب؟ هـل أنـت يائـس مـن حياتـك إلـى هـذه الدرجـة؟ لا شـيء يقـضّ مضجعـك أكثـر مـن الحنيـن، اعتصـرْ حزنـك، ابتلـعْ مآسـيك كلّهـا،

تماسك قليلاً، وارحلْ من هنا.“

التقيتُ بثلاثة من المهرّبين، وكلّ منهم ترك غمامة سوداء ثقيلة أناخت على صدري. شعرت أنّني أختنق فطلبت من صديقي أن نرحل، فسألني:

- إلى أين؟
- إلى أيّ مكان عدا هنا، لا أستطيع البقاء أكثر!

استغرب صديقي موقفي، لكنّني فعلاً لم أجد بدّاً من القيام بذلك، فقد وعدت نفسي عندما كنت في مطار بيروت أن أفعل ما أريده أنا. ناقشني صديقي مطوّلاً، لكنّني كنت قد حسمت الأمر:

- أرجوك، لا أشعر بالراحة، أشعر أنّني أكاد أختنق!

لم أرَ شيئاً جميلاً في تلك المدينة، كلّ ما وقعت عليه عيناي جعلني أشعر بحزن عميق يمزّقني أكثر من حزني الذي عشته تحت وطأة الحرب. وافقت أن نمضي الليلة، شرط أن نغادر في الصباح الباكر إلى ”مرماريس“[٦]. أيقظته في السابعة من صباح اليوم التالي، بعد أن حزمت أغراضي القليلة، وانطلقنا بالحافلة مدّة ثلاث ساعات ونصف إلى ”مرماريس“. كان صديقي

٦- مرماريس: هي مدينة تركية مهمة تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، في المنطقة الجنوبية الغربية من تركيا، في محافظة موغلا. تتميّز بموقعها الاستراتيجيّ حيث إنّها تقع في ملتقى البحر الأبيض المتوسط وبحر إيجة.

لا يـزال مسـتغرباً مـن تصرّفـي فـي اليـوم السـابق. راح يحدّثنـي فـي الطريـق عـن ملامـح الغضـب التـي بـدت علـيَّ أثنـاء حديثـي مـع المهرّبيـن، وعـن قـراري المفاجـئ الحـازم بالمغـادرة. وافقتـه الـرأي أننـي كنـت مجنونـاً، لكـنّ صـوت ضميـري لـم يخذلنـي قـطّ، وهـو الـذي أمرنـي بحـزم: ارحـل فـوراً!
اعذرنـي يـا صديقـي، أنـا لـم أفعـل شيئاً أكثـر مـن أنّنـي لبّيـت نـداءه.

*****

(3)

مـن قلـب الألـم ومعانـاة الفـراق ينعكـس الحـزن فرحـاً علـى وجنتـيّ عندمـا أتأمّـل ابتسـامة طفـل بـريء. فـي المقعـد خلفـي تمامـاً، جلـس شـاب وزوجتـه مـع طفليهمـا – صبـيّ بعمـر الثالثـة وطفلـة بعمـر السـنة تقريبـاً- لهمـا، مثـل الأطفـال جميعـاً، وجهـان ملائكيّـان وابتسـامتان سـاحرتان. راحـت الطفلـة تلاعبنـي مـن وراء ظهـري فـرددت علـى مداعبتهـا بفـرح، متخيّـلاً أنّـي فـي يـومٍ مـا سـوف أحظـى بفرصـة ملاعبـة ملاكـي الغائـب الحاضـر "نـاي". وعرَضـاً سـمعت والدهـا يتحـدّث بالهاتـف عـن وجهتـه إلـى مرماريـس، ليلتقـي أحـد المهرّبيـن الـذي سـينقله إلـى اليونـان، فسـألته بعـد أن أنهـى مكالمتـه:

- هل أنتم متّجهون إلى أوروبا؟

- أجاب: نعم، فهناك شخص سوف ينقلنا إلى اليونان عبر البحر فور وصولنا إلى مرماريس، نعم، هذه وجهتنا أنا وعائلتي.

- هل ثمّة مكان لي معكم؟

لا أعرف ما الذي دفعني لقول ذلك، لكنّ حدسي هو الذي قرّر عنّي في تلك اللحظات. مع اعتقادي الراسخ أنّ قراراتي غالباً تنبثق من تفكيري العقلانيّ، لكنّ وجودي بين إزمير ومارماريس، جعلني أكتشف حقيقة أخرى عن نفسي. غريبة هي التركيبة الإنسانيّة! فكيف للشخص نفسه أن يتصرّف بطريقتين متناقضتين في أمكنة وظروف متشابهة؟! ذكّرني ذلك برأي جون واطسون، أحد علماء المدرسة السلوكيّة، حول إمكانيّة تعديل السلوك الإنسانيّ وتكوينه من خلال التلاعب بالظروف المحيطة.

- أجابني الرجل بمودّة: دعني أسأله.

فاتصل به فوراً ليسمع الجواب: نعم لدينا مكان لشخص إضافيّ!

وبالفعل، بعد انقضاء الرحلة، ومع اندهاش صديقي

من سلوكي، وصلنا إلى مرماريس، والغمامة السوداء التي كانت تخيّم على قلبي قد انزاحت فجأة. بدتِ المدينة جميلة في نظري، بعكس إزمير التي ظلّ قلبي منقبضاً طوال وجودي فيها. كانت مرماريس تشبه عروس البحر بمنازلها منخفضة العلوّ، وشاطئها الرمليّ الجميل، مدينة ذات مناظر خلابة، إنّها مدينة سياحيّة بكلّ معنى الكلمة. وصلنا إلى الفندق الذي يقيم فيه المهرّب فراح يخبرنا فوراً:

- سوف نغادر على متن قارب سريع، ولن تستغرق الرّحلة أكثر من ساعة، ستصلون بعدها إلى جزيرة يونانيّة تدعى رودس.

ما سمعته ممّن سافروا قبلي هو أنّ الطريق إلى جزيرة "رودس" اليونانيّة لم يكن آمناً جدّاً، فقد كان مراقباً بشدّة، إلّا أنّ المهرّب نفى ذلك وأكّد تعهده بضمان سلامتنا مقابل ما يقارب الـ ١٦٠٠ يورو عن الشخص الواحد، وهذا يُعتبر مبلغاً كبيراً مقارنة بما يتقاضاه غيره من المهرّبين. قلت:

- من جهتي لا مشكلة لديّ، سأدفع هذا المبلغ لكن بعد وصولي إلى الجزيرة اليونانيّة. سوف أترك المبلغ مع صديقي وحال وصولي سيدفعه

لك مباشرة، إذا وصلتُ طبعاً.

عـاد صـوت هاجسـي يهمـس لـي: "لسـت أنـت مـن يقـرّر هنـا! أنـت لسـت سـوى بيـذق علـى رقعـة شـطرنج والآخـر هـو مـن سـينقلك إلـى المربـع الـذي يختـاره، أتنتظـر مـن هـؤلاء صـدق العهـود؟! كيـف لـك أن تثـق بتجّـار البشـر، كيـف لـك أن تثـق بمـن همّـه فقـط أن يقبـض ٥٠٠ يـورو لينقـل طفـلاً لا يتجـاوز عمـره السـنة علـى متـن زورق صغيـر فـي عـرض البحـر؟!"

استشـاط المهـرّب غضبـاً، فهـؤلاء المهرّبـون غالبـاً مـا يأخـذون المـال أوّلاً، ثـم يقـرّرون مـا سـوف يحـلّ بـك بعدهـا، ولكـنّ صاحبنـا وافق أخيـراً حينمـا رأى إصراري وتشـبّثي بقـراري.

طلـب منّـا أن نجتمـع فـي نفـس المـكان السـاعة السـابعة مسـاء مـن نفـس اليـوم، كانـت السـاعة حينهـا تقـارب الواحـدة ظهـراً، مـا يعنـي أنّـه لـدي ست سـاعات لأقـوم بجولـة فـي مرماريـس. اصطحبـت صديقـي فـي جولـة علـى الأقـدام لسـاعات وسـاعات، كنـت مسـتمتعاً جـدّاً بـكلّ مـا أراه، مـن الشـاطئ الرملـيّ، إلـى الـزوارق البحريّـة، إلـى الأكشـاك الصغيـرة المتناثـرة فـي كلّ مـكان، إلـى أشـجار النخيـل الباسـقة، البيـوت، الفنـادق،

الدرّاجات، والبشر وهم يتنقّلون في الشوارع والأزقّة. كان صديقي يعرف شخصاً يملك كشكاً صغيراً على الشاطئ فذهبنا إليه لنشرب القهوة في جلسة لطيفة عند شاطئ البحر، لقد كانت لحظات جميلة حقّاً حاولت أن أُريغ أفكاري خلالها عمّا ينتظرني من مفاجآت لا يمكنني التكهّن بها.

عدنا إلى الفندق في الساعة السابعة، لكنّ المهرّب لم يكن قد وصل بعد، تذكّرت مواعيدنا العربيّة، فالساعة السابعة أصبحت بقدرة قادر الثامنة والنصف، ولم يكن الأمر مفاجئاً لي أبداً. جاء المهرّب الساعة الثامنة والنصف ومعه مجموعة من الأشخاص، سألنا:

- هل أنتم جاهزون؟

- نعم، جاهزون تماماً!

أخبرنا أنّه لا يسمح لنا باصطحاب أيّ متاع أكثر من حقيبة صغيرة لكلّ شخص يحمل فيها حاجيّاته الضروريّة فقط، فاضطررت لترك نصف ما تحتويه حقيبة ظهري في تركيّا، وتركت معي قميصين وبعض الملابس الداخليّة. قال:

- في الساعة التاسعة والنصف، سوف ننطلق، أي بعد ساعة من الآن.

قمت بتبديل ملابسي، ووضعت كافة أوراقي المهمّة داخل كيس من النايلون وأغلقته بإحكام تحسّباً لأيّ طارئ مائيّ! وخبّأت كلّ ما لديّ من نقود في جيب سرّي أعددته سلفاً في ملابسي الداخليّة. بينما تركت المبلغ المتّفق عليه مع صديقي ليدفعه للمهرّب حال وصولي إلى اليونان. انطلقنا في بضع سيارات حديثة إلى منطقة جبليّة قريبة من مرماريس. كان المهرّب قد طلب منّا إغلاق هواتفنا المحمولة، فعلى القارب يُمنع حمل أيّ شيء يصدر ضوءاً. بعد مسير ساعة في السيّارات، توقّفنا عند الساعة العاشرة والنصف ليلاً. قالوا:

- من هنا سنبدأ بالمشي قليلاً!

هذا "القليل" امتدّ قرابة الساعة والنصف من المشي سيراً على الأقدام في منطقة جبليّة وعرة جدّاً، لم نكن نرى أمامنا شيئاً، متنقّلين بين الأشجار، وبعد قليل من بدء هذه المسيرة، بدأ الأطفال يبكون من الإرهاق. كان عددنا أربعة عشر شخصاً، بعضنا عائلات والباقون شباب بمفردهم، بيننا ثلاثة أطفال وثلاث نساء. كان الرجل الذي التقيته في الحافلة المتّجهة إلى مرماريس وعائلته، يحمل طفلته بينما لم تقدر زوجته على حمل الصبيّ ذي الأعوام الثلاثة، والذي راح يجهش بالبكاء من شدّة التعب،

كانت الزوجة ترتدي اللباس الإسلامي المعهود في سوريا؛ الجلباب الطويل، وتحمل حقيبة يد وأخرى فيها حاجيّات الطفلين، وساهم هذا الحمل الثقيل في إعاقة حركتها عبر هذه المسيرة الوعرة، بدأ قائد الرحلة الصراخ بالمرأة، والإشارة بيده لإسكات الطفل على الفور، مهدّداً أنّه سيتركها هي وأطفالها هناك، فنشيج الطفل بصوت عالٍ يشكّل خطراً على الجميع، وقد يتسبّب باكتشاف أمرنا. توقّفنا لحظات وبدأ كلّ واحد منّا يدلي برأيه، هذا يلوم السيّدة في حين اقترح آخرون إعطاء الطفل لعبة أو ما شابه علّه ينقطع عن البكاء. كيف لهذا الطفل ذي السنوات الثلاث أن يدرك أنّ صراخه يشكّل خطراً على الآخرين؟ وكيف لذلك المهرّب أن ينتظر من الطفل فهم ذلك؟ في مثل تلك المواقف لا مجال للتعاطف والإنسانيّة، هكذا بدا الأمر.

جالت الأفكار سريعاً في رأسي وبشكلٍ عفويّ تقدّمت من الأم وأخذته منها، حملته على كتفي ومشيت به. كنت حذراً جدّاً لخوفي من أن تزلّ قدمي من على إحدى هذه الصخور الزلقة فيسقط الطفل، أمسكت به بكلّ قوتي وسرت وعيناي دليل خطاي.

بعد ساعة ونصف، وصلنا إلى منطقة منحدرة انحداراً شديداً نحو البحر، وبصبر حصان درويش

المعدّ[٧] لمنحدرات الجبال سرنا. تعرّض عدد منّا في تلك الرحلة للتعثّر والسقوط مرّة أو مرّتين، وهذا ما كنت أخشاه. لم يكن مسموحاً لنا أن نجلس للراحة، أو أن نضيء لنرى موضع أقدامنا، المطلوب منّا أن نتبع خطا المهرّب فقط، وأن نسير في خطّ مستقيم. مشهد يذكّر براعٍ يسير بخرافه ويحدّد وجهتها ولحظاتِ توقّفها وحركتها! سرنا كما يريد حتى وصلنا إلى الماء، وما إن لامست قدمي الماء، حتى انزاحت مخيّلتي سريعاً راجعة بي إلى مرحلة طفولتي.

روت لي والدتي أنّني عندما كنت في عمر السنة وعلى أحد شواطئ طرابلس في ليبيا، حيث كانت أسرتي تعيش، وبينما هم في نزهة على الشاطئ، صادف أن ضعتُ منهم، فتفرّقوا مجموعاتٍ للبحث عنّي، وحين عثر أحدهم عليّ كنت قد زحفت حتى بلغت الماء. وبخبرتي الآن كاختصاصيّ نفسيّ أيقنت سبب خوفي الشديد من الماء حتى وأنا في هذا العمر!

"تقف مواجهاً للبحر الآن، شخصاً لا يجيد السباحة ويعاني من رهاب الماء. أهي آخر لحظات حياتك؟ مرحباً بك في رحلة الموت! أمن هنا يبدأ الطريق إلى أوروبا؟ تمالك نفسك أيها المغفّل ! انظر إلى الطفل الذي بين يديك واستمدّ من شجاعته القليل! يبدو أنّك ستموت

٧- إشارة لقصيدة محمود درويش "انتظرها"

وأنت ما تزال هنا على الشاطئ، فعرقك يتصبّب كمطر غزير، وتلهث كأنّك خارج لتوّك من سباق الماراثون. انظر لنفسك لقد بدأت أسنانك تصطكّ وريقك يجفّ، بينما أوصالك كلّها ترتعد. لا أحد ينشغل بك هنا أو حتى يكترث لأمرك، لا تبقَ متسمّراً مكانك أيّها الأحمق، ضع قدمك في الماء". يصرخ بي هاجسي اللعين بنبرة تمزّق أحشاء الهدوء في داخلي!

توجّب علينا أن نسير داخل البحر قرابة ثلاثين متراً قبل أن نتمكّن من الصعود إلى القارب. الآن لم يعد لديّ خيار آخر، وقد بدأ الشخص المسؤول يصيح بي لكي أسرع. أغمضت عينيّ ودُستُ في الماء، مشيت ومشيت لاهثاً حتى ابتلّت معظم ملابسي، وشعرت ببرودة الماء مثل سكاكين تمزّق لحمي.

وضعت الطفل بين ذراعيّ، وأنا كلّما خطوت خطوة في الماء ازداد خوفي، فمع كلّ خطوة جديدة في الماء كانت مخيّلتي تصوّر لي أنّي على شفا حفرة عميقة جدّاً سوف أهوي فيها وتبتلعني مثل غول خرافيّ. ركّزت نظري إلى الطفل أستمدّ منه القوّة، كان يضحك وينثر الماء على وجهي بمنتهى مرح طفولته، بينما أنا ارتعد! لا شكّ أنّ تلك الحركات البريئة ساعدتني في التغلّب على رهابي البغيض، والاستمرار في

السير حتى تجاوز عقبة الثلاثين متراً والتي أحسستها تعادل عندي تسلّق جبال الهمالايا.

وصلنا إلى القارب الذي كان المهرّب قد صوّره بأنّه أجمل قوارب تبحر فوق الأمواج على الإطلاق! وجدناه ليس أكثر من "بلم"[٨] صغير، ذي محرّك بسيط، بالكاد يتّسع لنا. لذلك كان علينا أن نتجاوز حدود الدين أو أيّ انتماء آخر يفرّق بيننا، ونلتصق مقتربين من بعضنا بعضاً ومن الله أكثر. جلست في مؤخّرة البلم، بعد أن ارتدى كلّ منّا سترته الواقية من الغرق، والطفل إلى جانبي، ما يزال يلاعبني وكأنّه يقول:

لا تخف أنا هنا!

قاربتِ الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل، والبلم يشقّ مساره في عرض البحر دون أن تستطيع حوافه المنخفضة أن تحمي أجسادنا من لسع المياه الباردة. غفا الطفل بين ذراعيّ، فسألتني أمّه:

- هل تريدني أن آخذه عنك؟

- أجبت: لا، لا مشكلة، دعيه.

٨- البلم هو القارب المطاطي هو قارب خفيف الوزن مصنوع من أنابيب من المطاط مرنة تحتوي على غاز مضغوط لتشكيل جوانبه ومقدمته

هذه المرّة رمقتني هاجسي بسخرية وأنا متسمّر في مكاني لا أقوى على الحركة هامساً:"لماذا لا تخبرها أنّه يمدّك بالقوّة التي تنقصك أيّها الجبان! قل لها إنّك على وشك أن تنهار بكاءً كما يفعل الأطفال! ماذا لو غرق البلم بكم؟ ماذا ستفعل؟ إن كنت غير قادر على حماية نفسك من الغرق، فكيف ستحمي هذا الطفل؟ أعطه لأمّه، ولا تتظاهر بأنّك الإسكندر المقدوني!"

قلت لوالده الجالس بجانبي:

- ليكن في علمك أنّني لا أجيد السباحة، إذا حدث أيّ شيء، عليك أن تنقذ طفلك.

ضحك معتقداً أنّني أمزح،

- أنا لا أمزح، بل أخبرك بالحقيقة، فأنا لا أعرف السباحة، بل وأخاف من الماء جدّاً، فإذا حصل أيّ طارئ، لا سمح الله، لا تعتمد عليّ، وسارع لتنقذ طفلك.

ردّ قائلاً:

- مَن ومَن سأنقذ؟! مع أنّني أجيد السباحة، لكنّ زوجتي وأطفالي لا يجيدونها، فإذا حدث وغرقنا، سيذكرنا هذا البحر البارد مثل برودة غربتنا في وطننا الحزين.

جعلني ردّه أسافر بعيداً مع أفكاري، لأتذكّر قصيدة درويش "اللامبالي" حيث يرى اللامبالاة أنّها إحدى حالات الأمل!

ما الذي يجعل أيّ شخص يقطع بأطفاله الصغار عباب بحر متلاطم بهذه الطريقة الخطرة؟ هل هناك أصعب من أن تخاطر بحياتك وحياة أطفالك؟ نعم، قد يكون من الأصعب هو وجودك في منزلك الذي يفترض أن يوفّر لك السكينة والأمان، لكنّك تحت وطأة الحرب لا تعود تشعر بهما، بل بدلاً منهما يتملّكك الخوف والترقّب طول الوقت لأنّ قذيفة حمقاء ربّما تسقط فوق رؤوسكم في أيّ لحظة!

"حاول أن تتمالك نفسك وفكّر بأشياء إيجابيّة، أنت تقدر.. لن يحدث شيء.. تماسك.. كلّ ما عليك فعله هو ركلُ الماء بقدميك فتطفو.. لن تغرق.. فالمياه المالحة سوف ترفعك للأعلى.. لا تقلق!" كانت دوّامات أفكاري لا تهدأ لحظة واحدة: "استخدم الأساليب السيكولوجيّة التي

كنت تتباهى بتطبيقها على بعض مرضاك، كيف تقبل الآن أن تكون في حاجة إلى من يعالجك نفسيّاً؟"

حاولت جاهداً إسكات ذلك الصوت الأرعن في قرارة روحي علّه يكفّ عن سخريته منّي، فكنت تارة أغمض عينيّ، وتارة أشعر وكأنّ قدميّ تنسلّان بعيداً تاركتين جسدي! البرد يتسلّل إلى عظامي فتصطكّ، وقد تجمّدت رجلاي حتى فقدتُ الشعور بهما. بينما مشهد واحد لا يبرح رأسي، أرى نفسي أجلس قرب ابنتي ناي وهي تحضن بكلتا يديها لعبة صغيرة وترفعها نحوي مبتسمة، وكنت كلّما مددت يديّ نحوها، أجدهما تتشبّثان بالطفل الغافي في حضني، وبحركة سريعة تنفلت إحداهما لتتشبّث بحافّة البلم، الحافّة التي بالكاد ترتفع قليلاً عن مستوى الماء. ربّما كان التشبّث بحافة البلم الباردة يمنح الروح شيئاً من الطمأنينة.

لا أعرف الآن إذا ما كانت حركاتي تلك يربطها بإرادتي أيّ رابط!

لا أتذكّر كم من الوقت مرّ لأنّني لم أكن أسمع سوى لهاث خوفي يتملّك حواسي، وكنت كلّما شعرت بالهلع يدهمني أكثر، حضنت الطفل بقوّة فأحسّ دفء جسده الصغير يعيد إليّ بعض روعي، بينما أصبح الصوت

في داخلي حاداً يشبه الصراخ: "أنت قادر.. أنت قادر!". سأظلّ أذكر طويلاً كيف نفحني الطفل ذلك القدر من الإرادة والصبر، في حين أنّ الجدير بي أنّني أنا مَن يحميه، أدركت في قارب الموت ذاك أنّ هذا الطفل هو نوع من قَدر إلهيّ أرسلته العناية لي لكي يحميني ويمدّني بالقوة لأنجو!

ها هي أضواء جزيرة رودس تسطع أمامنا، فهتف أحدهم بالتركيّة:

- هذه هي اليونان!

ترجمها آخر: أصبحنا على مشارف اليونان.

انبرى المسؤول عن البلم يقول بصوت كالهمس:

- لا أستطيع الاقتراب كثيراً من الشاطئ لذا سأنزلكم في الماء قريباً من الشطّ، بعيداً عن منطقة خفر السواحل.

وبالفعل، أوقف البلم على بعد ثلاثين متراً من اليابسة، وبدأ بإسقاطنا في الماء الواحد تلو الآخر. كان الطفل قد استيقظ بالطبع، فأسلمته لوالده وقفزت في الماء مع دفعة رشيقة من صاحب البلم، شعرت

لحظتها أنّي سأغرق هنا، وأنّ عمق الماء أطول من قامتي! تجمّد الدم في شراييني، وتخشّبت عضلاتي، لكنّي عدت فأيقنت سريعاً أنّ هذا الشعور هو محصّلة خوفي الرهيب، فما إن لامستْ قدماي الأرض حتى تأكّدت أنّ الماء لا يصل إلى أكثر من منتصف صدري فقط. غريب هو هذا الشعور الذي يدعى "الخوف"، وغريب ما يمكن لأدمغتنا فعله عندما يحتلّنا! فكم هو قادر أن يحوّل الخيال واقعاً والواقع خيالاً!

*****

الطريق إلى ألمانيا

أهي ولادة جديدة

أم أنّها بداية الضياع؟

لا البحر يمكنه أن يغسل انكسارك

ولا اليابسة تقيك برد الشتاء

لا شجر الزيتون يعرفك هنا.. ولا حتى التراب

والأرض لا تميّز أثر قدميك

روحك تصدح بالأنين:

غريب أنتَ هنا

كنقشٍ مسماريّ في العصر الحديث.

لا عودة لك إلى رحم أرضك الآن

تقمّصِ الأشياء من حولك

ولتكنْ ابناً جديداً للكون!

(1)

تلذذت بالسير على قدميّ في الماء حتى وصلت إلى اليابسة حيث أشجار الزيتون.

”طالما اعتبر الزيتون رمزاً للسلام، وربّما أنت الآن في طريقك إلى السلام. تفتقد سلامك الداخليّ، فالسراب يحملك ويكبّل معصميك.“ همهم هاجسي من جديد.

هناك كان علينا تبديل ملابسنا المبتلّة كيلا نتجمّد من البرد. ولأنّ رمش البحر ماء وكفّ البحر ماء وشفتاه ماء، كنّا إذا غازل الخوف في أعيننا نبتلّ، وإذا تفقّد أشياءنا نبتلّ، وحتى إذا ضحك لنا لا بدّ أن نبتلّ. ليس بغريب ألّا أحظى بقميصٍ جاف، إلّا أنّ محض حركة تغيير الملابس منحتني جرعةً أخرى من القوّة أو سبباً كافياً كي أتحسّس الدفء.

مقاوماً خوفي، متأمّلاً أشجار الزيتون من حولي، محاولاً لملمة أشلاء ذاكرتي، ومتسائلاً أين أنا؟

كانت المنطقة التي وصلنا إليها، نائية نوعاً ما، لم أرَ في البداية سوى أشجار الزيتون. لكنّ سائق البلم كان

قد حدّد لنا مسبقاً اتجاه المسير على اليابسة، والذي من المفترض أن يوصلنا إلى منطقة مأهولة. تفرّقت المجموعة، وكان كلّ شخص يفكّر غالباً في نفسه فقط. لكنّ العائلات التي لديها أطفال صغار بقيت بجانب بعضها بعضاً. وكانت تلك هي المجموعة التي اخترت مرافقتها. كيف لا وأنا أدين بالفضل لذاك الصديق الصغير الذي أمدّني بالقوة اللازمة لعبور البحر!

كانت مجموعتي مؤلّفة من تسعة أشخاص، منهم ثلاثة أطفال، ولم يكن أحد من أفراد المجموعة يجيد التحدّث بالإنجليزية. بعد أن تابعنا المسير، وصلنا إلى طريق فرعيّ، قادنا إلى طريق رئيسيّ، هناك رأيت رجلاً يقترب من بعيد يقود كلبه ويتحدّث عبر الهاتف. أشرت له ملوّحاً بيدي، فأنهى مكالمته ومشى باتّجاهي.

قلت له بالإنجليزيّة:

- عذراً يا سيّدي، لقد وصلنا للتوّ ولا نعرف أين نحن!

- قال: أنتم في جزيرة رودس، في جزء متطرّف عن مركزها.

- قلت: نودّ الوصول إلى مركز الشرطة فهل يمكنك أن تدلّنا؟

- أجاب: إنّه بعيد جداً، ما يقارب أربع كيلومترات!

- سألته: ما العمل؟ كما ترى معنا أطفال يبكون ويحتاجون للدفء.

رغم أنّ الطقس لم يكن بارداً حقّاً، فنحن في فصل الصيف بطبيعة الحال، إلّا أنّ شفتيّ كانتا ترتعشان وأنا أحدّثه، رأف الرجل بحالنا فاتّصل ببعض الأشخاص، وطلب منّا الانتظار قليلاً. بعد ربع ساعة تقريباً جاءت فتاتان تحملان العصائر وبعض السندويتشات، وبدأتا بالحديث معي وسؤالي عن الرحلة.

ولأنّنا لسنا غرباء عن إنسانيّتنا، نحن الذين ولدنا في بلاد تُعاقب الإنسان فقط لأنّه كذلك، شكرت الفتاتين وطلبت ملاذاً دافئاً للأطفال الذين كانوا يرتجفون من البرد.

بدا ذلك لافتاً لإحدى الفتاتين، التي ربّما غاب عن ذهنها أنّ الطِيبة بذرةٌ تنمو في النفوس وتسافر معها أينما حلّت. فقامت باصطحاب الأطفال وذويهم إلى منزل مجاور. في حين اتصلت الفتاة الأخرى بعمدة البلدة الذي جاء بعد ما يقارب الساعة والنصف مع سيّارات الشرطة.

بدأ رجال الشرطة بالحديث معنا وطرح سيل من

الأسئلة علينا كانت أشبه بالتحقيقات، ثم طلبوا منا أن نصعد إلى سيّاراتهم لمرافقتهم إلى المركز. كان بناء مركز الشرطة قديماً يذكّر بطراز البيوت الشاميّة العتيقة. وهناك طلبوا منّا المكوث في غرفة بائسة آهلة بالحشرات، أثاثها ليس أكثر بضع مرتبات متهالكة، شرعوا بعدها بطرح الأسئلة على كلّ شخص على حدة مرّة أخرى، وتوجّب عليَّ أن أترجم لهم كلّ ما قيل. أحسست وكأنّي مسؤول عن تلك المجموعة التي لا أعرف أيّ شخص منها معرفة حقيقيّة، فترجمتي لتصريحاتهم يمكن أن تحدّد مصير كلّ منهم. فتجيش في خاطري تلك الوصايا النبيلة التي تقاطرت من قصائد محمود درويش وبالأخصّ تلك التي تتحدّث عن انصهار الذات في الآخر.

وأَنتَ تُعِدُّ فطوركَ فكِّرْ بغيركَ
[لا تَنْسَ قُوتَ الحمامْ]
وأَنتَ تخوضُ حروبكَ، فكِّر بغيركَ
[لا تَنْسَ مَنْ يطلبون السلامْ]
وأَنتَ تُسدِّدُ فاتورةَ الماء، فكِّر بغيركَ
[مَنْ يرضَعُون الغمامْ]
وأَنتَ تعودُ إلى البيت، بيتِكَ، فكِّرْ بغيركَ
[لا تنس شعبَ الخيامْ]
وأَنت تنام وتُحصي الكواكبَ، فكِّرْ بغيركَ
[ثَمَّةَ مَنْ لم يجد حيّزاً للمنام]

وأَنتَ تحرِّرُ نفسك بالاستعارات، فكِّرْ بغيركَ
[مَنْ فَقَدُوا حَقَّهم في الكلامْ]
وأَنتَ تفكِّر بالآخرين البعيدين، فكِّرْ بنفسك
[قُلْ: ليتني شمعةٌ في الظلامْ]

كنت أرتجف من البرد، فما زالت ملابسي المبتلّة على جسدي المتعب. فكّرت في نفسي لوهلة، وطلبت منهم أن يمهلوني لأبدّل ملابسي المبتلّة، فسمحوا لي بذلك. بل إنّهم جلبوا لنا الطعام والماء والبطانيّات.

بعد عدّة تحقيقات عن شكل القارب الذي أتينا به، ومن أين أتينا، ولماذا أتينا، وأين نزلنا، واسم الشخص المهرّب، الذي كنّا جميعاً نجهله، وما إلى ذلك، أجبتهم عن جميع أسئلتهم لكن للأمانة أعترف بأنّ إجاباتي لم تكن تحمل في طيّاتها تفاصيل يمكن أن تفيدهم في شيء.

فقد كان هاجسي الداخليّ في أوج إنسانيّته وقتها، فراح يعظني كلّما أوشكت أن أدلي للشرطة بمعلومة تفيدهم هامساً:

"فكّر بغيرك، بأولئك الذين ليس لديهم مأوى. فكّر بالمهاجرين الذين سوف يأتون بعدك، قد يعودون أدراجهم إذا وصفت المكان الذي نزلت فيه وصفاً دقيقاً. أنت نجوت لكنّ الكثيرين سوف

يظلّون يحاولون أن يصلوا يوماً ما، كثيرون ممن يحلمون أن تدوس أقدامهم هذه الأرض التي تقف عليها الآن. تذّكر أصدقاءك الذين ابتلعهم البحر ليكونوا لقمة سائغة لأسماكه. أنت لست سوى واحد من الملايين المنتظرين على الحدود، واحد من الهاربين من قهر أوطانهم، لست سوى واحد من المحاسَبين على ذنوب ارتكبها سواهم. فكّر بغيرك! فكما ساعد الإلهُ حورسَ[9] وأبقاه على قيد الحياة، ساعدك الله اليوم لتنجو من الموت المحتّم".

بقينا في مركز الشرطة يوماً كاملاً، كان علينا أن ننام في ساحة هذا المركز الأثريّ! لا مكان للاغتسال وليس ثمّة أيّ فرش أو أغطية. كما يليق بمشرّدين افترشنا تلك الأرض الإسمنتيّة ليبتكر كلّ منّا طرقاً تخفّف من فداحة هذه الليلة، فهذا يجعل من حذائه مخدّة، وتلك الأمّ تعدّ من الملابس الإضافيّة سريراً لأطفالها.

يمكنني القول: إنّ أهل تلك الجزيرة، بمن فيهم رجال الشرطة كانوا في منتهى اللطف والتعاطف! وما عرفته لاحقاً، أنّه لم يمرّ كثير من المهاجرين عبر هذه الجزيرة، ربّما لأنّ الطريق إلى رودس يعتبر

٩- حورس هو الابن الأسطوريّ لإيزيس، حبلت به من أشلاء زوجها المقتول: الإله أوزوريس. وتعتبر إحدى القصص المشهورة ضمن الأساطير الفرعونيّة.

صعباً إلى حدّ ما وربّما يفسر ذلك سوء المكان الذي وُضعنا فيه. الظاهر لم يكن أهل رودس قد اعتادوا حتى ذلك الوقت رؤية أفواج المهاجرين القادمين من البحر المتوسط، وربّما الأصحّ تسميته "بحر الموت"

كانت بشارة مؤلمة زفّوها إلينا صباح اليوم التالي؛ أنّنا سوف نبقى في مركز الشرطة حتى بداية الأسبوع أي ثلاثة أيام أخرى بغيضة، فقلت للمسؤول فيهم:

- كما ترى، ليس هناك مكان ملائم هنا للمبيت!

وأضفت تفصيلات عن البيت المهجور المكتظّ بالحشرات الذي قضينا ليلتنا فيه. فاقتنعوا ونقلونا إلى مركز آخر للشرطة أكثر حداثة من سابقه، فيه غرفتان مجهّزتان بشكل جيّد تمتدّ أمامهما ساحة نظيفة. بالطبع، لم يكن مسموحاً لنا مغادرة المكان، الخروج من مركز الشرطة، فنحن بحكم الموقوفين، سمحوا لأحدنا فقط بالخروج في أوقات محدّدة لإحضار الطعام والحاجيات الأخرى لأيّ شخص من المجموعة، ولأنّي الوحيد بينهم الذي يمكنه التحدّث بالإنجليزيّة كان الاختيار دوماً يقع عليّ.

مع الوقت ازداد أفراد المجموعة تقارباً من بعضهم بعضاً، فراح كلّ شخص يتحدّث عن نفسه قليلاً وعمّا دفعه إلى الهرب واللجوء إلى أوروبا، وإلى

أيّ بلـد يعتزمـون الوصـول. بالتأكيـد كان معظمهـم مـن السـوريين الذيـن هرسـتهم الحـرب واكتـووا بلهيبهـا. ومـع هـذا الهـمّ المشـترك بيننـا، فـلا عجـب أن يحتـلّ الحديـث عـن الحـرب المسـاحة الشاسـعة مـن جلسـات بوحنـا، فاندلقـت جـرار الذكريـات المؤلمـة، ونزفـت الأرواح دمـاً ودموعـاً حينمـا عبـرت مفاصـل الحديـث ذكريـاتٍ عـن فقْـد فلـذات الأكبـاد والأحبّـة الذيـن شـطبتهم الحـرب مـن سـجلّات الوجـود.

كنـت أكتفـي بالإصغـاء إلـى قصصهـم ومواسـاتهم أحيانـاً ببعـض الكلمـات، دون أن أفتـح كيـس حكاياتـي وذكرياتـي التـي قـد لا تنتهـي! باختصـار، بدأنـا نحـسّ أنّ انتماءاتنـا التـي جعلتنـا نُشـهر السـلاح فـي وجـوه بعضنـا ليسـت سـوى حالـة دخيلـة هجينـة أتقـن الماكـرون صناعتهـا، وهـا نحـن بعـد سـاعات قليلـة مـن وجودنـا معـاً عـادت توحّدنـا ألفـة بنكهـة الوطـن، حتـى حينمـا تصخـب بعـض الأرواح المسـتفزّة بنكبـات الحـرب القذرة، يمكن أن يبتسـم الآخـرون الذيـن طالتهـم التهـم الملقـاة جزافـاً، فيلتمسـون لهـا العـذر، مثلمـا حـدث أنّ سـيّدة مسـيحيّة أصـدرت حكمـاً مبرمـاً علـى المسـلمين جميعـاً أنّـه لولاهـم مـا كان لهـذه الحـرب اللعينـة أن تهـبّ نارهـا، ونسـيتْ هـذه السـيّدة أنّ هـؤلاء الذيـن عاشـت بينهـم دهـراً، وليـس سـوى المحبّـة والتراحـم تجمـع النفـوس والقلـوب، هـم أيضـاً مسـلمون!

"أنت اختصاصيّ في شؤون النفس، أصغِ جيّداً ويكفيك أن تقدّم الرأي والمشورة فقط. لن يقتنع أحد أنّك تحتاج إلى الدعم مثلهم، فالمجتمع العربيّ يعرف جيّداً الفروق الاجتماعيّة ويراعيها، فلتكن ضريبة تسدّدها الآن راضياً. لا أحد يعلم كم أنت مكسور، وكم أنت بحاجة إلى صديق يصغي إليك ويشدّ أزر روحك المتعبة، يحمل عنك بعضاً من همومك، لكنّك الآن وحدك! فقط أنا من سيرافقك دائماً. كتوءم Navajo الأبطال في ملحمة كامبل، علينا أن نجد حلّاً لصراعاتنا الداخليّة، لكي نكتشف مواهبنا الفريدة ونجد التوازن الصحيح في عملنا المشترك لتحقيق أهدافنا المشتركة. بينما أنت تحارب العقبات الماديّة التي قد تعترض سبيلنا، أسرج أنا خيل أفكارك، ولن أنسى قوتّك من الأمل وقوتَ خيلك من الصبر". بعد هذا القول اطمأننت أنّ هاجسي سوف يظلّ رفيق دربي أينما يمّمت وجهي.

بعد انقضاء الأيام الثلاثة، أعطونا أوراقاً تُجيز لنا البقاء في اليونان بشكلٍ قانونيّ لمدة ستة أشهر ومن بعدها على كلّ شخص أن يغادر فوراً. ومثلما درج عليه المهاجرون غير الشرعيين، كان لا بدّ من التوجّه نحو العاصمة اليونانية أثينا، للتواصل مع

زمرة جديدة من المهرّبين لرسم الخطط مبكّراً من أجل مغادرة اليونان والتوجّه إلى إحدى هذه الدول الأوروبيّة: ألمانيا، السويد، هولندا، النروج. كان أمامنا خياران للوصول إلى أثينا، إمّا بالطائرة، أو عن طريق البحر، ومن البديهيّ أن نختار الطريقة الأولى، فمجرّد تخيّل المياه تحيط بنا من جديد كان كفيلاً أن يصيبنا بالدّوار!

بدءاً من أثينا، سوف يمضي كلٌّ إلى مصيره. كان صديقي في تركيا قد زوّدني ببضعة عناوين لفنادق موجودة في العاصمة اليونانيّة، في شارع يدعى "أخرانون"، المنطقة المظلمة من عاصمة جميلة جدّاً، حيث كانت هذه المنطقة أشبه بالملحقات العشوائيّة التي تشكّل ذيولاً للمدن الكبرى، وهي منطقة تعجّ بالغجر واللاجئين والمهرّبين والعصابات وفئات عابرة أخرى من كلّ الجنسيّات، ورغم ذلك كلّه فقد حظيت بفندق مريح لشخص مثلي.

لم أتمكّن خلال وجودي في جزيرة رودس من الاستحمام، بسبب ظروف الإقامة التي عشناها هناك، ولانشغالي بتأمين حاجيّات المجموعة والترجمة لرجال الشرطة وإجراء عديد من مقابلات التحقيق، فكان وقتي مكتظّاً بما يلهيني عن الاهتمام بنفسي فيما لو كان ذلك متاحاً. فاكتفيت بنوع من الاغتسال يشبه إلى حدّ كبير ما تفعله القطط! وبما أنّي شديد الحساسية

لرائحة العرق، كان عليّ أن أحاذر الاقتراب من أيّ شخص، خوفاً من أن يلتقط أنفه رائحتي النتنة، أو ربّما اعتقدت أنّها قد أصبحت كذلك.

*****

(2)

"ها أنت تجلس في المقهى، تراقب عقارب الساعة، وتلاحق الأمل الممتدّ بطيوفه بعيداً، يتصاعد لولبيّاً مع دخان سيجارتك، ثم يتلاشى في الغياب شيئاً فشيئاً، تتفرّس في وجوه روّاد المقهى، مقلّباً صفحات مجلّة كُتبت بلغة لا تفهمها، تحاول ترتيب أفكارك لعلّك تجد ما تريد. في ذاك المقهى، تبدو اللامنتمي الوحيد، الهارب من وطن يمتدّ في نسغ روحك، والباحث عن وطن جديد لا تعلم عنه سوى لوحة غائمة متداخلة الخطوط والألوان. تعود الأفكار لتتلاحق في خاطرك، لتصل إلى المفترق المتوّج بالسؤال الحارق: "ماذا أريد؟" تراقب نظرات الناس من حولك والفرحة الغامرة لطفل صغير يجلس قريباً منك وهو يلاعب دميته، ربّما هو يحلم الآن أن يصبح بطلاً أسطوريّاً في أيامه القادمة. تراقب ذلك الشخص البعيد الذي

يجلس في زاوية المقهى وهو يتحدّث بالهاتف، ربّما هو يكلّم أحد أفراد أسرته؛ يطمئنهم أنّه لن يغيب عن المنزل طويلاً لأنّه يشتاق إليهم.

تلملم أفكارك وتحاول الردّ على رسائل أهلك جميعاً لتخبرهم أنّك قد وصلت بأمان وسلامة، وأنّك الآن في أثينا.

أثينا، تلك المدينة التي لها حضور كبير في ذاكرتك منذ زمن بعيد، هي حاضنة الحضارة التي طالما قرأت عنها منذ طفولتك، كيف لا وأنت تنتمي إلى طائفة تؤمن وتمجّد الأخلاق الإغريقيّة، وترى في أرسطو وأفلاطون وفيثاغورث أساطين في الحكمة والأخلاق والقداسة! هذه اللحظات تتذكّر ذلك كلّه وأنت تبحث عن خيط يوصلك إلى محطّتك القادمة، وتعلم أنّ هذه المهمّة تقتضي منك أن تبحث عن شخص لديه ما يكفي من النفاق ليقنعك بأنّ كلّ شيء سوف يكون على ما يرام. تتخيّل للحظة أنّ تلك المجلّة على الطاولة أمامك، تنبئك حروفها الغامضة عمّا سوف يحدث معك مستقبلاً، لكنّك للأسف لست قادراً أن تفكّ رموز وطلاسم ما هو مكتوب! أنت هنا الآن، وسوف يظلّ مطلوباً منك أن تلملم جراحك، صحيح أنّك لم تعش تجربة مؤلمة في عبور البحر كما

عاشـها آخـرون عبـروا قبلـك، حيـث أصبـح البحـر بشـكل أو بآخـر ملحمـة وأحيانـاً وطنـاً للعديـد مـن السـوريين، فكان عبورهم مـن البحـر إلـى البحـر، هنــاك هـوت أجســادهم قبـل الوصـول إلـى ضفّـة الأمـان، ربّمـا أيقنـوا بعد اكتمـال الخيبات أنّ البحر الغـادر أكثـر أمانـاً مـن أيّ مكان آخـر خبـروه فـي هـذا الوجـود، فآثـروا أن يودعـوا أرواحهـم أمانـة لديــه، وأن ترسـو أجســادهم المتعبـة فـي قاعـه الغامـض بانتظـار أن يصبحـوا وليمـة للمخلوقـات البحريـة الجائعـة!"

لـم أعــانِ كثيـراً فـي رحلتـي منـذ لحظـة لقائـي بتلـك العائلـة فـي الحافلـة المتّجهـة إلـى مرماريـس حتـى الآن، نعم لقد كان الحـظّ حليفـي، وبخاصّـة حيـن أرسـل الله لـي ذلـك الطفل الجميل الـذي شدّ مـن عزيمتـي. أمّـا مـا هـو القــادم الآن؟ فسـوف أنتظـر الجـواب مـن عامـل الفنـدق إذا مـا كان ثمّـة غرفـة شـاغرة لديهـم أم لا.

"تنظـر إلـى يديـك وتحاورهمـا، وتـكاد تنفـر مـن رائحـة جسدك الـذي لـم يتـح لـه التلـذّذ باستقبال المــاء منــذ أيـام، تفكّـر فـي سـوريا، معشـوقتك الأولـى، وتحلـم بذلـك الطيـر السـحريّ الـذي يحملك بعيداً فـي الغيـاب لتتكـئ علـى كتفهـا، هـا أنـت الآن بعيـد عنهـا، تفصلـك البحـار عـن وطنـك الحبيـب!

هل كان "وطنك" حقاً؟ تفصلك البحار الشاسعة عن ضحكة طفلتك، ويفصلك الجنون عن خطواتك القادمة. تقلّب في هاتفك باحثاً عن أرقام هواتف أشخاص لا تثق بهم، أرقام هواتف لأشخاص ربّما ينقلونك بطرقهم الملتوية إلى مدينة أخرى. لكن هل يستحقّون ثقتك حقاً؟"

بينما كان الصوت يدوّي في رأسي عن احتمالات مستقبلي، تقدّم عامل الفندق ليزفّ لي البشارة المنتظرة: "تفضّل، غرفتك من هنا."

يعود الصوت بينما أنا أنظر إلى مفتاح الغرفة:

"هذا مفتاح بيتك، تفضّل يا سيّدي! لقد أتعبك الرحيل، فلتنعم بقسط من الراحة الآن!"

تساقطت قطرات الماء الساخنة على وجهي، لتمنحني نشوة رضيعٍ جائع يلتقم ثدي أمّه. تغلغلت تلك القطرات في ثنايا جسدي المنهك لتسطّر روايات عشقٍ جديدة، ماسحة ندبات غائرة للحرب في قلبي المرتبك. وتسابقت لترسم نهراً يتدفّق ممتدّاً نحو الغياب، تاركةً للمناديل وحدها عناء لملمة بقاياها، علّها تسمح للحلم أن يجد طريقه إلى ذلك الجسد الممدّد على سرير فندقٍ في أثينا البعيدة.

كانت فترة وجودي في أثينا أشبه بمرحلة انتقاليّة من اللاوعي إلى الوعي، مرحلة تفكير عميق ووقوف مع الذات المتأمّلة، مرحلة لمناقشة وضعي الراهن مع الصوت القادم من أعماقي، علّني أضع خطّة لما أنا فيه ولما أريده لاحقاً. في اليوم الأوّل من الأسبوع الذي قضيته في أثينا، قرّرت منذ أن صحوت من نومي أن أطرح بعض الأسئلة على ذلك الصوت المتلجلج في خلدي، وأن أفرغ ما في ذهني على أوراق أعلّقها على جدران تلك الغرفة، فمضيت مباشرة لشراء بعض الأوراق والأقلام بألوان مختلفة، وعدت إلى غرفتي. وعلى الفور ألصقت تلك الأوراق على الحائط.

ها هي أوراق مبعثرة تنبئ بمستقبلك المجهول. عاد الصوت يذرو أسئلته في جمجمتي:

"أتعرف إلى أين أنت ذاهب؟ ما الهدف الذي ترسمه ساعياً إليه؟ هل لديك أدنى فكرة كيف ستصل إلى هناك؟"

إنّها نشرة الأسئلة التي ما يزال قلبي وعقلي يلهجان بها، فمنذ أن خرجت من سوريا كنت قد رسمت حلماً أنني سأذهب إلى ألمانيا، حتى إنّني قد درست في سوريا بعض مستويات اللغة الألمانيّة، وبهذا تكون

إجابـة السـؤال الأوّل مـن خارطتـي الذهنيّـة محسـومة، فدوّنتهـا علـى ورقـة خضـراء.

أمّـا بالنسـبة للسـؤال الثانـي فلـم أكـن أملـك حقـاً إجابـة واضحـة لـه، فدوّنـت علـى ورقـة زرقـاء: "أن أكـون أنـا، أن اتمتّـع بحريّـة الاختيـار" وانتقلـت مباشـرة إلـى السـؤال الثالـث، "كيـف؟" فوجـدت نفسـي أدوّن عـدداً مـن الإجابـات والاحتمـالات، علـى أوراق كثيـرة صفـراء وحمـراء وبنفسـجيّة، علّقـت كلّاً منهـا أسـفل السـؤال ذاتـه.

وأنـت فـي أثينـا، عاصمـة الحضـارة الإغريقيّـة المعجـزة، قـد تتسـاءل إذا كان بإمكانـك أن تسـير علـى هـدي واحـدة مـن النظريّـات الأخلاقيّـة التـي سـادت هنـا يومـاً، هنـا فـي قلـب أثينـا، وأنـت مـا أكثـر مـا كنـت عاشـقاً لتلـك الأخـلاق الإغريقيّـة وتماهيهـا مـع صفـات الإنسـان المُثلـى، كأنْ تكـون صادقـاً، مخلصـاً، نبيـلاً وبالمجمـل أن تكـون إنسـاناً! لكـن الآن عليـك أن تـدرك أنّـك فـي حالـة لسـت فيهـا سـوى رقـم فـي دفتـر ذاك المهـرّب. رقـم بـارد أصـمّ لا يسـاوي سـوى رزمـة مـن الأوراق النقديّـة يدعكهـا فـي جيبـه علـى عجـل! فـلا بـدّ إذاً مـن إدخـال بعـض التعديـلات علـى أفـكارك القزحيّـة.

كان صديقـي الصـوت القـادم مـن ظلمـة أعماقـي جاهـزاً، فـراح يُملـي علـيّ:

”لتعلمْ أنّ عليك الآن الانتقال من الأخلاق الإغريقيّة إلى نظريّة أخلاقيّة أخرى! الانتقال من صفات الشخصيّة المثاليّة النقيّة إلى موقع التفكير بالأشياء، وربّما عليكّ أن تبدأ بتبنّي مبدأ الغاية تبرر الوسيلة“

ما هي غايتي؟ الوصول إلى ألمانيا. الوسيلة؟ أن أقنع نفسي أن ما أسمعه من المهرّبين ينبني على الصدق والوضوح وربّما بعض التعاطف، لكن لكي أدرك ذلك عليّ أن أسجّل ما أقوله لكلّ شخص وما يقوله كلّ شخص لي، وأن أتبع المقولة: (في روما، تصرّفْ كما الرومان)، وبعد ذلك عليّ أن أقوم بتحليل تلك المعلومات، لكشف المختلف والمتشابه بين ما يفعله الرومان في روما، وما أفعله أنا الغريب فيها، سواء كنت في أثينا، أو أوروبا.

سجّلت تلك المعلومات على الأوراق وبدأت ممارسة روتيني اليوميّ، فبعد قهوتي الصباحيّة يبدأ طقس الاستمتاع بذاتي الحقيقيّة منتشية بصوت فيروز، استعداداً لمهمّتي المرتّبة كما يلي: سوف ألتقي بعض المهرّبين، وأعرف ما عندهم، ثم أنطلق بعد ذلك إلى ساحة ”مونتيسراكي“، التي غالباً ما يقصدها السيّاح لأدوّن بعض الملاحظات عن طرق تصرّفهم، كيف يرتدون، طريقتهم في استخدام لغة الجسد، طرقهم

في التحدّث وما يتعلّق بحضورهم كسيّاح. ومن ثمّ أتناول غدائي وأعود بعدها لألتقي بعض المهرّبين وفق جدول أعددته مسبقاً. وفي المساء، سوف أعود لأسامر عامل الاستقبال في الفندق، الذي ربطتني به صداقة دامت أسبوعاً، طيلة فترة بقائي في أثينا، حيث كنّا نجلس لنناقش موضوعات لا يربطها رابط، فقد أفادتني تلك اللحظات في تفريغ بعض أعباء نفسي، والتمتّع بصحبة شخص في غاية اللطف.

بعد مضي عدّة أيام، أوشكت جدران غرفتي أن تمتلئ بالأوراق والملصقات الملوّنة، وكان لا بدّ من القيام بعمليّة فرز واختيار بناء على نقاط القوّة والضعف. كنت قد دوّنت كثيراً جدّاً من التفصيلات، كيف يتصرّف الأوروبيّون، ما شكل الحذاء الذي ينتعلونه عندما يرتدون قميصاً دون أكمام وسروالاً قصيراً، هل يرتدون جراباً قصيراً أو طويلاً، مع ملابس داخليّة تحت القميص أو من دونها! رصدت جيّداً تلك التفاصيل الدقيقة، ولاحظت بتمعّن كيف يتصرّفون عندما أتحدّث معهم، حركات أيديهم، طريقتهم في النظر إلى الأشياء مع اختلاف المواقف، كلّ هذه التفصيلات كانت مدوّنة أمامي، لذلك أصبح سهلاً عليّ أن أعرف ما هي التعديلات التي سأقوم بها على مظهري الخارجيّ، من جهة أخرى كانت أحاديثي مع كلّ واحد من المهرّبين مدوّنة على ورقة خاصّة

بـه تتضمّـن سـلبيّاته وإيجابيّاتـه وملاحظـات حـول طرقـه المعتمـدة.

دوّنت:

الوجهة: ألمانيا

الطريقة: السفر جوّاً

التعديـلات اللازمـة: تغييـرات علـى الشكل الخارجـيّ فـي اللبـاس والسلوك. مثـلاً حلاقـة الذقـن بشـكلٍ يومـيّ، تـرك نمـط اللبـاس الرسـميّ الـذي كنـت قـد اعتـدت عليـه فـي سـوريا، وارتـداء ثيـاب تناسـب قضـاء إجـازة صيفيّـة. إنّهـا تعديـلات تبـدو مضحكـة، ولكنّهـا لا بـدّ أنّهـا سـوف تكـون نافعـة جـدّاً.

كان معظـم المهرّبيـن الذيـن التقيتهـم فـي عجلـة مـن أمرهـم، فوقتهـم محسـوب بالدقائـق، وليـس لديهـم متّسـع منـه يضيّعونـه فـي أحاديـث لا تكسـبهم مـالاً! وهـم غالبـاً يتعاملـون مـع زبائنهـم مـن المهاجريـن وكأنّهـم ليسـوا أكثـر مـن فئـران تجـارب فـي مختبـر عالِـمٍ غيـر متمرّس. كنـت فـي قمـة هدوئـي مـع المهرّبيـن، حاورتهـم كمـا النـدّ للنـدّ، لأنّنـي لا أريـد أن أكـون محـض فـأر أبيـض مسـكين، لـذا ذيّلـت ورقـة "مـن أكـون" بالهامـش التالـي:

"أنـا، وليـس سـواي، مـن يقـرّر وقـت وتاريـخ الرحلـة المناسـبة" إنّهـا محاولـة أخـرى للتغلّـب علـى فرضيّـة أنّ

كلّ مهاجر مضطرّ أن يمرّ بتجربة يكون فيها سلعة في يد تجّار البشر!

في اليوم الخامس، صرت أعتقد أنّه قد أصبح لديّ المعلومات الكافية لأقرّر كيف سأذهب. لم يكن ينقصني سوى أمر واحد فقط، وهو أن أستمتع بتلك اللحظة التي أعيشها. فقرّرت مكافأة نفسي بيومين اقضيهما متجوّلاً في الأسواق لكي أتدرّب على التصرّف كما يتصرّف السائحون. كنت أدخل إلى المحلّات مستفسراً عن بعض الأمور، وإذا سألني أحدهم من أين أنا وماذا أفعل في أثينا، كنت أدّعي أنني سائح من إحدى الدول "غير العربية بالطبع!" كإسبانيا مثلاً. تقصدّت ارتكاب الأخطاء خلال جولاتي، كأنْ اصطدم بشيء معروض، أو أن أوقع غرضاً من يدي في متجرٍ ما، كلّ ذلك بغية التدرّب على طريقة الاعتذار السريع والتعبيرات التي ترتسم على الوجوه في لحظات كهذه، ولخوض تجربة طريقة الاعتذار بأسلوب الأوربيين الذي رأيته ودوّنته في الأيام التي أمضيتها في مراقبة السيّاح، فقد كنت على يقين أنّ مواقف المفاجأة وفقدان الثقة والعفويّة هي التي تجعل المرء يرتبك ويفقد السيطرة. فربّما أتفاجأ بموقف في المطار على مرأى من الشرطة، فتنكشف حيلتي وأخسر فرصتي في السفر.

في اليوم السادس، اتصلت بالمهرّب الذي قرّرت

السفر معه، فكانت خطّته على الشكل التالي: تنطلق الرحلة من أثينا إلى إحدى الجزر اليونانية، تدعى "ميكانوس"، ومن ثم السفر بالطائرة إلى "ميلانو" في إيطاليا، والبقاء في ميلانو يوماً واحداً، ثم السفر جواً إلى مدينة "شتوتغارت" في ألمانيا.

في ذلك اليوم، دارت معارك حامية الوطيس بيني وبين ذاك الصوت في خلدي، فأنا المتمسّك بهويّتي الذاتيّة، والرافض للتغييرات في شكلي ومظهري، وهو الصارخ والمتمسّك بالتغيير والتقليد والتكيّف مع المحيط. حاولت أن أقنعه أنّ التقليد مهما كان دقيقاً لا يزيل الاختلاف في ماهيّة الذات، وأنّ الجوهر العميق للهويّة لا يُقلّد. كما قال هيراقليطس "إنّك لن تعبر النهر مرّتين" لكنّ نبرته الواثقة كانت أعلى من صوتي وهو يهتف بي:

"لا يمكنك تحديد الذات بمعزل عن الآخر، أنت أشبه بسيّارة من زمن الثمانينيات تسير في شوارع لاس فيغاس، أنت ما تزال متمنطقاً بتفكيرك الاشتراكيّ القديم، وتتحرّك في بلدان المجتمع المدنيّ والرأسماليّ. الحياة تغيرت يا سيّدي، لا يمكنك أن تعبر النهر مرّتين، ليس ذلك فقط لأنّ ماء النهر يتجدّد باستمرار، بل أنت كذلك أيضاً، ففي كلّ مرّة تعبر فيها النهر

أنـت شـخص آخـر عمّـا كنـت. لا تكـن أحمـق واتبـع خطـاي"

تمكّن ذاك الصوت في نهاية المطاف من هزيمتي!

قـام المهـرّب بتزويـر بعـض الأوراق المطلوبـة لهـذه الرحلـة، فالتقـط صـورة فوتوغرافيّـة لـي بمظهـري الجديـد، دون لحيـة، مـع قـرط فـي أذنـي اليسـرى، بقصّـة شـعر خفيفـة، إضافـة إلـى بعـض الإكسسـوارات التـي تقلّدتهـا؛ عقـد مـن الأحجـار الملوّنـة حـول رقبتي، وسـوار فـي معصمـي، قميصـي دون أكمـام، وبنطالـي القصيـر مـن ماركـة معروفـة فـي أوروبـا تُدعـى "زارا " ذات أسـعار لا تناسـب مهاجـراً، أمّـا الحـذاء فرياضـيّ خفيـف مـن نـوع "sneakers" وتحتـه جـراب قصيـر.

في النهاية بالتأكيد لم أكن راضياً عن شكلي!

*****

(3)

حصلـت علـى بطاقتـي الشـخصيّة الجديـدة: اسـمي "نيكـولاي"، شـاب ينحـدر مـن منطقـة "بولونيـا"، تلـك كانـت هويّتـي التي يجب أن أعيش بهـا. اشـتريت إحدى الروايـات الصـادرة حديثـاً لتكـون معـي فـي سـفري،

وقد قمت باختيارها بمساعدة محرّك البحث "غوغل"، لتكون جزءاً بارزاً من المظهر الخارجيّ لسائح معتبر أكثر ممّا هو بقصد القراءة في هذا الوقت العصيب. واكتمل مظهري الأوروبيّ الجديد بحقيبة سفر شددتها إلى ظهري، متخلّياً عن حقيبة هجرتي، وأردفتها بحقيبة خصر صغيرة من ماركة معروفة لأحتفظ فيها بأوراقي المهمّة. نعم، لقد كلّفني نيكولاي هذا مبلغاً محترماً من المال، المهمّ أنّ الصوت الرابض في عمق وعيي كان راضياً تماماً وواثقاً من جدوى ما قمت به!

في ذلك اليوم، سمعت تعليقاً من المهرّب عندما التقيته هتف ضاحكاً:

- أوه لالا! تبدو أوروبيّاً حقّاً، يبدو أنّك تعرف تماماً من أين تؤكل الكتف!

- بادلته الابتسام: "أنتم السابقون ونحن اللاحقون!"

كالعادة، وضعت مبلغاً من المال في أحد مكاتب التأمين واحتفظت بالرّمز الخاص، لأنقد المهرّب جزءاً من المبلغ المتّفق عليه، لكن بعد وصولي إلى إيطاليا، وآخرُ دفعة من المبلغ تكون عند وصولي إلى ألمانيا. سافرت مع أربعة أشخاص إلى "ميكانوس"، حيث كان علينا أن نمكث يوماً هناك.

كانت الجزيرة مناسبة جدّاً لأستجمع طاقتي واستعيد صفاء ذهني، فهي جزيرة سياحيّة جديرة بهذا اللقب. وخلافاً لمن رافقوني، كنت أستمتع بلحظات وجودي في ميكانوس، مما عرّضني لانتقادات صريحة، بل جارحة أحياناً: "أمهاجرٌ أنت أم سائح؟! ألا تخجل من وضع حلق في أذنك؟! ألا تخجل من إظهار عورتك؟!" لكنّي لم أكترث، واكتفيت بامتصاص هذه الغضبة ببعض الإجابات الضاحكة!

قمت بإحراق أوراقي التي أمضيت أسبوعاً كاملاً في جمعِها قبل لحظة مغادرتي إلى المطار، إنّه مطار صغير يضمّ عدداً قليلاً من المكاتب. ولسوء الحظّ صادف أنّهم كانوا يومها يقومون ببعض الإجراءات في المطار ممّا اقتضى وجود عدد إضافيّ من رجال الشرطة والأمن فيه، يومها فقط خطر لهم إجراء بعض التغييرات في مكاتب الإقلاع وملحقاتها!

فنطق الصوت المخبوء في روحي بنوعٍ من العُنْجُهِيَّةِ والتفاخر وبغير قليل الدّلال: "ألمْ أقلْ لك تدرّب على استقبال المفاجآت جيّداً؟ ها أنت الآن، والتصرّف الأنسب هو أن تذهب إلى أحد رجال الأمن وتسأله عما يجب عليك فعله، كما روى دوستويفسكي في إحدى رواياته، رجل الأمن لن يراوده الشكّ بأنّك مهاجر غير شرعيّ

عندما تذهب إليه بقدميك وتقابله وجهاً لوجه وتسأله ممازحاً! فغالباً ما يكون العابر غير القانونيّ للحدود شخصاً خائفاً ومرتبكاً، ويكفيه أن يلمح رجل أمن واحداً حتى يدبّ الخوف في عروقه!"

وبالطبع، فعلت ما أملاه عليّ ذاك المجنون القابع داخلي. دلّني رجل الأمن على الطريق البديل بعد التعديلات، فشكرته وتابعت سيري. وعند وصولي إلى المكتب المخصّص لرحلتنا، تمّ القبض على اثنين من المسافرين الذين كانوا معي، فتظاهرت بعدم الاكتراث، ونظرت نِظرة فضوليّة خاطفة للشخص المتبقّي معي، كانت علامات الخوف والارتباك بادية عليه، لم يطل الأمر كثيراً حتى اكتشفوا أمره، في تلك اللحظة ولشدّة ذكائه، راح يناديني باسمي: "وسام! وسام!"، لا أعلم ما الذي دفعه إلى ذلك، هل هو خوفه الذي داهمه فجأة، أم أنانيّة صارخة ذكّرته بمبدأ: "الجميع أو لا أحد". كان ذاك الشخص هو نفسه الذي واظب على انتقاد مظهري الجديد، وبخاصّة أنّني فرّطت برجولتي ورضيت بوضع قرط في أذني!

عاد صوت ضميري يلهج مؤنّباً هذه المرة: "لك أن تتساءل إذا كانت الآلهة هي من عاقبته

وكشفت أمره، وهو يعرف تماماً كيف ساندتَ وعاضدت كلّ من احتاج مساعدتك، بغضّ النّظر إذا ما كنت تعرفه أم لا، من سواك يفعلها، فيسرع بإقراض ألفيّ يورو لذاك الشابّ الذي التقيته في حافلة مارماريس، والذي كان ينقصه المال عند تواجده في أثينا، لولا مساعدتك ما كان ليستطيع متابعة رحلته مع عائلته إلى أوروبّا! الطِيبة جيّدة يا صديقي، لكن عليك أيضاً أن تفكّر في نفسك في هذه المتاهة التي لا تعرف إلى أين ستوصلك.

ها هنا انجُ بنفسك، لأنّه ليس بمقدورك مساعدة هذا الشابّ الذي ينادي باسمك الصريح الذي أخفيته بمشقّة، بل سوف تضيّع على نفسك كلّ ما تعبت في ترتيبه لو نطقت بأيّ حرف. أنت الآن نيكولاي، لم تعد وسام، تابع مسيرك أيّها الحكيم ولا تلتفت إلى الخلف!".

لأنّني لم أعد وسام، وأنا الآن "نيكولاي"، لم ألتفت لندائه رغم شعوري بغُصّة حارقة لأجله، تابعت وكأنّني لم أسمع شيئاً. بل رحت أمازح موظّفة الطيران، ناطقاً بعض العبارات بالإيطاليّة، بينما أحاول أن تكون لغتي الإنجليزيّة طليقة باللكنة المتوقّعة، كانت تحدّثني بالإنجليزيّة فأردّ عليها باللغة

ذاتها، وعندما قالت لي تفضّل وهي تعيد لي أوراقي، شكرتها بالإيطاليّة!

تابعت مسيري نحو الطائرة، فالآن أنا "نيكولاي" الذاهب إلى موطنه، لا شيء أكثر أو أقلّ من ذلك. انطلقتِ الرّحلة متّجهة إلى ميلانو، وأنا على متنها كأيّ أوروبيّ مسافر بين مدينتين أوروبيتين. كانت تعليمات المهرّب الأخيرة:

عندما تصل إلى مطار ميلانو سوف تجد شخصاً بانتظارك يرفع لافتة كُتب عليها اسمك (نيكولاي كالديرو) وطلب مني ألّا أتحدّث إليه بأيّ لغة، وأن أكتفي بإلقاء التحيّة عليه بالإيطاليّة، وبالتالي هو سيقودني إلى أحد الفنادق حيث سأقيم ليوم أو يومين قبل السفر إلى ألمانيا.

وهذا بالفعل ما حدث، اصطحبني ذلك الشخص إلى فندق يبعد مسير قرابة خمس وأربعين دقيقة عن المطار، يقع في منطقة بعيدة قليلاً عن وسط المدينة.

كان الفندق جميلاً وهادئاً، كلّ ما يصل إلى سمعك هو الموسيقى الإيطاليّة الهادئة. كما كان يقدّم لنزلائه وجبتين في اليوم؛ الفطور والعشاء، أمّا الفطور الإيطاليّ فهو الكابتشينو أو القهوة مع فطيرة حلوة أو قطعة من الخبز ومربّى الفواكه والمعجّنات الخفيفة كالكرواسان، إضافة إلى البيض المقليّ والمعكرونة

بالجبنـة، أو القليل مـن الأطعمـة المالحـة، وبالطبـع، كعكة الجبـن التـي تعـدّ واحـدة مـن أشـهر الحلويـات الإيطاليّـة والتـي تكـون جاهـزة للتقديـم فـي أيّ وقـت سـواء كحلـوى أو كوجبـة خفيفـة. أمّـا وجبـة العشـاء فقـد كانـت غالبـاً مؤلّفـة مـن البيتـزا، أو المعكرونـة والباسـتا بأنواعهـا العديـدة، وشـرائح اللحـم المشـويّ ومـا شـابه.

فـي ذلـك الفنـدق ذي النجـوم الثلاثة، كنت وحيداً تماماً. حتى الشـخص الـذي اصطحبنـي إلـى الفندق، لـم أعـد أراه مطلقاً، فقد اكتفـى بإخبـاري أنّـه سيأتي بعـد يوميـن لاصطحابـي، وطلـب منّـي عـدم مغـادرة الفنـدق تحـت أيّ ظـرف كان. فمـن غيـر المنطقـيّ أن يتجـوّل "نيكـولاي" الإيطالـيّ فـي إيطاليـا، دون أن يجيـد اللغة الإيطاليّـة! وبذلك كان لديّ كثير مـن الوقـت الـذي علـيّ أن أمـلأه بـأيّ طريقـة، فالوحـدة فـي وضعـي الحالـيّ سـوف تكون قاتلـة، لأنّ ذاكرتـي المزدحمة بصـور الحـرب لـم تتـح لـي فـي أحيـان كثيـرة التمتّـع برؤية الجمـال الـذي تنشـره الأماكـن التـي مـررت بهـا، زيـادة علـى صـوت ضميـري الـذي لا يكـفّ عـن لومـي وتأنيبـي لأنّنـي كنـت، بمغـادرة أهلـي، قـد تسـبّبت لهـم بكثيـر مـن الخـوف علـيّ مـن مخاطـر مغامرتـي هـذه، إضافـة إلـى خوفهـم الآخـر الـذي لا يبـرح، وهـم القابعـون تحـت سـماءٍ ملبّـدة بالمـوت، نـزح الغيـم منهـا هلعـاً مـن أزيـز الرصاص وصخـب القذائـف والصواريـخ.

فـي تلـك الغرفة الواسـعة ذات السـرير المـزدوج، والمرايا

التـي تكسو الجدران، كنـت كيفمـا تلفتُّ أرى وجهـي فـي المرايـا فيخطـر لـي أن أسـاله:

- هل أنت وسام، أم نيكولاي؟

- هـل عشـت تلـك التجـارب التـي عشـتها أنـا؟ هـل عشـت حبّـاً طفوليّـاً بـكلّ تفاصيلـه البريئـة؟ ذلـك الحـبّ الأقـرب إلـى لهـو طفليـن فـي مـرج أخضـر واسـع، بابتسـامة هنـا وضحكـة هنـاك، برعشـةٍ خفيفـة ونبـض قلـبٍ قليـل التعـب، تُـرى ألأجـل ذلـك كان الكبـار يسـمّونه حبّـاً؟ لا أعـرف مـا إذا كانـت تلـك الفتـاة مـا تـزال تذكـر لحظاتنـا البريئـة، لكنّنـي علـى تمـام اليقيـن أنّ قسـوة الحيـاة لـم تسـتطع أن تنـال مـن ذاكرتـي الجميلـة، وأنّنـي مـا زلـت أقتنـع أنّ الحـبّ هـو وحـده جوهـر صفـاء الروح.

كان نيكـولاي صامتـاً يكتفـي بالاسـتماع، نعـم، كان مسـتمعاً جيـداً حقـاً، فأغرانـي أن أتابـع اسـتنطاقه:

- هـل قسـا عليـك الحـبّ مثلـي؟ هـل رأيتـه يحـرّر عقـل فتـاةٍ عاشـقة، نبـضُ قلبهـا مسترسـل فـي نبـض قلبـك؟ هـل وقفـت يومـاً فـي كفّـةِ عشـقٍ مـا، ورجحـت مقابلـك كفّـة المـال، فمشـيت وقـد عرفـت أنّ الفقـر يثقـل كاهـل الحـبّ، دون أن يمنحـه

قيراطـاً واحـداً فـي سـوق الذهـب؟ هـل كان عليـك أن تلملـم جـراح قلبـك مـرّات ومـرّات كمـا فعلـت؟ حدّثنـي، هـل كنـت أكثـر حظّـاً منّـي؟ هـل كنـت يومـاً علـى وشـك الـزواج مـن فتـاةٍ تفتقـد غيابـك كمـا يفتقـد المديـر فـي بـلادي موظّفـاً غـاب عـن الانتخابـات الرئاسـيّة، فحـدث أنْ وقعـتَ فـي المحظـور وغبـت عـن إحـدى حفـلات عائلتهـا، فـكان مصيـرك الفصـل كمـا سـمّاه المديـر، أو الانفصـال كمـا سـمّته هـي؟ هـل حظيـت ببيـتٍ يتنشّـق الأمـان مـن رائحتـك فيـه؟ هـل تعلّمـت كيـف تعتصـر مـن جرحـك قطـراً، ينقّـط فـي حلـق الأمـل؟ هـل تعلّمـت كيـف تخفـي انكساراتك عـن الشـمس، وتلتئـم بينـك وبينـك ببلسـم النـور والصبـر؟ هـل أغـواك الكبريـاء أم اسـتهواك؟ بـل هـل درّبـت روحـك علـى العنـاد ولـم تدرّبهـا علـى درء الحنيـن؟ هـل أدمنـت الوحـدة، حتـى فاتـك كثيـر مـن حصـص الجمـال؟ هـل بالغـت فـي القـرب مـن النـاس حتـى كـدت تنسـى انتمـاءك لذاتـك؟

- كيـف عسـاك أن تكـون أنـا؟ وأنـت لا تشـبهني فـي شـيء، يكفـي أنّـك مـن هنـا، مـن بـلادٍ تؤّمـن قـوت الطفـل قبـل أن يولـد، وأيضـاً قـوت حلمـه، فيكبـر الطفـل كـي يصيـر حلمـه. وأنـا مـن هنـاك، مـن بـلاد يعمـل الطفـل فيهـا كـي يتعلّـم مـا يريـدون. أنـت مـن هنـا، مـن بـلادٍ يحلـم المـرء بتقمّـص

هويّتها، وتنبت في جامعاتها بذور المجد. وأنا من هناك، من بلادٍ يحلم المرء فيها بجواز السفر، ويغافل طالبٌ جامعيٌ فيها رفقاءه ممّن يملكون ثمن تذكرة في الحافلة، كي يشقّ طريقه سيراً على الأقدام، أميناً لكبريائه وفقره.
- هل فكّرت يوماً أن تسرَّ لأحدٍ ما بحنينك العنيد لوالدك؟ هل وجدت من تسرّ له بذلك؟ هل أطلقت العنان لدمعك أم قيّدته بالكبرياء مجدداً؟ هل قرأت لأمّك كلاماً كثيراً عنها لم يسعفك الوقت أن تقوله لها؟ أتعلم يا نيكولاي أنّ روحي تتَحَيَّنُ وحدتي كي تتمدّد؟ وأنّي بحثت عن صديق في جسد الحبيبة، لكي تلمس روحي روحها قبل عناق الجسد للجسد، بينما كنَّ يبحثن عن الغزل البعيد عنّي، وعن الدفء الغريب عن روحي، وذلك في مشاهد تسمّيها النساء رومانسيّة. نيكولاي يا صديقي، ها أنا أنتقيك بملء حرّيتي، لأبعثر صمتي على مسامعك، وأفرد نفسي أمام صمتك.

- أنا يا نيكولاي لا أرى في الكأس الفارغة ماء، ولا أرى في الكأس الممتلئة فراغ الهواء، أنا أرى كلّ الماء داخل الكأس، وأرى احتمالات كثيرة لملء جزء الكأس الفارغ، لذلك كان من الصعب عليّ، أن أكيّف نفسي على هوى من

يـرى انتقـادي تهكّمـاً، دون أن يخترقـه الضـوء الـذي سلّطته علـى نقصـه، ودون أن يـرى أبـواب اكتمالـه فـي عيـنٍ خارجـة عنـه. أجـل يـا صديقـي، أنـا شـخصٌ غيـر عقلانـيّ، لأنّني لـم أقلّم أغصـان روحـي حتى يتّسع لهـا المكان المتـاح، ولأنّ الإبداع هـو دائمـاً غيـر عقلانـيّ، وكلّ تقـدّم يعتمـد علـى شـخصٍ غيـر عقلانـيّ، علـى حدّ قـول برناردشو.

- اليـوم يـا نيكـولاي، سـأحمل هويّتـك وأخفـي هويّتـي، وسأشـبهك فـي ثرائـك وثقافتـك وطابعـك الأوروبـيّ الغريـب عـن جسـدي، فلنكـن أصدقـاء حتـى نعبـر معـاً بجسدٍ واحدٍ واسمين اثنين، فيتّسع صمتـك لبـوح روحـي، ويتّسـع صوتـي لتهجئـة اسمك الطويـل، تحملني وأحملك فلا نتعب، نحن الاثنيـن، وتربّت علـى كتفي إذا ذبلـت، كأنّك تنفض عنّـي وحشـتي وتشـدّ أزر عنـادي.

*****

(4)

مضـى الوقـت المحـدّد لـي فـي إيطاليـا، ذاك الوقـت الـذي أمضيتـه بصحبـة نيكـولاي ومرايـا تلـك الغرفـة، وبعـض المحادثـات الهاتفيّـة، وبعـض القـراءات الالكترونيّـة. للمـرّة الأخيـرة وقفـت أمـام المـرآة:

- استعدّ يا نيكولاي، من الآن سوف نذهب معاً ونسافر معاً ونعيش معاً، في مدينة أخرى، في شتوتغارت، ما رأيك؟ هل سبق لك أن زرتها من قبل؟ يقولون إنّها جميلة، أهي كذلك؟ استعدّ، فقريباً جدّاً سيأتي ذاك الشخص الذي أودعَنا هنا لاصطحابنا مرّة أخرى إلى المطار.

في الساعة السابعة صباحاً، طرق الشخص المنتظر باب غرفتي، حيث كنت على أهبة الاستعداد، وكذلك كان نيكولاي، فانطلقنا نحو المطار. سار كلّ شيء بسلاسة دون أيّ تعقيدات، لا حاجة لتسجيل الدخول، لا حاجة للتحدّث مع أيٍّ من موظّفي المطار، كان على الشخص إجراء كلّ شيء "أون لاين" والتوجّه مباشرة نحو البوّابة. دخلت المطار ثانية كأيّ أوروبيّ مسافر، توجّهت مباشرة نحو البوّابة الخاصّة بالطائرة، كان المسافرون يهمّون بدخولها، ألقيت التحيّة بالإيطالية على مضيفي الطائرة أظهرت بطاقتي الشخصيّة لهم، قالوا "تفضل رحلة سعيدة، سيّدي". في الطائرة جلست على مقعدي المخصّص وفتحت كتاباً باللغة الإيطالية لم أكن أفقه منه حرفاً منتظراً الإقلاع بفارغ الصبر. فإقلاع الطائرة يعني نجاح الخطّة، وأنّ أحداً لم يعد بإمكانه إيقافي!

بعد إقلاع الطائرة، كان عليّ الالتزام بتعليمات

المهـرّب والمتمثّلــة بــأن أمــزّق بطاقتــي المــزوّرة – بطاقـة نيكـولاي- وأن أظهـر أوراقـي الثبوتيّـة السـوريّة. فدخلـت إلـى حمّـام الطائـرة وأخرجـت البطاقـة الشـخصيّة الخاصّــة بنيكــولاي، التــي وجَــبَ علــيّ توديعهــا قبــل رميهــا والتخلّـص منهـا:

- يبـدو أنّــه لا يمكننــا العيـش معــاً فــي شــتوتغارت يــا صديقــي نيكــولاي، شــكراً لــك لأنــك لــم تجعلنــي أخجــل مــن ذاتــي عندمــا حدثّتــك عــن بعــض صراعاتــي، ومغامراتــي التــي عشــتها مــن قبــل. أنــا آســف يــا صديقــي، لكنّــك ســتحظى بفرصــة الشــعور بالحريّــة أثنــاء تحليقــك فــي الجــوّ وقبــل هبوطــك علــى الأرض. أمّــا أنــا وصوتــي القابــع داخلــي فإنّنــا ســوف ســنتابع الرحلــة إلــى شــتوتغارت.

بـدا أنّ نيكـولاي لـم يكـن يكتـرث بمـا فعلـت أو بمـا أنـوي فعلـه، بـل ربّمـا كان سـعيداً جـدّاً بالتخلّـص مـن رفقتـي!

عـدت أدراجـي إلـى مقعـدي، ورحـت أتذكّـر أنّنـي طبّقـت تمامـاً مـا حـدث فـي المسلسـل الأمريكـي How to get away with a murder! نجحــت فــي إخفــاء دافــع جريمتــي، ونجحــت فــي إعــادة ترتيــب مشــهد الجريمــة ليبــدو أقــرب إلــى الطبيعــيّ، وأخفيــت ســلاح جريمتــي– الهويّـة المزيفـة- بتمزيقها فـي الطائرة، وأظهـرت أوراقي

الأصليّة التي تحمل هويّتي وشخصيّتي الحقيقيتين.

عاد ذاك الصوت الهاجع فيّ ليملي عليّ أفكاره الثوريّة، ومحاضراته، ونقاشاته التي لا تنتهي:

"نعم، ها أنت وسام ثانيةً، أنت مهاجر غير شرعي، أنت الشخص الذي لم يكن يوماً ما ليقبل التستّر على جريمة، لكنّك ارتكبت واحدة للتوّ! هل تعلم لماذا قمت بذلك؟ دعني أخبرك، لأنّ الطرق الشرعيّة للهجرة لا تقبل شخصاً مثلك، شخصاً شاء القدر أن يولد في أرض عربيّة، لا قيمة لتحديد أيّ البلدان العربية أقصد، فكلّها سواء في ذلك، إنّها ليست موضع تقدير من الآخرين. لكن هل تعتقد حقّاً أنّك ارتكبت جريمة؟ ما هي جريمتك؟ التنكّر للذات! وانتحال هويّة غير هويّتك الحقيقيّة. لنفترض أنّك لم تفعل ذلك، كيف كنت ستتمكن من السفر؟ ألم تتقدّم بطلب سفر للسفارة الألمانيّة في بيروت بغية الدراسة؟ ماذا كانت النتيجة؟ الرفض طبعاً.

لست أنت يا صديقي من ارتكب جريمة، أنت فقط ضحيّة لجريمة ارتكبت من قبل، جريمة ضدّ الإنسانيّة كلّها، جريمة تصنيف البشر في درجات تبعاً لجواز السفر الذي يحملونه. فلو أنّ جواز سفرك كان أمريكيّاً لقالوا لك تفضّل،

أهلاً وسهلاً بك. لكنك يا للأسف لست أمريكيّاً ولا أوروبيّاً. أنت ولدت في إحدى تلك الدول التي رسّخت اغتراب الهويّة في مواطنيها، دمّرت الذات فيهم، وفوق ذلك طالبتهم بالشعور بالانتماء. أنت حصيلة شعارات فارغة، تحت مسمّى الوطن. أنت ولدت في بلاد تنتظر موتك لتكرّمك، ومع كلّ هذا، أنت، مثلَ كثير من الشباب العربي، تعتزّون بهويّتكم العربيّة وتعشقون ذاك التراب الذي تسموّنه وطناً. أنت لم ترتكب جريمة الآن يا رفيقي، فالجريمة التي ارتكبتها أنت وأجدادك منذ عصور، هي الصمت والخضوع ليس أكثر! فكّر بما هو قادم يا أيّها العنيد!"

ختم صوت روحي محاضرته مسوّغاً ما فعلت عبر إلقاء اللوم على شيء آخر سواي، بينما كانت الطائرة تهمّ بالهبوط في مطار مدينة شتوتغارت الألمانيّة.

*****

الهُويّة الضائعة

هارباً من عشق امرأة في خيالك

متهاوياً في لذة العتب

مسافراً بين ماضٍ مهيب وحاضر جريح

مترنّماً بزقزقة عصفور على شبّاك دارك

سرقوا منك وطنك! وتركوك على رصيف الغياب

تطارد همهمةً سمعتها ذات مساء عن حبّ خالد في عبق الأقحوان

تكذب على نفسك لتصدّق

أنّ صباحك ممزوج بلذة النبيذ المعتّق

وأنّ مدينة أفلاطون في طريقها لتتجسّد

تغازل ذاتك تحت ضوء قمر مكتمل

وترفض الاعتراف أنّ الشمس سوف تشرق من جديد

عابراً بين الكلمات

متناسياً رفيق درب قد أضاع الطريق

متغنّياً بالقمح والزيتون

مترنّماً بموسيقى الناي ومقام البيات

منتمياً لضحكة طفل عند سقوطه لينهض من جديد

مرتشفاً قبلة من حدّ السكّين

أنت، أنت اللامنتمي الآن

أنين الذات يقلّب رمال الذاكرة اللامتناهية

ذاتك تصارع لتعيد عقارب الساعة إلى الوراء

وتمجّد العدل المقدّس في الأساطير

أنت، أنت الآن

مَن ينام ليحلم بالانتماء

(1)

اعتذرت من نيكولاي لأنّني مزّقت أوراقه، لا أعلم إن كان ذلك انطلاقاً من ذاتي الحقيقيّة أم أنّه محض استكمال للتمثيليّة التي ألعبها للوصول إلى هدفي؛ ألمانيا. عندما كنت في تركيّا، كنت قد أرسلت حقيبتي التي تحتوي على كافّة الملفّات الضروريّة وشهاداتي إلى ألمانيا، إلى صديق لي في مدينة دورتموند، كان قد هاجر إلى هناك من سوريا منذ ما يقارب السنة.

حطّت طائرتي في مطار شتوتغارت. وكأيّ شخص يزور منطقة جديدة، لزمني خارطة من مكتب

المعلومات، حصلت منها على ما أريد عن المواصلات والطرق. خرجت من المطار لأتجوّل في ألمانيا، كنت أريد فقط أن أرى هذا البلد، الذي تركت كلّ شيء وهاجرت إليه. أوقفت سيارة أجرة ووجهتي المحطّة الرئيسيّة في المدينة، ونيّتي أن أذهب إلى العاصمة ميونخ لأقضي يوماً واحداً هناك، ثمّ في اليوم التالي سوف ألتقي صديقي في ديسيلدورف، لأنّني كنت قد قطعت له عهداً أن أحتسي القهوة معه هناك!

من سيارة الأجرة وللوهلة الأولى، ينتابك شعور أنّ ألمانيا جميلة مع بعض الإحساس بالغرابة، لم أكن قادراً على تحديد مشاعري في تلك اللحظة، هل أنا سعيد، أم خائف، أم مذهول؟ أم أنّني أشعر بنشوة تحقيق الهدف؟

مشاعري في تلك اللحظات لم تكن تصبو للذّة الشعور بنشوة تحقيق هدف منذ أيام قليلة فقط كان أشبه بالمستحيل. سمعت الصوت يعظني من جديد:

"تريّث! فإنّ مضمار السباق ما يزال طويلاً"

وصلت إلى محطّة القطار، وبدل أن أشتري تذكرة إلى "ميونخ"، اشتريت تذكرة إلى ديسلدورف، وإلى هناك توجّهت. كان ثمّة شيء ما في صدري يقلقني، وأنا جالس أتأمّل الأشخاص في ذاك القطار بما يكفي

من الذهول، لكنّ شعوراً غامضاً كان يجعل صدري منقبضاً، لماذا؟ هذا هو السؤال الذي كان يقضّ مضجعي!

"لقد قطعت مسافات طويلة لتصل إلى هنا، حاول أن تستمتع أيّها المغفّل! انظر كم هي جميلة ألمانيا! انظر إلى شوارعها كم هي نظيفة وأنيقة! لماذا ينتابك القلق؟ لا عليك، أنت في طريقك لتلتقي صديقك الذي سوف يمنحك قليلاً من السعادة بكلّ تأكيد، السعادة التي تنقصك في هذه اللحظة" حاول صوت ضميري أن ينتشلني من فوضى أفكاري وتلاطم أحاسيسي التي داهمتني ريثما خطوت خطواتي الأولى في البلد التي سكنت أحلامي زمناً طويلاً.

وصلت إلى ديسلدورف في الساعة الثالثة عصراً، وكنت قد وعدت صديقي أن ألتقيه في السادسة، فما كان منّي إلّا أن بدأت البحث عن فندق يؤجّر غرفاً بسعر معقول، لكنّ فنادق تلك المدينة كانت باهظة جدّاً. تجوّلت في المدينة التي أحببتها في خيالي، لكنّني اكتشفت أنّها في الخيال أجمل بكثير من الواقع الذي تجسّد اليوم. تخيّلت أنّ لها ملاكاً حارساً وفيها بساتين وأزهار وأنهار. رأيتها في خيالي مدينة مسوّرةً تفيض بالسعادة فقط وكلّ من فيها مبتسم. لكنّني عندما

وطئت بقدميّ عتبة حقيقتها تهاوى كلّ شيء. نظرت في الوجوه من حولي فرأيت ذاك المنكبّ على عمله، والآخر الجالس والهموم ترسم ملامحه. في محطّة القطار، كان هناك مئات الأشخاص يبدون في عجلة من أمرهم يترنّحون ذهاباً وإياباً، تماماً مثل مشاعري التي راحت تترنّح وتهتزّ!

بعد فترة ليست بالوجيزة، وجدت فندقاً بسعر مقبول، في منطقة قريبة من المحطّة الرئيسيّة. كنت قادراً على استخدام محرك الخرائط GPS بشكل جيّد، فوضعت حقيبتي في الفندق وانطلقت في رحلة البحث عن حدود مخيّلتي، البحث عن مدينة عشقتها منذ صغري. كنت أسير وأسير ولا أحسّ سوى أنّني تائه في مكان لا يمتّ إليّ بأيّ صلة. أخافني ذلك الشعور، بل أرعبني وثبّط من عزيمتي، لكنّني في نهاية المطاف وصلت إلى المقهى الذي حدّده صديقي مكاناً نلتقي فيه.

جلست بانتظار شخصه ذي المكانة العميقة في قلبي، فنحن الصديقان القديمان اللذان عشنا معاً سنين طويلة سعيدَين متآلفين رغم ألم المعاناة والشقاء الذي كان يرسم أيامنا.

ها هو يطلّ من بعيد، فارتسمت على وجهي ابتسامة لا إراديّة، تراقص الفرح في عروقي لحظة رؤيته،

إلـى أن وصـل إلـى الطاولـة، فوقفـت بلهفـة قلـب منهـك بالشـوق لصديـق روح غـاب، لكـنّ شـيئاً غريبـاً خيّـم علينـا منذ لحظـة اللقـاء الأولـى؛ لـم أشـعر بـدفء عناقـه. بـدت مشـاعره كقطعـة ثلـج سـرعان مـا ذابـت مـن حرارة شـوقي. نعـم، لقـد كان لقـاؤه أكثـر بـرودة مـن ميـاه البحـر وأكثـر ارتعاشـاً مـن لحظـات خوفـي. لـم تكـن ابتسـامته الفاتـرة تشـبه ولـو قليـلاً عذوبـة تلـك الابتسـامة التـي عهدتهـا فيـه.

جلس، فسألته:

- ماذا تودّ أن تشرب؟

أجاب ببرود:

- نحن هنا لنشرب القهوة، أليس كذلك؟

- قلت: طبعاً، بكلّ سرور!

طلبـت القهـوة لكلينـا. كانـت نظراتـه شـاردة فـي كلّ اتجـاه، كأنّـه يتجنّـب النظـر إلـيّ. مزيـج مـن الحـزن والقهـر تجلّـى فـي عينيـه. تحـدّث صديقـي عـن ندمـه لاتخـاذ قـرار الهجـرة، وعـدم قدرتـه علـى التأقلـم، لكنّـه عـزا ذلـك إلـى نـوع مـن العقـاب الإلهـي علـى الآثـام التي

ارتكبها فيما مضى. انتقد صديقي تصرّفاتي، وعلى غير عادته لامني على أنّني لا أهتمّ كثيراً بالتزامي الدينيّ، ثمّ أنّه عرّج على مظهري فاعتبره غير لائق أبداً. وربما أراد أن يوحي لي بأنيّ اقترفت إثماً فظيعاً وقد حان الوقت لأحاسب وأعاقب من الله لا محالة!

لم يكن ذاك الذي جلست معه في المقهى صديقي الذي تعلّقت روحي به فيما مضى، بل كان شخصاً آخر لا أعرفه، فحديثه الذي كان يحمل السعادة لي فيما مضى، مزّق روحي في تلك اللحظة، ودلق فوق نار لهفتي إليه سطلاً من ماء فجاجته البارد. سألته:

- ما بك، ما الذي تتحدّث عنه؟ كلانا عاش الغربة معاً في كنف الوطن المنهوب لكنّنا مع ذلك لم نفقد حلمنا بوطن أجمل، وحين استحال الحلم فتّشنا عن آخر يملؤنا شغفاً كي نحيا. قد نكون خسرنا وتهنا وتعثّرت الروح فينا، لكنّنا لم نصل إلى حدّ أن ينتقد ويلوم بعضنا بعضاً من قبل. جميعنا أصبحنا أغراباً، وشواطئ الدنيا تتلقّفنا كيفما شاءت، لكنّ حلمنا أن يزهر الياسمين يوماً على شرفاتنا وأن يعود ويجمعنا رصيف العمر وزقاق ضيق في مدينتنا.

لم يكن صديقي مستعدّاً لسماع أيٍّ من كلماتي، بل

إنّــه ســارع إلــى تسـليمي حقيبتــي المودعـة عنـده واعتـذر بــأنّ عليــه أن يعــود مــن حيــث أتــى. صعقنــي تصرّفـه ذاك، فأقـلّ مـا كنـت أنتظـره هـو أن نقضــي يومــاً معــاً، نضحـك، ونلهـو كمـا كنّـا نفعـل فيمـا مضـى. ألححـتُ:

- هـل أنـت جـادّ أم أنـك تمازحنـي، هـل لديـك أمـر هامّ ينتظرك؟

- أجاب بحزم: لا، لكنّي سأغادر

وقعـت كلماتـه كالسـوط علـى جلـد قلبـي، فتلعثـم لسـاني وارتبكـت أفـكاري ولـذت بالصمـت!

"لا تلمـه فهـو حزيـن جـدّاً، ومكتئـب. هـو لا يقصـد إهانتـك، أنـت تعلـم كـم مـن الحـبّ يكنّـه لـك، حتـى ولـو بـدت مشـاعره الآن بـاردة كالجليـد. أنـت لا تـدري عـن ظـروف حياتـه الجديـدة فربّمـا هـي المسـؤولة عـن هـذا القلـق كلّـه. ربّمـا إحساسـه بالإحبـاط لعـدم القـدرة علـى التأقلـم هـو سـبب إلقائـه اللـوم عليـك وعلـى الآخريـن ممّـن نزحـوا. هـو لـم يقصـد محاسـبتك علـى انتمائـك الدينـيّ، لـم يقصـد التقليـل مـن شـأنك، ولا جـرح مشـاعرك. اهـدأ، ولا تهـدم وتحـرق جسـور علاقتكمـا بجـرّة قلـم". صـرخ الصـوت الهاتـف فـي روحـي.

كان ألم التقاء صديقي أكبر بكثير من قدرتي على الاستماع إلى أيّ مواعظ، لذا علمت حينها أنّ لحظة هذا الوداع لصديقي ستكون بمثابة إحراق كافّة السفن خلفي في علاقتي به.

قلت وأنا أهمّ بالنهوض:

- طيّب، شكراً على كلّ شيء.

وعدتك في يوم مضى، أنّني سوف أشرب القهوة معك في ديسلدورف وهأنذا قد بررتُ بآخر وعودي، الآن وداعاً.

"لقد كنت دائماً هكذا، عندما تشعر أنّ أحباءك يعاملونك معاملة سيّئة تلتزم الصمت وتنغلق على ذاتك، في حين لو عاملك شخص آخر بمثل ذلك فإنّ صراخك يعلو وتصبح جاهزاً للعراك. للتوّ ودّعت أحد أهمّ الأشخاص في حياتك، وخنقت عصفوراً صغيراً في قلبك، ترى كم من الخسارات عليك أن تحتمل؟ كم من الجراح سوف يتّسع لها قلبك؟ ألم تكن قد خاطرت بحياتك سابقاً فقط من أجله، عندما دخلت سرّاً إلى منطقة تحت سيطرة الدولة الإسلاميّة لتساعده على إخراج أمتعته وأوراقه

الثبوتيّة، على الرغم من أنّ تلك المخاطرة كان يمكن لها أن تجعل رأسك يتدحرج بعيداً عن جسدك! أعلمُ كم تقدّس الصداقة، أعلم أنّك مستعدّ لافتداء أصدقائك بروحك لو تطلّب الأمر، أعلم كم أنت مستعدّ للنضال من أجل الآخرين، لذلك لا شيء أصعب عليك من خسارة صديق. كم أنت مكسور الآن، أطلق العنان لدموعك فذلك سيجلب لك بعض الراحة. أشفق على نفسك! وتذكّر أنّ اليوم ليس آخر يوم في حياتك، وأنّ هذه الخسارة لن تكون نهاية الدنيا بالنسبة لك، فإنّ لحلمك بقية!"

اختلط الصوت بهسيس روحي، بينما كانت دموعي تتلمّس طريقها بصمت على وجنتيّ وأنا في طريق عودتي إلى الفندق.

لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي أخسر فيها صديقاً، فقد خسرت عدداً من المعارف والأصدقاء خلال مراحل حياتي، لاختلاف مبادئنا أحياناً ولحدّة طباعي أحياناً أخرى. لكنّ الأمر في هذه المرّة كان أكثر وجعاً وإيلاماً. كانت ليلتي تلك في الفندق أشبه بعقاب أبديّ، كعقاب زيوس كبير الآلهة لبروميثيوس عندما مَنح هذا الأخير سرّ النار للإنسان. الوقت طويل جداً، والقلب يُعتصر حزناً، والفراق هو العنوان.

في اليوم التالي، حزمت أمتعتي وقرّرت العودة إلى شتوتغارت. هناك، قمت بتسليم نفسي للشرطة، وشرحت لهم أنّني قدمت بشكل غير شرعيّ، واعترفت بجريمتي التي ارتكبتها حين انتحلت شخصيّة نيكولاي. قاموا ببعض الإجراءات الروتينيّة، فأوقفوني لبضع ساعات، ثم أرسلوني إلى منطقة تدعى "كارلسرواه Karlsruhe" على الحدود الفرنسيّة. كان المحقّق الذي تحدّث معي لطيفاً جدّاً خلال التحقيقات مُظهراً احترامه الشديد لشهاداتي الجامعيّة وللمعلومات الموجودة عنّي في أوراقي التي أحملها، حتى أنّه أعطاني عنوان بريده الإلكترونيّ، ورقم هاتفه للاتصال به عند الحاجة. كنت ما أزال تحت صدمة خسارة صديق، ومشاعري كانت أقرب ما تكون إلى عدم الاكتراث بأيّ شيء، إضافة إلى فقدان المتعة بكلّ ما أنجزته. أخذت منه تلك المعلومات، وقلت "إن شاء الله". فابتسم لأنّه كان يعرف معنى تلك الجملة.

كانت لحظة وصولي إلى كارلسرواه موعداً للوقوف مع الذات، بدأتْ تتهاوى فيه الأحلام التي سعيت للوصول إليها. لا أعلم ما الذي حدث، هل هو انكسار قلبي لرؤية صديقي في تلك الحال، أم أنّ ما رأيته في ذلك اليوم، مع تلك الجموع من الأشخاص الجالسين في الحدائق تحت المطر الغزير بانتظار من يؤمّن لهم غرفاً تؤويهم، هو ما كسرني! دخلت إلى ذلك المكان

حيث كلّ شيء كان مقيتاً، ويجلب الاكتئاب. نظرت في عيون الآخرين من كافّة الجنسيّات والأعراق حيث يتجّمعون، كلمة سرّهم هي "البحث عن وطن جديد"، وفي جَعبة كلّ واحد منهم من الهموم ما يكفي لتمزّق أمماً. تحدّثت مع كثير منهم، لكنّ الحزن الذي كان يفيض من أعينهم كاد أن يقطّعني إرباً.

"ما الذي حدث؟ أنت من أردت أن تأتي إلى هنا، أنت من تعلّمت الألمانيّة سلفاً، أنت من حاولت بشتّى الطرق السعي لكي تكون هنا، أنت من ارتكبت جريمة لتهاجر بشكل غير شرعيّ وما كان لك من هدف سوى الوصول إلى هنا، أنت من تبنّيت نظرياتٍ وأفكاراً لا تشبهك، أنت من انتحلت شخصيّة نيكولاي لتطأ قدماك هذه الأرض، ما الذي يحدث لك؟ أليس لديك جواب حتى اسودّت الدنيا في عينيك في وضح النهار؟ لكأنّ قطرات المطر المتقاطرة تخترق جسدك! أنت لم تعد أنت، إنّ غمامة سوداء تتلبّد في قلبك، أما تزال قادراً على التنفس؟". جاءني الصوت من غور بعيد مغموساً بما كنت أحسّه من إحباط!

كان يجب على المهاجر أن يبقى هناك عدّة أيام قبل أن يتمّ فرزه إلى أماكن مختلفة في ولاية شتوتغارت.

لم أكن أعلم ماذا أفعل، كلّ ما كنت أعرفه أنّني كنت في حالة مأساويّة. لم يكن لدي مكان للنوم، فتحتّم عليّ النوم كالآخرين تحت المطر الذي لا ينقطع، رحت أتجوّل في المكان على غير هدى. كان هذا التجمّع في منطقة نائية، حيث ليس هناك سوى جسر بائس في الخارج، لا بيوت ولا مناطق مناسبة يمكن اللجوء إليها اتّقاءً للمطر المنسكب بغزارة. مشيت وحدي في الطريق تحت المطر المنهمر كشلال، أشعل سيجارة وأطفئ أخرى، محاولاً ترتيب أفكاري لكنّني لم أستطع. ما كان يقتلني ويحرقني ويمتصّ الحياة من عروقي ويجعل الدم يغلي داخلي فأصبح شاحباً كالموتى أنّني لم أكن أشعر بنشوة تحقيق هدفي في الوصول إلى ألمانيا.

حزمت أمتعتي وقرّرت الرحيل، لا أعلم إلى أين، لكنّي عزمت على الرحيل، فأنا الآن أشدّ شعوراً أنّني ذلك اللامنتمي. رحلت من ذلك التجمّع ووصلت بطريقة ما إلى محطّة القطار، ومن هناك اتصلت بشخص كنت أعرفه، وهو والد طفل توحّدي كان قد طلب منّي الاتصال به بمجرّد وصولي إلى ألمانيا. وبالرغم من أنّه كان يقيم في منطقة بعيدة جدّاً، سافرت إليه وأقمت في منزله يومين. رحّب بي الرجل وعائلته بحرارة وحاولوا إقناعي بأنّ كلّ شيء سوف يكون على ما يرام وأنّ البداية هي الأصعب دائماً. لكن

علـى الرغـم مـن ذلـك بقيـت مكتئبـاً جـداً. شـعرت فـي أعماقـي بانعـدام قيمـة وجـودي كانسـان، وبكثيـر مـن اليـأس وتشـتّت التفكيـر. إنّهـا تشـبه حالـة قصـوى مـن غربـة الـروح، يذكـي نارهـا إحسـاس عميـق بالضعـف وفقـدان الحيلـة. فـي الوقـت نفسـه كانـت كلّ محاولاتـي للتغلّـب علـى هـذه المشـاعر بـلا معنـى وتبـوء بالفشـل الذريـع!

"هـذان اليومـان سـيمضيان، سـواء بقيـت فـي التجمّـع أو فـي أيّ مـكان آخـر، فأنـت هنـا فـي أوروبـا لسـت أكثـر مـن مجـرّد رقـم مضـاف إلـى السجلّات. عليك أن تجد طريقك، عليك أن تلملم جـراح قلبـك، وتفكّـر. أنـت الآن فـي حالـة يرثـى لهـا، لـم أعهدك بهـا مـن قبـل. مـا الذي يجـري لك؟ هـل يليـق بـك أن تفقـد المتعـة بـكلّ هـذه الأشـياء مـن حولـك؟ هل أنـت مكتئـب أم أنّها لحظـات عابرة وسـوف تمضـي؟ أنـت لسـت بخيـر يـا صديقـي! فألمانيـا، ذلـك الخيـال الجميـل فـي الأفـق البعيـد، أصبحـت لا قيمـة لهـا عندمـا صـارت فـي متنـاول يـدك. تشـعر بانسـلاخ ذاتـك عنـك، تشـعر بانعـدام هويّتـك! تتمسّـك بهويّـة ضائعـة فـي الزحـام، تشـعر أنّـك لا شـيء كأنّـك قـادم مـن العـدم وعائـد إلـى العـدم، أنـت لسـت أنـت. افعـل شيئاً، اسـتحمّ، احلق ذقنـك، ارقـص، غنِّ، تصـرّف بجنـون، لكـن لا تبـقَ

في هذه الحالة المزرية. كنت أعتقد أنّك قويّ ومكافح، وها أنت قد غدوت أشبه بخرقة، الآن لا تستحقّ حتى شفقتي عليك، أيّها المنهزم، هيّا افعل شيئاً يا وسام!" كانت نبرة التوبيخ القادمة من أعماقي سافرة جدّاً ومريرة.

في أعماق روحي كنت قلقًا بشأن مستقبلي الغامض آخر يومين، وحاولت الاستجابة لصوتي الداخليّ الذي أمرني بالقيام بشيء، أيّ شيء، كما في مسرحية الكاتب التركي عزيز نيسين "افعل شيئاً يا مِت!" حركة قدم مِت لم تكن كافية لمنحه الاستمرار في المسير، كذلك كنت أنا. فكان لا بدّ من اتخاذ قرار حاسم. جمعت ما تبقّى من قوّتي الداخليّة وأفكاري المشتتة وأجريت عدّة محادثات مع عائلتي. ثم اتخذت قراراً غريباً لكنّه كان القرار الوحيد الذي أشعرني بالراحة في ذلك الوقت.

العودة إلى نقطة الصفر كان قراري الحاسم، العودة إلى نقطة البداية، والعودة إلى سوريا. قال لي أخي عندما ناقشت موضوع العودة مع عائلتي، "أنت تعلم أنّ جذورك هنا، فأنت واحد منّا ولا شكّ أنّك سوف تجدنا دائمًا هنا من أجلك". لم يكن بإمكان أيّ من إخوتي مساعدتي أثناء وجودي في ألمانيا، لكنّ كلماتهم جعلتني أشعر أنّني لست وحيداً، على الرغم

من أنّني كنت بالفعل كذلك.

بعد انتهاء زيارة صديقي، حزمت أغراضي، وبدلاً من أن أتّجه نحو تجمّع كارلسروواه، اتّجهت إلى مطار ديسلدورف، وقطعت تذكرة سفر إلى تركيّا. متناسياً كلّ معاناتي للوصول إلى ألمانيا، فالغريب أنّني عندما وصلت إلى هدفي شعرت أنّه غريبٌ عنّي وعن الجزء المفقود من روحي! كان ذلك نفسه عنواناً لانهزام ذاتي. لذا قرّرت السفر إلى تركيا بغية العودة إلى سوريا. اتصلت قبل صعودي إلى الطائرة بصديقي في تركيا لأخبره أنّي قادم، فكان حاله مثل حال كلّ من سمع الخبر؛ اتّهمني بالجنون، فأنا قطعت البحار وتحمّلت الصعاب للوصول إلى مكان هو حلم الكثيرين، وفجأةً ها أنا أتّخذ قراراً غريباً بالعودة!

"أنت لا تهمّك فكرة العودة بذاتها، أنت تبحث عن هويّتك الضائعة؛ عن ذاتك. تلك المشاعر لن يستطيع أحد فهمها حتى أنت نفسك. ألم تتخذ قرارك، إذاً لا تفكّر بما يريده الآخرون منك، لا تفكّر بتسويغ ما فعلت أيضاً. اغتراب الذات فيك قد يدمّرك يا صديقي، لذا فكّر بإيجابية! تذكّر لحظاتك الرائعة في العمل مع الأطفال في مركزك، تذكّر ابتسامات أولئك الأطفال التي ظلّت تمدّك بالقوة، فكّر فقط بأنّك تحتضن

طفلتك بين يديك، فأنا واثق أنّ "ناي" ستفهمك. فكّر بالتحدّيات القادمة في سوريا والتي سوف تهزمها كما فعلت دوماً" كان الصوت هذه المرّة منحازاً لي بكليّته.

ذهني المشتّت لم يسعفني لكي أتذكّر أنّني دخلت تركيا بطريقة نظاميّة، لكنني خرجت منها إلى اليونان بطريقة غير شرعيّة، وحين وصولي إلى مكتب الدخول في مطار أتاتورك، وجدوا ختم دخولي السابق إلى تركيا لكن دون ختم الخروج منها، ثمّ ختم الخروج من ديسيلدورف، احتجزوني في غرفة للانتظار فالتقيت هناك بشخص سوريّ قادم من النمسا، لم ينجح في التأقلم والتكيّف هناك فقرّر الرجوع مثلي، ولكن بعد مضي سنة ونصف على وجوده في غربته.

يعرّف الذكاء أحياناً على أنّه القدرة على التكيّف، لا أعلم ما إذا كان ينقصني الذكاء لأتكيّف في ألمانيا، أم أنّني كنت محطّماً لدرجة لا تسمح لي باستثمار ذكائي! كالعادة في سوريا وبين السوريين، يكفي أن أذكر من أيّ من المحافظات السوريّة أنا، ليعرف الآخر مباشرة إلى أيّ من الديانات والطوائف أنتمي. فلدى سؤاله لي:

- من أين أنت؟

- من السويداء
- أنت درزي[10] إذاً!
- نعم، أنا كذلك

١٠- المذهب الدرزي: تتبعه إحدى الجماعات الدينية الكبرى في بلاد الشام، مع حوالي ١,٥ مليون نسمة. يتواجد الدروز في المقام الأول في كل من سوريا، ولبنان، وفلسطين المحتلة، إلى جانب مجتمعات محلية صغيرة من الدروز في الأردن وفي المهجر خاصة في فنزويلا وبلدان امريكيا الجنوبية والولايات المتحدة. تتواجد أقدم وأكبر مجتمعات الدروز في كل من جبل لبنان وجبل الدروز. لعبت الطائفة الدرزية دورًا هامًا في تشكيل تاريخ بلاد الشام، واستمرّت في لعب دور سياسي كبير في هذه المنطقة كأقلية عرقية ودينية. تعرّض الدروزُ إلى الاضطهاد في العديد من الأحيان، إذ اعتبروا لدى علماء بعض الطوائف الإسلامية بأنهم مرتدون عن الإسلام، وبالتالي كفَّرت العديد من الفتاوى الدروزَ واعتبرتْهم مُرتدِّين عن دين الإسلام. من أبرز حملات الاضطهاد التي تَعرَّضَ لها الدروز كانت من الظاهر لإعزاز دين الله خليفة الدولة الفاطمية، حيث قام بحملة إبادة المجتمعات المحلية الدرزية والتي شملت تطهيرًا عرقيًا في كلٍّ من أنطاكية وحلب وشمال سوريا. جرت حملات أخرى مماثلة من قبل المماليك والعثمانيين؛ وفي الآونة الأخيرة قام كل من تنظيم الدولة الإسلامية أو ما يعرف بداعش وتنظيم القاعدة بحملات تطهير، في سوريا والدول المجاورة، استهدفت المعتقدات والأقليات غير المسلمة. تختلف العادات الاجتماعيَّة لدى الدروز، وتختلف بشكل ملحوظ عن تلك التي بين المسلمين فهم لا يقرون بأركان الاسلام، ولهم كتبهم الخاصة التي يطلق عليها اسم رسائل الحكمة. ويختلفون عن المسيحيين من حيث اعتبار المسيح هو الرب. لطالما اعتبرت الدرزية مذهب فلسفياً، يستند إلى المذهب الاخلاقي الاغريقي القديم، يؤمنون بفكرة التقمص والتحول التي تحدث عنها فيثاغورث، وحرية المرء في اختيار ما إذا كان يرغب بأن يكون متدينا أم لا. لكن في حال اختيار خيار الدين فهنا يجب تطبيق مجموعة كبيرة من القواعد الصارمة التي تتعلق بتطهير النفس والاقتراب به الى السمو والترفع عن كل ما هو دنيوي والتركيز فقط على الامور الروحانية والتي تشبه بشكل او باخر قاعدة افلاطون للحكماء في مدينته الفاضلة. ومن المعروف أن الدروز شكلوا مجتمعات متماسكة مغلقة لا تسمح بانضمام غير الدروز، رغم أنهم مُندمجون بشكل كامل في أوطانهم المعتمدة.

انتظرنا في تلك الغرفة ساعتين قبل أن يخبرونا أنّنا رهن الاعتقال، وسوف يمضون بنا إلى سجن خاصّ بالمطار، فتّشونا وأخذوا أغراضنا، ما عدا هواتفنا المحمولة. لم يكن ذلك السجن واسعاً، إنّه صالة فقط مع حمّامات داخلها. تفاجأت بالأشخاص الموجودين هناك، فيكفي أن تلقي نظرة واحدة عليهم لتعرف فوراً إلى أيّ جهة ينتمون. كان هناك حوالي خمسة عشر شخصاً، حملوا جميعاً نفس السمات، لحىً طويلة، وشوارب حليقة، ولباس إسلاميّ تقليديّ، مع أنّهم من جنسيّات مختلفة. في حين كنت ما أزال أحمل كثيراً من تفاصيل مظهر صديقي نيكولاي، فقد كنت أرتدي سروالاً قصيراً، وقميصاً فقط دون لباس تحته، حذاء صيفياً ممّا يدعى صندلاً، وإكسسوارات أخرى مع الحلق في أذني! كان منظري وحده يكفي هؤلاء القوم لإلصاق تهمة الكُفر بي حتى قبل أن يعرفوا إلى أيّ طائفة أنتمي!

منذ اللحظة الأولى لإغلاق باب السجن، بدؤوا الحديث معنا باللغة العربية الفصحى، لذا كان الخيار الأمثل هو اتباع المأثور: لسانك حصانك، إذا صنته صانك. فكلمة واحدة كفيلة أن تودي بي إلى التهلكة، لذلك قررت ألا أصرّح باسم المذهب الدينيّ الذي أنتمي إليه أو المدينة التي أتيت منها. سألونا:

- من أين الشباب؟

- أجبت: نحن عائدان من أوروبا

نطق الشخص الذي دخل معي:

- نعم! نحن من سوريا وسوف نعود إلى سوريا

- سأل واحد منهم بنبرة المحقّق: من أيّ منطقة في سوريا أنتما، من أيّ محافظة أقصد؟

لم أكن أريد أن أسمّي محافظتي لكن الشخص اللعين الذي دخل معي قال لهم:

- أنا من القنيطرة، وهو من السويداء.

انتفض أحدهم مزمجراً باتجاهي:

- أنت درزيّ!

فضّلت الصمت، قبل أن يكمل ذاك الشخص قائلاً: إذن أنت مرتدّ! أمامك أربع وعشرون ساعة لكي تعلن إسلامك وإلّا سيحلّ عليك القصاص، وقصاص المرتدّين هو القتل!

بسرعة البرق صرخ الصوت في خلدي: "احذر! فهؤلاء الأغبياء سوف يستحضرون الآن أشياء ربّما فعلها أجدادك بهم عبر تاريخهم الحافل الطويل لكي يحاسبوك عليها! كيف ستقنعهم أنّ الفايكينغ مثلاً، لا يمثّلون السويديين والنروجيين الآن، على الرغم من صلة الدم؟ لن تستطيع أن تقنع هؤلاء الرجال بأن تحطيم تمثال بوذا، ليس محاربة للوثنيّة، بل هو تحطيم للفنّ، تحطيم للطاقة الإنسانيّة المبدعة المجسّدة فيه. أبشرٌ هؤلاء أم أنّهم سيوف مشحوذة جاهزة للقتل؟ أم أنّهم محض جثث انمحت عقولها وغادرها الإحساس البشريّ؟ إنّهم أشبه بكائن خرافيّ لا يشتمّ إلا رائحة الموتى ليبدأ الرقص فرحاً ونشواً! اطلب المساعدة فوراً ولا تكن مغفلاً!"

في تلك اللحظة قمت من فوري وسارعت بالطرق على الباب الحديديّ بكلّ قوّتي صارخاً: ساعدوني! جاء مأمور السجن وسألني ماذا أريد، فأخبرته بالإنجليزية أنّهم يهدّدونني بالقتل إذا لم أدخل الإسلام. فتحدّث معهم بالتركيّة ولم أفهم الحوار الذي دار بينهم حينها، لكنّه في النهاية طلب منّي أن أجلس قريباً من الباب، حيث يوجد زرّ يمكنني الضغط عليه في حال قام أحدهم بالتعرّض لي!

كان الرعب هو سيّد الموقف، تخيّلت للوهلة الأولى أنّني صنعت قدراً لي يتلخّص بالهروب من الموت في سوريا، لألقى حتفي هنا! فأنا أعلم تماماً ما يقدر على فعله هؤلاء الأشخاص، خاصّة حين عرفت أنّهم كانوا في طريقهم إلى الجهاد في سوريا لكنّ السلطات التركيّة أوقفتهم في المطار لسبب ما، إنّني أعرف معتقدهم جيّداً، فهم عندما يحظون بقطع رأس إنسان يعتبرونه كافراً أو ملحداً إنّما يربحون بطاقة عبور لتلك الجنّات الموعودة. كان بينهم الأوزباكستانيّ، والأذربيجانيّ، والأفغانيّ، وكان بينهم سوريّون من مناطق عُرف عنها التشدّد والتعصّب المذهبيّ والطائفيّ. ظلّوا يسمعونني تعليقاتهم عن طائفتي طوال الوقت، لكن المفارقة حدثت عندما بدأ أحدهم يشعل سيجارة، فقلت له من مكاني ذاك:

- هل تسمح لي بسيجارة؟

- فردّ: إذا دفعت ١٠ يورو يمكنك الحصول على واحدة.

وددت لو أقول بأعلى صوتي: أيّ إله تعبدون وتزهقون الأرواح من أجله! وأنتم تبيحون ما تحرّمون بغية القصاص ممّن لا يشبهونكم، وتلقون بجهلكم على دينكم البريء منكم وهو دين التسامح والإنسانية!

لكنّـي، طبعـاً، لـم أمتلـك الجـرأة لقـول ذلـك، فأنـا علـى تمـام اليقيـن أنّـي قـرأت فـي القـرآن الكريـم أكثـر ممـا فعلـوا، وفهمـت الأحاديـث النبويّـة الشـريفة بتمعّـن أكثـر ممـا فعلـوا.

فكّـرت فـي تلـك اللحظـة هـل يمكـن لمعلوماتـي تلـك أن تنجينـي، رحـت أشـقّ الحديـث معهـم وأحاورهم مستشـهداً ببعـض آيـات مـن القـرآن الكريـم والسـنّة النبويّة الشـريفة، فتملّكتهـم الدهشـة جميعـاً.

هنـا، شـعرت نوعـاً مـا بـأنّ الرعـب فـي داخلـي بـدأ يتلاشـى. سـألني أحدهـم، وهـو سـوريّ الجنسـية:

- كيـف تسـنّى لـك أن تعلـم كلّ هـذا، كيـف قـرأت القرآن، وكيف حفظته؟

- أجبـت: أنـا لا أحفـظ القـرآن كامـلاً، كلّ مـا أحفظـه هو آيات قليلة إضافة إلى قصار السور.

دعانـي للصـلاة معهـم، وطلـب منـي أن أسـتر جسـدي لأنّ سـرّتي ظاهـرة، وتلـك عـورة، كمـا أنّ بنطالـي القصيـر أعلـى مـن مسـتوى الركبـة وهـي عـورة أيضـاً، فعـورة الرجـل مـا بيـن السـرّة والركبـة.

- قلـت: لقـد كنـت فـي أوروبّـا، ذهبـت إلـى هنـاك

عن طريق مهرّب طلب مني أن أرتدي ملابس كالأوروبيين لئلّا يفتضح أمري، وأنا لا ألبس هذه الملابس عادة لأنّني شخص محافظ.

- أجاب: فضّلت الذهاب إلى أوروبّا بدلاً من الجهاد في سبيل الله، ويحك!

استطالت الأحاديث معهم، وهم يصوّبون نحوي نظراتهم الناريّة التي كانت تقطر حقداً وسمّ كراهية، فكنت حذراً جداً قبل أيّ تصرفٍ أو قبل النطق بأيّ كلمة. لم يدم الأمر طويلاً، وبعد ليلة لم يغمض لي فيها جفن، قضيتها ساهراً أتواصل عبر النت مع صديقي الذي كان ينتظرني خارج أبواب المطار، ومع أفراد أسرتي لأشرح لهم ما حدث. في الساعة الثالثة فجراً، جاء مأمور السجن، ونادى عليّ:

- وسام، أحضر أغراضك، ستعود من حيث أتيت، ستعود إلى ديسيلدورف!

قام رجال الشرطة التركيّة ببعض الإجراءات الرسميّة، تضمّنت منعي من الدخول إلى تركيا ومقاضاتي بتهمة السفر غير الشرعيّ، وتغريمي بمبلغ ٢٠٠٠ ليرة تركيّة. أردت أن أصرخ: إنّ جريمتنا الحقيقيّة هي أنّنا ليس لنا وطن! لكنّي أعلم أن لا أحد يكترث، لا

بـي ولا بوطنـي مهمـا عـلا صراخـي، فـالآن أنـا مجـرم بنظـر القضـاء التركـيّ، وأوراقـي تثبـت أنّـي غـادرت تركيّـا بطريقـة غيـر شـرعيّة بـلا أدنـى شـكّ.

أجلسوني فـي الكرسـيّ الأخير فـي الطائرة وسلّموا جواز سـفري وأوراقـي الثبوتيّـة إلـى أحـد مضيفـي الطائـرة، علـى أن يسلّمها للشـرطة الألمانيـة، عنـد وصولـي. لـم يكـن برفقتـي غيـر هاجـس روحـي الـذي لاحـظ انهيـاري وحـاول أن يشـدّ مـن أزري بطـرح رزمـة كاملـة مـن أسئلته المزعجـة، إلـى درجـة أنّنـي تمنّيـت لـو أنّ رجـال الشـرطة التركيّـة احتجـزوه لديهـم، وأراحونـي منـه!

(2)

"لمـاذا تصـبّ جـام غضبـك علـيّ، وأنـا الأقـرب إليـك منـك الآن؟! توقّـف عـن تأنيبـي يـا صديقـي، فـلا ذنـب لـي بخيبتـك هنـا وخذلانـك هنـاك، فانـا بـريءٌ مـن سماسـرة الحـرب فـي بـلادك، وبـريءٌ مـن ملامـح القيـد المصكوك علـى ذاتـك المتعطّشـة للإبـداع والتحليـق، وبـريءٌ مـن القـادة الذيـن ظلّـوا جاثميـن علـى الهويّـة حتّـى أفرغوهـا مـن جذورهـا الضاربـة فـي التاريـخ، وأثقلوهـا بالرُّتـب والشـعارات والوهـن. عليـك أن تعـرف أنّنـا توءمـان، كمـا ابنـيّ الشـمس فـي الأسـطورة.

تعانقنا في رحم الشمس حتى نجونا، وتقاسمنا غذاءنا الذي نهلناه من جسدٍ واحد، كان علينا أن نفترق عند الولادة مثلما كان علينا أن نلتقي ليكتمل الحلم بنا، سيجري في عروقه دمك، ويسري في تعبه احتمالي وسكينتي، أنت ستعلّمه كيف يألف الأماكن والناس وأنا أعلّمه التأمّل حتى يجد الطريق الأصلح للنجاة والوصول، ستعلّمه أنت التمرّد والإقدام، وأعلّمه أنا ألّا يتوه في زحمة الأحلام، وكيف يعبر دون أن ينفي سواه. لا تُلقِ باللوم عليّ، أنا ذاتك أيّها الصغير. لا يمكنك قتل نفسك بهذا الشكل، فكلّ قضية تستدعي تشويه الذات أو قتلها ليست إلّا هاوية بعيدة الغور. علينا الآن أن نقبل بالقدر ضيفاً ثقيلاً، ليس باستطاعتنا منعه من القدوم، فقط يمكننا أن نمكر به فنتركه منشغلاً يحتفل بانتصاره، ونمضي دونه من جديد.“

كانت نبرة هاجسي أشبه بمرافعة بليغة دفاعاً عن كلينا، وللغرابة فأنا القاضي الذي يجلس تحت قوس المحكمة، وعليه إصدار الحكم!

تماماً كطرد بريديّ، أعادوني إلى العنوان الذي أتيت منه، إلى ديسيلدورف وسلّموني مباشرة للشرطة هناك، حتّى أنّي لم أستطع الحصول على حقيبة ملابسي،

ولـم يُسـمح لـي بالذهـاب لإحضارهـا، فلـم يبـقَ معـي إلّا حقيبـة أوراقـي فقـط، وفيهـا ملـفّ يحمـل شـهاداتي.

بـدأتْ تحقيقـات شـرطة المطـار معـي فـور وصولـي إلـى ديسـيلدورف، وعندمـا فتّشـوا أوراقـي وشـهاداتي بمـا فيهـا شـهادة الدكتـوراه وجـدوا أنّهـا قـد تُرجمـت مسـبقاً إلـى الألمانيّـة، وبهـذا كانـوا قادريـن علـى قـراءة كافّـة معلوماتـي بالألمانيّـة فسـألوني:

- هل تجيد الألمانيّة؟

- لا، أنا فقط أعرف منها بعض الكلمات.

- لكـنّ كافّـة أوراقـك وشـهاداتك باللغـة الألمانيّـة، كيف تفسّر ذلك؟

- هذه ليست أوراقي!

حاولـوا أخـذ جـواز سـفري وبطاقتـي الشـخصيّة منّـي، لكنّ كرهـي لـكلّ مـا حولـي تلـك اللحظـة جعلنـي متوتّـراً حـدّ التهـوّر! كنـت أمقـت ألمانيـا ونفسـي وإعادتـي إلـى ألمانيـا قسـراً بعـد أن هربـت منهـا، فقلـت لهـم:

- لا أريد أن أبقى في ألمانيا

- إلى أين تريد أن تذهب؟

- أريد العودة إلى وطني، إلى سوريا

- لن نعيد أحداً إلى وطن تشتعل فيه الحرب.

ثم راحوا يستبسلون بإقناعي بأنّ ألمانيا جنّة الدنيا على الأرض!

لكنّ إجابتي كانت واضحة لا لبس فيها:

- هي جنّة في أعينكم، بينما هي ليست أقلّ من جهنم في عينيّ!

- قالوا: نأسف، ليس لديك خيار آخر!

خلال فترة احتجازي في المطار، وصفتني الشرطيّة التي حقّقت معي بأنّي عنيد جدّاً "sher stur". كانت الجملة من محفوظاتي في دروس اللغة الألمانيّة في سوريا. وبدت تلك الشرطيّة متعاطفة معي بشكل واضح، لكنّني كنت اندفاعيّاً جدّاً، بل عدوانيّاً، وقد أثار أقصى دهشتهم جميعاً أنّهم وجدوا في حقيبتي كتاباً لتعلّم الألمانية بمستوى B1، وهو المستوى المطلوب من اللاجئين الوصول إليه أثناء تعلّمهم الألمانيّة. فقالوا لي:

"ما دمتَ وصلت إلى هذا المستوى المتقدّم من تعلّم

الألمانيـة، وكمـا نـرى أنّـك قمـت بترجمـة معظـم الكلمـات فــي هــذا الكتــاب، واســمك مــدوّن عليــه، فلمــاذا تريــد الرحيـل؟"

أنكـرت أنّ الكتــاب لــي، كنــوع مــن الحماقــة ربّمــا، والأصحّ كتصرّف لشخص مـأزوم نافـر مـن كلّ شـيء. وضعونــي وحـدي فـي إحـدى الغـرف لسـاعات طويلـة، حيث كانـت أفكاري تتخبّط داخـل رأسـي المتعـب. كنـت محطّمـاً، منهـكاً، ضائعـاً، تائهـاً بـلا هـدف. حاولـوا مـرّة أخـرى الحصـول علـى أجوبـة منّـي، لكنّـي لـم أسـتجب. بعـد ذلـك قـرّروا إرسـالي إلـى المنطقـة التــي وُجـدَت بصماتــي الجنائيّــة فيهـا، إلـى شـتوتغارت. وبعـد جـدل طويـل، سـمحوا لـي أن أحتفظ ببطاقتـي الشـخصيّة، بينمـا أبقـوا جـواز سـفري معهـم، ويبـدو أنّهـم اقتنعـوا بحجّتـي الدامغـة:

"يكفيكم الاحتفاظ بواحدة فقط من أوراقي الرسميّة!"

أرسـلوني إلـى شـتوتغارت مـرّة أخـرى، فالتقيـت بالمحقّق نفسـه الـذي عرفتـه سـابقاً. اسـتقبلني بطريقة وديّـة ولطيفة جـدّاً، ثـم طلـب منّـي أن أقـدّم طلـب لجـوء إلـى ألمانيـا، قائـلاً: ثـق بأنّـه سـوف يكـون لـك مسـتقبل جيّـد جـدّاً فـي هـذا البلـد. خاصّـة بعدمـا اكتشـف أنّـي كنـت قـد تقدّمـت بطلـب لإكمـال دراسـتي فـي ألمانيـا عبـر سـفارتهم فـي بيـروت، وأنّـه قـد تـمّ رفضـه مـن قبـل. وسـبب الاكتشـاف

أنّ بصماتي كانت ما تزال لدى السفارة الألمانيّة في بيروت، فبدأ يسألني عن هذا الأمر حتى اعترفت له أخيراً:

- نعم، كنت أطمح في الحصول على خروج نظاميّ من سوريا لأدرس في ألمانيا، لكنّهم رفضوا لأنّني كنت قد نلت شهادة الدكتوراه في سوريا، فما الذي سأدرسه في جامعات ألمانيا إذاً؟ تلك كان أسبابهم للرفض.

وصل تعاطف المحقّق معي درجة كبيرة، فأرسل شخصاً ليرافقني في نفس اليوم من "كارلسروه" إلى منطقة تدعى "هايدلبرغ Heidelberg"، في ولاية بادن-فورتمبيرغ، وهي مدينة تُعتبر من أجمل المدن الألمانيّة، يجتازها نهر نيكار قبل أن يكمل مساره ويصبّ في مانهايم ليضفي عليها سحراً خاصّاً، ويكفيها شهرة قبل كلّ شيء أنّها تضمّ جامعة روبريخت كارل (Ruprecht Karl Universität). كان الوضع جيّداً جدّاً في ذلك التجمّع هناك، لكنّني كنت ما أزال أحسّ أنّني مهزوم من الداخل وكاره لكلّ شيء حولي، إلى درجة أنّني كنت حبيس فكرة واحدة فقط، هي الطريقة المثلى للهرب من ألمانيا. في مجمّع هايدلبرغ سلّموني حقيبة تحتوي فرشة للسرير وملاءة ومخدّة وبعض المناشف وفرشاة

للأسنان وصابونة وما إلى ذلك، لأدخل مهجعاً فيه آلاف الأشخاص لكلّ منهم سرير، حيث كانت الأسرّة تتراصف فوق بعضها بعضاً.

"يغلبك يأسك، وتأسرك أفكارك، كسجين في معتقل. بارد هو دمك في عروقك، وذابلة أزهار وجنتيك. لا يغرق المرء لأنّه سقط في النهر يا صديقي، بل لبقائه مغموراً تحت سطح الماء. ولا يصل الناس إلى حديقة النجاح، دون أن يمرّوا بمحطّات التعب والفشل واليأس، وحده صاحب الإرادة القويّة لا يطيل المكوث في هذه المحطّات. عهدتك صاحب إرادة، فكم مرّة كنت ذلك الشخص الذي إذا طاش سهمه لا يفكّر بسبب الخطأ، ولكنّه يسحب السّهم الثّاني من كنانته العامرة ويفكّر كيف سيطلقه بطريقةٍ صحيحة ليصيب الهدف. سقوطك ليس فشلاً، ولكنّ الفشل أن تبقى حيث سقطت. تأكّد أنّ السقوط هذه المرّة لم يكن دليلاً على فشلك، فسقوط تفاحة نيوتن فتحت لنا الأبواب لاكتشاف علم جديد. وأنت الآن يا صديقي ستهزم حزنك، تنسى الفراشة غالباً أنّها كانت شرنقة، أمّا أنت فلن تنسى! كم من مرّة انكسرت ثم نهضت من جديد. حين أحدّق فيك أرى مدناً ضائعة، أرى زمناً قرمزيّاً مدمّى، أرى أسباباً شتّى للموت،

لكنّي أرى أيضاً لغة وكلاماً لم يُقل بعد. انهض من جديد فحربك لم تنتهِ بعد! انهض وخُطَّ حروف لغتك بالطريقة التي تشاء! اذهب إلى أيّ مكان، وهناك افعل ما تشاء، لكن كن أنت، كن بطلي الذي عهدتك دائماً!" انبرى الصوت صاعداً، يملأ حناياي بالإطراء والثقة معاً.

الآن لم يعد بإمكاني العودة إلى سوريا، فوطني أصبح محرّماً عليّ، ولا يمكنني الدخول إلى تركيا، لأنّني مهاجر غير شرعيّ. فلم يتبقّ لي خيارات أخرى أسير في دروبها سوى البقاء في ألمانيا، وما دمت الآن موجوداً فيها فهي الآن وطني على مضض، رغم أنّني لم أنكر شعوري بالامتنان لأنّ ألمانيا تستقبل القادمين إليها من أربعة أركان الأرض، وتزوّدهم بالحاجيّات الأساسيّة قبل أن يتمّ فرزهم إلى مختلف المناطق، لكنّي لم أستطع أن أنزع من رأسي فكرة الرحيل عنها.

تزدحم الأسئلة، لا تهدأ ولا يقرّ لها قرار؛ إلى أين، إلى أين أذهب، إلى أين سيكون المسير؟ فكّرت أن أصعد إلى أحد القطارات دون معرفة وجهة سيره، ليحملني إلى أيّ مكان، أيّ بلد، بعيداً عن ألمانيا. فلم تبرح عقلي فكرةُ أنّ ألمانيا كانت بالنسبة إليّ حلماً كبيراً لكنّه انفرط وتلاشى ولم يعد تجميع أجزائه ممكناً.

بعد كلّ المداولات والكرّ والفرّ، قرّرت الرحيل في اليوم التالي.

التقيت في ذاك اليوم شخصاً في التجمّع من نفس مدينتي -السويداء- وكان مستاءً مثلي، لكنه لم يكن يملك ما يكفي من المال ليغادر إلى أيّ مكان. فأسرع صوت ضميري يزجي إليّ نصحه الكريم:

"هي فرصتك إذاً فاغتنمها، لعلّك تشعر بالرضا عن ذاتك عندما ترى الآخرين يسعدون بمدّ يد العون إليهم لتنقذهم من المغاصة التي غرقوا في وحولها، هيا لملم انكساراتك واقتنص الفرصة!"

همست له:

- ما رأيك أن نرحل معاً، أنا سأتكفّل بالنفقات الماليّة، سوف أقرضك النقود، ويمكنك السداد لاحقاً.

وبالفعل، فقد تمّ الاتفاق.

غادرنا التجمّع في الصباح الباكر متّجهَين إلى ديسيلدروف، المدينة الجميلة في الذاكرة وحسب، أقمنا

في نفس الفندق الذي نزلت فيه في المرّة السابقة، استحممنا وحلقنا ونظّفنا ملابسنا، استعداداً للذهاب في رحلة شاسعة. وبالقطارات رحنا نجوب مدناً عديدة وبلداناً كثيرة، من ألمانيا إلى الدنمارك، إلى السويد. كان رفيقي في الرحلة مرتعباً معظم الوقت، لكنّي كنت في منتهى الهدوء.

كلّما انشغلت أفكاري باتّجاه ما، كان الصوت يسرع ليدلي بدلوه في سياق الأحداث، وكانت موعظته هذا اليوم:

"لا تخشَ أن يوقفك رجل شرطة أو رجل أمن، فرعبك الداخلي أكبر من أيّ خوف قد يجلبه إليك البوليس. ممَّ تخاف؟ ماذا سيفعلون لك، سيعتقلونك؟ سيضعونك في زنزانة انفراديّة؟ أنت أصلاً في زنزانة انفراديّة رغم اتّساع ألمانيا ورغم ازدحام شوارعها ورغم صخب الناس من حولك، لكنّك قررت أن تظلّ حبيس سجنك الخاصّ!"

مضت الرحلة، بالرغم من مصادفتنا بعض المفتّشين في القطارات، لكنّ كلّ ما كان يعنيهم هو هل التأكّد من حيازة تذكرة الركوب في القطار لا غير. حين وصلنا إلى الدنمارك، بدأنا نفكّر كيف يمكننا الوصول

إلى السويد. اقتربت من أحد ضباط الشرطة في محطّة كوبنهاغن وأخبرته أنّي قادم من ألمانيا وأريد التوجّه إلى السويد، لكني لا أعرف أيّ رصيف يجب أن أقصد لأستقلّ القطار إلى هناك، فأشار بيده قائلاً:

- هذا القطار هنا!

كان رفيق سفري قد اختبأ في مكان ما حذراً من الشرطة، أمّا أنا فقد كنت واثقاً أنّ رجال الشرطة لن يشكّوا بأمر من يتصرّف بمثل هذه الثقة العالية في النفس فيأتي إليهم بقدميه ليستفسر منهم. رافقني الشرطيّ إلى محطّتي، فشكرته ومضى وأنا ألوّح لرفيقي بيدي كي يخرج من مخبئه ويلتحق بي!

حملَنا القطار إلى دولة جديدة؛ إلى السويد.

ها هو قدري يقودني إلى دولة لا أعلم عنها أكثر من أشياء بسيطة مثل، أشهر لاعب كرة قدم فيها، زلاتان ابراهيموفيتش، حفظت اسمه لأنّني معجب بطريقته في اللعب. كما كنت أعلم أنّ السويد متطوّرة في مجال التجهيزات الطبيّة، إضافة إلى بعض المعلومات عن تاريخ الفايكينغ وآلهتهم. في القطار تذكّرت ما تنبّأ لي به أحد العرّافين في سوريا عندما قرأ طالعي وأخبرته أنّي أنوي الذهاب إلى ألمانيا، فقال على الفور:

”أنـا لا أراك فـي ألمانيـا، أنـا أراك فـي دولـة يبـدأ اسـمها بحـرف السـين، وسـوف ترفـل فـي نعيـم العيـش هنـاك!“

لـم أصدّقـه حينهـا طبعـاً، كنـت سـاخراً تماماً لعـدم اقتناعي بنبـوءات المنجّميـن حتمـاً، لكنّنـي الآن فـي القطـار، متجهاً إلـى مدينـة (مالمـو) فـي السـويد، وقريبـاً سـأحطّ رحالـي هنـاك بشـكل نهائـيّ، ولـم تكـن المسـافة بيـن (كوبنهاغـن) و(مالمـو) أكثـر مـن مسـير أربعيـن دقيقـة بالقطـار.

مـرور كلام المنجّـم فـي ذاكرتـي عـن دولـة يبـدأ اسـمها بحـرف السـين جعلنـي أشـعر بهبّـة مـن الطمأنينـة، فابتسـمت متعلّقـاً بذلـك الوهـم الـذي اسـتحضرته ذاكرتـي حيـن بـدأ يرتـدي لبـاس الواقـع!

*****

الوطن الجديد

جالساً وحيداً كقمر منطفئ في المدى البعيد

يختلس نظرة إلى النجوم المتراقصة من حوله

يعتريه حنينُ عاشق صوفيّ للسماء

بعيد أنت الآن

كبعدٍ ثالث في هندسة فراغيّة

ينتظر خيال طالب مجتهد

بعيد أنت

كبعد جسد الحبيبة عني

كبرد سرير في ليلٍ طويل يخرّش صدري

آهٍ يا وطني!

بين ماضٍ لم يبقَ منه سوى الذكرى

وحاضر يستفزّ قواي للتكيّف

حتى في مُرّك أنتَ حلو!

الشعور هنا يجفّ حتى دون ريح

ويقشعرّ الجسد دون شتاء

آهٍ يا وطني!

كعندليب دون صداح هو طفلك

لا شيء يقضّ مضجعي في غيابك سوى غيابك

آهٍ أيّتها الأم!

لم تعد خطوات طفلك الصغير كافية الآن لتعلّم المشي

فقواعد المشي قد اختلفت

والترنّح هو دربه

لم يعد صوت فيروز يعد بصباح يوم جديد

لم تعد الشمس تشرق كعادتها في السادسة صباحاً لتطلق للعصافير العنان

لم يعد أيّ شيء كما كان

حتّى العودة تعجز عن كسر جدار الصمت فيك

أما زلت تعرف جذورك؟

أم أنّها هي الأخرى نفتك بعيداً؟

غريبة هي مشاعرك

لصعوبة إدراك أبعادها

غريبة هي كغربة ملحد في قدّاس

ومنفيٌّ أنت

في أبعاد روحك

ها أنت الآن

تسير مكابراً على جرحك المنسيّ

تعيش أيامك متظاهراً بالسعادة

كمراهق يتلذّذ بارتكاب المحرّمات سرّاً

كمنجّم يقرأ طالعاً غير مفهوم

كسفير يحمل أنشودة سلام

جالساً على الدرج الخشبيّ

المنحدر نحو الغابة المحاذية للبحر

محاولاً تذكّر أساليب العوم واقتفاء الأثر

مفكّراً بحمامة سلام

ها أنت هنا وحدك!

(1)

وصلنا إلى مالمو، المدينة السويديّة التي لم أكن أعرف عنها أيّ شيء. وعند وصولنا إلى محطّة القطارات، سألت أحد سائقي سيارات الأجرة الذي كان يتحدّث العربيّة مع مجموعة من الشباب عن المكان الذي يجب أن أذهب إليه كلاجئ لأسلّم نفسي. فقال لي: اصعد، سآخذك إلى هناك. انطلقنا، فإذا نحن في فندق جميل جدّاً، كان مخصّصاً لاستقبال اللاجئين. فندق يتكوّن من عدّة أقسام مع حديقة داخليّة. قلت للسائق: هل تمزح معي، أهذا مكان مخصّص للاجئين حقّاً؟! كنت أقارن المكان بتجمّع كارلسرواه، أجابني ضاحكاً: مرحباً بك في السويد!

دخلنا إلى الفندق وأخبرناهم أنّنا قد وصلنا للتوّ، فاستقبلونا وطلبوا أوراقنا الثبوتيّة، ومن ثم أرشدونا إلى غرفتنا حيث كان في تلك الغرفة ثلاثة أشخاص سوانا. لكلّ واحد منهم سريره الخاصّ ومجموعة من الحاجيات التي توزّع على اللاجئين لدى وصولهم، كالشراشف والمناشف وأدوات العناية الشخصيّة. طلبوا منّا أن نرتاح في ذلك اليوم على أنّهم في اليوم التالي سيأخذوننا إلى دائرة الهجرة للتقدّم بطلب اللجوء.

الغمامة التي كانت تُنيخ على صدري قد تبخّرت، فشعرت بارتياح عميق. أثناء رحلتنا بالسيّارة

من محطّة القطار إلى الفندق بالكاد رأيت بعض الأشخاص، فقد بدت مالمو مدينة هادئة جدّاً تكاد تخلو من السكّان.

"اليوم هو الـ ٣٠ من شهر يوليو/تموز من عام ٢٠١٥، فقد مضى ما يقارب الشهر على مغادرتك سوريا، وأنت الآن في بلد جديد لم تكن قد خطّطت للذهاب إليه عندما فكّرت بالهجرة. يوماً ما ستلتقي بطفلتك هنا، وتلاعبها هنا، ألم أقل لك أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام! أكاد أشتمّ رائحة الزنبق الذي بدأ يزهر في قلبك، ابتسم فأنت تستحقّ ذلك!" شاركني الصوت فرحة روحي جهراً.

كان هناك مجموعات كبيرة من الشبّان والعائلات في ذلك الفندق، فرحت أحادث بعضهم، أسألهم ويسألونني، وكلٌّ يروي قصّته. تلك القصص التي كان بوسعها أن تبكيك حين تنطق بمعاناة الطريق الشاقّ والرحلة المفعمة بصور الموت والفقدان والخوف والقهر، وبوسعها أن تمسح تعبك بمنديل من نور حين تنطق بالأمل المنتشر برغبة هؤلاء الشباب في العيش والتحدّي. جعلتني تلك القصص أفكّر مليّاً وأحمد الله على ما كنت فيه، حيث كان هيّناً رغم كلّ شيء. لذلك خجلت أن أروي قصّتي فاختصرتها بأنّني أتيت

مـن سـوريا إلـى ألمانيـا، ولكننـي لـم أحبّهـا فاختـرت القـدوم إلـى السـويد.

فـي اليـوم التالـي، فـي السـابعة صباحـاً أقلّتنـا حافـلات حديثـة جـدّاً إلـى مقـرّ دائـرة الهجـرة، حيـث قسّـمونا إلـى مجموعـات وبـدؤوا يسـتدعوننا الواحـد تلـو الآخـر، فتُطـرح علينـا عـدّة أسـئلة روتينيـة:

"مـن أنـت؟ مـن أي بلـد؟ لمـاذا أتيـت إلـى هنـا؟ كيـف أتيـت؟ أيـن كنـت قبـل أن تأتـي؟ هـل تريـد أن تتقـدّم بطلـب لجـوء فـي السـويد؟ هـل لديـك بصمـة[١١] فـي أيّ دولـة أوروبيّـة أخـرى؟ أيـن جـواز سـفرك؟"

أجبتهـم عـن كلّ سـؤال بالتفصيـل وبمنتهـى الصـدق، فأخـذوا بصماتـي والتقطـوا لـي صـورة فوتوغرافيّـة لكـي يسـتكملوا طلـب اللجـوء. أوعـز موظـف الهجـرة لنـا أن نعـود إلـى الفنـدق الـذي كنّـا فيـه حيـث سيقومون فـي اليـوم التالـي بفرزنـا إلـى مناطـق لجـوء متعـدّدة فـي السـويد. وهـذا مـا حصـل فعـلاً، وقـد كان نصيبـي قريـة تدعـى "فيـور" فـي محافظـة تدعـى "كارلسـكرونا".

كان مخيّـم اللاجئيـن فـي فيـور، الواقعـة فـي الجـزء الشـماليّ من بلديّـة كارلسـكرونا، يُعـرف قديمـاً بمصحـة بليكينغـا، ثـمّ تحـوّل بعـد إغلاقـه إلـى مخيّـم للاجئيـن. لـم

١١- وفقاً لاتفاقية شينغن بين الدول الأوروبية، فإن اللاجئ عليه البقاء في الدولة الأولى التي بصم فيها، أو بالأصح التي قدم طلب لجوء فيها، أو سافر إليها عبر تأشيرة دخول.

يكـن ممتعـاً علـى الإطـلاق معرفـة ذلـك، علـى الرغـم مـن التاريـخ المثيـر للاهتمـام وراء ذاك المـكان.

بعـد مـا يقـارب ثـلاث سـاعات ونصـف مـن السـفر بالحافلـة، وصلنـا إلـى قريـة صغيـرة لا يتجـاوز عـدد سـكانها مئتـي شـخص إنّهـا "فيـور". يتربّـع مجمّـع اللاجئيـن فيهـا على سـهل أخضر منبسـط لا تزيد مسـاحته عـن دونـم واحـد، يطـلّ علـى بحيـرة جميلـة هـي جـزء مـن مشـهد طبيعـيّ خـلّاب، صُمّـم المجمّـع ليشـمل بنـاء بطابـق واحـد، مؤلّفـاً مـن عـدّة غـرف اصطفّـت علـى شـكل حـرف U، تتوسـطه حديقـة داخليّـة مطلّـة علـى البحيـرة القريبـة، إضافـة إلـى بنـاء آخـر كان يسـتخدم مطعمـاً لتقديـم الوجبـات الثـلاث فـي اليـوم.

توزّعنـا علـى الغـرف أربعـة أشـخاص فـي كلّ غرفـة، وكان لنـا حريّـة اختيـار الشـركاء فـي السـكن. كانـت السـويد مقارنـة بالبلـدان التـي زرتهـا هـي الأكثـر تنظيمـاً لشـؤون اللاجئيـن، فلـم يكـن يصعـب علـى أحد منّـا معرفة التعليمـات الواجـب اتباعهـا بوجـود المترجـم والمشـرفين علـى التجمّـع.

سـألناهم: مـا الـذي ينتظرنـا تاليـاً؟ فأجابونا أنّ علينـا البقاء فـي المجمـع إن أردنـا، حتـى تصـدر أوراق إقاماتنـا، وربّمـا يسـتغرق الأمـر عامـاً كامـلاً.

”أهلا بك في البيروقراطية الأوروبية!“ جاءني الصوت موجزاً ولاذعاً معاً

*****

(2)

بدا جمال ذاك المكان المندغم مع الطبيعة كاندغام الروح بالجسد، يذكّرك بعشتار، إلهة الحبّ والجمال والتضحية في حضارات بلاد الرافدين. ذاك الجمال الذي يحمل في طيّاته الألم مثلما يحمل الرقص على الورود، إنّه ذاك الجمال الذي وصفه جلجامش في ملحمته الشهيرة:

”ما أنتِ إلا مَوقد سرعان ما تخمد ناره في البرد، أنتِ باب لا ينفع في صدِّ ريح عاصفة، أنتِ قصرٌ يتحطّم داخله الأبطال، أنتِ بئر تبتلع غطاءها، أنت حفنةُ قيرٍ تلوّث حاملَها، أنت قربةُ ماء تبلِّل صاحبها، أنت حذاء يقرص قدم منتعله“

على الرغم من أنّ المكان كان كفيلاً بأن يحمل الراحة، لمحارب عاد لتوّه من المعركة، لكنّه بدا تماماً مثل عشتار التي اعتادت أن تدور بين عالم البشر بحثاً عن الضحايا، وتعدهم بالزواج حتى إذا ما أخذت أعزّ

ما يملكون؛ قلوبَهم الوالهة، تركتهم وهم يبكونها ليلاً ونهاراً. ففي ذاك المكان الجميل الصامت، إن لم يكن لدى المرء اتصال بالطبيعة بشكل ما، فلن يتمكّن من التأقلم أبداً.

الطبيعة هنا تنبض بالحياة، تكاد تنطق، الأمر الذي لم أعتده كثيراً في بلدي، رغم جمال الطبيعة هناك، والسبب أنّنا لم نعتد التوحّد مع الطبيعة. هذا عدا عن أنّ معظم مدن الوطن تضجّ بالازدحام والنشاط والصخب، وانتشار كثير من المطاعم والمقاهي التي يمكن للأشخاص أن يرتادوها للتسلية وقتل الوقت. هذا الأمر غير موجود هنا، لذا كان عليَّ التكيّف مرّتين؛ مع الأشخاص الذين يشاركونني الغرفة، والذين جاؤوا من محافظات عدّة في بلدي سوريا، ومع عناصر الطبيعة الساحرة من حولي.

حاولت وضع خطّة لاستثمار الوقت الطويل، بعد أن قيّدني الانتظار هناك في معبرٍ واحد يمتدّ بين حنيني لطفلتي، وخوفي على أهلي في بلدٍ تخضّبت ربوعه بدم أبنائه.

"المستقبل أمامك مجهول، أنت الآن في مكان لا تعرف لغته ولا تعرف عنه شيئاً، ولا تعرف أحداً فيه. لا أحد يمكنه أن يعطيك إجابات تتعلّق بمستقبلك ومصيرك هنا. عليك الحذر من

الضياع في جمال هذا المكان. عليك التخطيط لكلّ خطوة ستقوم بها، لا يمكنك الاعتماد إلّا على نفسك هنا. في سوريا حتى الحيطان تساعدك عدا عن الأشخاص. ثق بقدراتك، قم بتنقية ذهنك وحاول ترتيب أفكارك من جديد، وابحث عن هدف جديد، فأنت الآن في مكان جديد، ووطن جديد، لكن بلا هدف." رزمة أخرى من المواعظ نطق بها صوت وعيي، جلّها تحذير وتنبيه من الأيام الغامضة القادمة!

كان الملل الذي بدأ يسيطر على ذاك المكان كفيلاً باستجداء الذكريات واسترجاعها، وكأنّي وضعت ذكرياتي في حقيبة ظهري، وأرسلتها عن كفّ قلبي أمام ناظريّ، هذه المرّة تذكّرت معهدي في سوريا، وتذكّرت الظروف الصعبة التي تواجه الأطفال وطاقم المدرّسين في ظلّ حربٍ تفترس الحلم والحقيقة معاً، لكنّها لم تستطع أن تقتل إرادة الحياة أو تنال من عزيمة وإصرار كثير من الناس أن يتحدّوا الموت المتربّص بهم كلّ لحظة. كان عدد من الطلاب الملتحقين بالمعهد يأتون من مناطق في ريف دمشق تسمى الغوطة[١٢]، والتي كانت تشتعل فيها نيران الحرب. وكثيراً ما

١٢- غوطة دمشق: منطقة تحيط بدمشق وريفها، عبارة عن سهل ممتد من البساتين، وتعد من أخصب بقاع العالم، وتنقسم إلى قسمين متصلين هما: الغوطة الشرقية (مركزها مدينة دوما وتضم عدة مدن وقرى وبلدات مثل عربين وحرستا) والغوطة الغربية (وتضم مدناً وبلدات مثل الربوة وصحنايا والأشرفية)

كان يحدث أن يأتي الأطفال صباحاً بحافلة المعهد أو مع ذويهم، ثمّ ينقطع الطريق فجأة نتيجة الاشتباكات أو يتمّ حصار بلداتهم قبل موعد انتهاء الدوام الساعة الثانية بعد الظهر. في هذه الظروف كان عليّ أن أستقلّ حافلة المعهد، لأطمئنّ بنفسي على وصول كلّ طفل إلى منزله بأمان، حرصاً منّي على حفظ الأمانة الغالية التي استودعني إيّاها أهاليهم، فاكتسبت ثقة الأهالي التي كانت تمدّني بالقوّة والإصرار على حماية أطفالي هؤلاء مهما تعرّضتُ للمخاطر.

أذكر مرّةً، وبينما كنت أرافق الأطفال إلى منازلهم، أنّنا مررنا بمنطقة في مدينة دوما، وحصل اشتباك عنيف بين الجيش وأفراد مسلحين، فلم يكن أمامنا سوى احتضان الأطفال وتهدئتهم بينما الرصاص يمرّ من حولنا.

ابتهلنا إلى الله بشفاعة ملائكة الأرض فاستجاب لنا، وأرسل ملائكة السماء، لينقذوا أشباههم على الأرض من الموت المحتّم!

تمكّن السائق في نهاية المطاف، من دخول إحدى الحارات الآمنة ومغادرة مدينة دوما عائداً بنا إلى المعهد. اتصلت بأسر الأطفال وطمأنتهم على أطفالهم، وأخبرتهم أنّني سوف أستضيف أطفالهم هذا اليوم في منزلي مع عائلتي حرصاً على سلامتهم، فهدأ

الأهالي واطمأنوا أنّ أطفالهم بخير. هذه الظروف التي تكرّرت مرّات ومرّات خلال الحرب، وبالرغم من قسوتها، سمحت لي بأن أكون أباً لأولئك الأطفال، نأكل ونلعب ونتعلم معاً وننجو من الموت معاً! معهم أدركت مدى المعاناة التي تعيشها أسرة لديها طفلٌ مصاب باضطراب التوحّد، فلم يكن من السهل مثلاً كسر الروتين اليومي لأولئك الأطفال الذين لا ذنب لهم في أنّهم وجدوا أنفسهم فجأة وسط حرب شرسة، وهم البريئون من أيّ ضغائن وأحقاد، ولا يدركون حتى لماذا يمتلك العالم من حولهم كلّ هذا العنف والشهوة للقتل! ربّما يكون هذا التساؤل سبباً يجعل بعض الأطفال يضحكون أحياناً حين تنطلق زخّات الرصاص فجأة، أو أنّهم لا يقدّرون تماماً خطورة الخروج إلى مناطق القتال.

هذا الأمر الذي ظلّ يقلقني في كلّ حين عندما كنت في سوريا وحتى هنا في السويد. فلا تشرق شمس يوم وتغرب عليّ وأنا في تجمّع اللاجئين إلا وفكري منشغل بهم، فكلّما استرجعت بعضاً من تلك المشاهد سحّت الدموع حارقةً وجنتيّ بصمت.

*****

(3)

أن تنتظر شيئاً لوقت طويل، هذا بحدّ ذاته قد يحمل الدمار إلى نفسك، فمع مرور الأيام في ذلك المجمّع، بدأت ألاحظ ما يفعله الآخرون وكيف يمضون أوقاتهم، وبدأت ألمس عن كثب كيف يتعامل الآخرون مع الواقع الجديد. فبعضهم عانى من صعوبات كبيرة في التكيّف، ونتيجة لذلك ربّما بدأ هؤلاء يفكّرون بأنّ ما حلّ بهم إنّما هو عقاب ربّانيّ على ارتكابهم ذنوباً يجهلونها، فانكبّوا يؤدّون طقوساً وعبادات حدّ التطرّف، علّهم يملؤون وقتهم الذي جعلته الحرب فائضاً ورخيصاً!

وهنا في مقرّ اللاجئين وما ساد فيه من الفراغ الفكريّ، مع غياب أيّ نوع من النشاطات الترفيهيّة لملء ذاك الفراغ.

انشغلت بمراقبة كيف سيحاول الناس هنا اختراع نمط للتكيّف مع هذا السياق الجديد للعيش، هذا المناخ سمح لي بأن أجد مسوّغاً لسلوك صديقي الذي خسرته في ديسلدورف. فأنا الآن أظنّ أنّه بعد هجرته إلى ألمانيا لا بدّ أنّ الحال انتهى به إلى تجمّع للاجئين، وهنا كان عليه أن يعيش تجربة الانتظار وقتاً طويلاً من الفراغ الفكريّ والوجدانيّ، وهذا كلّه سمح لليأس أن يجد طريقه إلى قلبه، وبالتالي بدأ يراجع نفسه أمام الله،

لتتكشف أمامه تجلّيات وأحاسيس لا يمكن التكهّن بها، ربّما يكون اكتشافه أنّ صداقتنا إنّما هي من بعض هذه الآثام، فلم يستطع التغلّب على حالة مقابلتي بكلّ ذلك البرود والجفاء. إنّ غياب الحدّ الأدنى من النشاطات في مقرّ اللاجئين كان من الأمور التي اعتبرتها خطيرةً جدّاً، ومدمّرة للذات بكلّ المقاييس. فكان من السهل في تلك الظروف أن ينصّب شخص ما نفسه داعية ليهدي الآخرين إلى طريق الصواب، أو بالأصحّ ما يظنّه هو طريقاً إلى الخلاص.

نمط آخر للتكيّف مارسه أشخاص آخرون؛ وهو الاستمتاع بملذّات الحياة، أو بالأصحّ المبالغة في الاستمتاع بتلك الملذّات، كالتدخين أو الكحول أو ارتكاب المحرّمات. كان بعض الأشخاص في ذاك التجمّع يسرفون في تناول الكحول وتدخين الحشيش بشكل يوميّ، ربّما كان ذلك طريقة للهروب من الواقع المكتظّ بالذكريات والمآسي إلى عالم خياليّ مضمّخ بنشوة السكارى. ففي حين كان النمط الأول يتّجه أقصى اليمين، اتّجه هذا النمط أقصى اليسار، وكلاهما موجود في المكان ذاته!

من الآخرين من كانوا يشغلون أنفسهم بالأحاديث المطوّلة عبر مكالمات الفيديو مع عائلاتهم والأصدقاء في أوطانهم، حالة أخرى من التشبّث بالذكريات والوقوف على الأطلال. ولا نعدم أن نجد من يقضي

أوقاتاً طويلة منشغلاً بتطبيقات الألعاب على هاتفه المحمول ريثما يحين موعد الأكل!

حاولت العائلات التي لديها أطفال خلق أجواء اجتماعية فيما بينهم في ساحات لعب الأطفال، في حين قام العازبون بإنشاء الصداقات مع الآخرين وإقامة التجمّعات، والاحتفالات والرقص والغناء. فئة قليلة عاشت وهي تحاول إخفاء أعراض من الاكتئاب، واضطراب ما بعد الصدمة بقسوة الواقع. أمّا أقلّ فئة من قاطني المجمّع هم الذين حاولوا ملء أوقات فراغهم بتعلّم اللغة السويدية بنوع من المبادرة الذاتيّة لاستباق الأحداث، لأنّ السويديين ما كانوا يلجؤون إلى تعليم لغتهم بشكل رسميّ إلّا بعد حصول اللاجئين على الإقامة وكانت تلك خطيئة أخرى تضاف إلى سجلّهم في التعامل مع المهاجرين إلى بلدهم.

"إذا أردت أن تقتل الدافعيّة والطموح لدى شخص مجدّ، يكفي أن تتركه دون عمل لفترة طويلة ومن ثم تغرقه بالمهمّات فجأة" هاجسي لا يدع حالة إلّا ويتحفني بالتعقيب عليها، وهنا أراه مصيباً تماماً!

أمّا عنّي فقد اعتدت أن أشغل نفسي دائماً بطرق عدّة أهمّها القراءة، ولكنّ مكان إقامتنا الحاليّ كان يبعد

عن أقرب مدينة مسير ساعة في الحافلات التي كان وجودها شبه معدوم، وهذا ما جعل الذهاب بقصد شراء الكتب أمراً صعباً. أيقنت حينها أنّه سيكون لديّ وقت طويل جدّاً يجب أن أستثمره بشيء ما.

"يصعب عليك التأقلم مع كلّ ما تشاهده، أعلم ذلك، ليس من السهل أن تعيش في مكان جديد. بالرغم من كثرة الناس حولك، فأنت لم تختر أيّاً منهم، ووجودك بينهم هو محض مصادفة. نعم، قد يكون عليك أن تمنح نفسك فرصةً لمصادقة من تراه يستحقّ، وقد يكون عليك تجنّب الآخرين الذين لا تجد فيهم ما يقنعك. لكن الأهمّ من ذلك أن تعرف ماذا تريد، أين ترى نفسك بعد سنتين أو ثلاث، وكيف ستصل إلى هناك! أؤمن بإيمانك بنفسك، وأثق بقدرتك على الوصول، فالحلم بانتظارك يا صديقي". جرعة أخرى من النور بثّها الصوت في طريقي.

انطلاقاً من أنّ اللغة، هي المفتاح لأوّل باب من أبواب المعرفة، وضعت خطّة لأتعلّم اللغة السويديّة بنفسي، فقمت بتحميل بعض التطبيقات الإلكترونيّة للتواصل باللغة السويدية على كمبيوتري الشخصيّ، كما قمت بتحميل بعض تطبيقات التواصل على الهاتف علّني أجد أشخاصاً يودّون قضاء بعض الوقت في التواصل

بالمحادثات القصيرة.

جعلني الدخول إلى هذا المدى الافتراضيّ أكتشف عالماً جديداً، عالماً من الخبايا، فقد كان بعضٌ من هذه التطبيقات يسعى لتوسيع دائرة علاقاته الاجتماعيّة، وبعضها الآخر يحاول قتل الوقت والملل ليس أكثر، بينما كثيرون جدّاً يبحثون عن التواصل بقصد المتعة والجنس. في تلك الفترة كنت مضطرّاً لمسايرة بعض الأشخاص بالرغم من يقيني أنّ هؤلاء كانوا يحاولون استغلال موقفي الضعيف كلاجئ. كانت المساعدات التي قدّمتها السويد لكلّ لاجئ تقدّر بسبعمائة كرون شهريّاً، وهو مبلغ كافٍ لتأمين الحاجات الأساسيّة لا أكثر، فإذا ما كان الشخص مدخّناً مثلي، عليه أن يشتري السجائر من ماله الخاصّ. كذلك لا يستطيع الشخص مثلاً إنفاق المال لتناول وجبة في مطعم أو لشراء ملابس جديدة وما إلى ذلك. وهذا الوضع كان مناسباً لبعض الأشخاص من ذوي النزعات الطفيليّة، حيث عرض عليّ بعضهم المشاركة في فرص ملتوية لو قبلت بها لجعلتني أكسب كثيراً من المال، لكن قناعتي بأنّ من يشتريني بالمال اليوم يمكن أن يبيعني بالطريقة ذاتها غداً، منعتني من ذلك.

"أنت في صراع الآن، بين تلك الأحاديث التي تمنحك نفحاً ايجابيّاً ولو كان قصير الأمد مع

أولئك الأشخاص العابرين من جهة، وبين مبادئك الراسخة من جهة أخرى. ربما أنت بحاجة الآن إلى هذه المحادثات التي سوف تساعدك في تعلّم اللغة، لكن عليك الحذر يا صديقي، فتلك الحروف تفتقد الدفء والصدق الحقيقيين، ففي هذا العالم الافتراضيّ يبقى الأشخاص محض أشباح حتى نلتقيهم". جاءني الصوت محذّراً مثل قرار حاسم!

كان عليَّ التأقلم في ذاك التجمّع بشكلٍ أو بآخر بغضّ النظر عمّا أفعله. وفي نفس الوقت الاستعداد الدائم للبحث عمّا هو أفضل. فأنا بطبعي أمقت الانتظار، والأكثر مقتاً من الانتظار عندي هو الفراغ وفقدان الفرصة لإنجاز شيء مهما يكن بسيطاً، فكان ذاك الفراغ أثناء وجودي في التجمّع يضربني في الصميم، ويشبه سيفاً مصلتاً على عنقي يظلّ يحزّ طوال الوقت!

أيام وأيام مضت متشابهةً دون جديد، روتين يتكرّر كلّ يوم، بدءاً من تناول فطور الصباح، ثمّ المحادثات السخيفة مع الآخرين، ثمّ تناول الغداء، شرب المتّة، التدخين، الإبحار في عالم الذكريات، التجوال في الغابات المحيطة بالتجمّع ومذاكرة شيء من اللغة السويديّة عبر مقاطع الإنترنت، قراءة كلّ ما كُتب

عن السويد باللغة العربيّة على شبكة الإنترنت. كلّ ذلك لم يكن كافياً بالنسبة لي، فقد بدأ ذلك الفراغ يجعلني دائم التوتّر، بل قل إنّه بات يقضّ مضجعي.

"أشعر بهذا الضجيج الذي يقلق سلامك وهدوءك الذاتي، أشعر بوخز الوقت البطيء في روحك الجامحة المقيّدة بسلاسل الانتظار، أعلم أنّك تعتقد أنّ وجودك هنا لن يساعدك في تطوير ذاتك، ولن يسمح لك بالانخراط في المجتمع السويديّ. وأعلم أنّ التجمّع أشبه ما يكون ببيئة السجن المعزول عن بقية المجتمع، لدرجة أنّ الفرد قد يحتاج نوعاً من إعادة التأهيل عندما يتمّ تسريحه منه، لذا عليك أن تختار بين الاستمتاع بوقتك هنا، وبين البحث عن طريقة للخروج من هذا المكان". تلقّيت للتوّ موعظة على شكل نصيحة واضحة المنهج.

أثناء تواصلي مع الآخرين في التطبيقات الإلكترونيّة، أخبرتهم بأنّني أحاول الحصول على غرفة خارج التجمّع. وبعد مضي ما يقارب الشهر، أخبرني أحدهم بتوفّر غرفة للسكن في مدينة أخرى تدعى "كالمار"، ولأنّ الانتظار يجفّف قطرات الندى عن وريقات الروح، ولأنّني حتى الآن حرٌّ من وثاق أيّ مكانٍ في السويد، كانت فكرة الانتقال إلى مدينة أخرى هي الأمثل.

قادنـي العنـوان إلـى الغرفـة المقصـودة فـي «كالمـار»، فـإذا هـي إحـدى الغـرف فـي منـزل لرجليـن مثليّيـن يعيشـان معـاً كزوجيـن! ومـرّة أخـرى أجـد نفسـي فـي مكانٍ غريـب آخـر، وربمـا يصـل الاختـلاف هـذه المـرّة حدّ التناقـض. جعلنـي هـذا الامـر أقـف وجهـاً لوجـه أمـام إحـدى تجلّيـات اختـلاف الثقافـات وتصارعهـا، إنّـه زواج المثليين الـذي يعدّ مـن المحرّمـات في وطنـي، بـل يعدّ جريمـة وشـذوذاً مخالفـاً لسـنن الطبيعـة والشـرائع، بينمـا هـو شـرعيّ ومقبـول اجتماعيّـاً فـي السـويد. وأنـا كضيـف يعيـش فـي هـذا البلـد، بغـضّ النظـر عـن جنسـيّتي لا يحـقّ لـي أن أنتقد سـلوكاً كهـذا، لأنّ المجتمـع السـويديّ يقـوم علـى مبـدأ المسـاواة بيـن كافّـة أفـراده بغـضّ النظـر عـن أشـكالهم، أو ألوانهـم أو اعتقاداتهـم أو أعراقهـم أو دياناتهـم أو ميولهـم. رغـم يقينـي بأنّـي فـي السـويد ولسـت فـي سـوريا لكنّـي وجـدت صعوبـة فـي قبـول العيـش معهمـا. تـردّدت بضعـة أيـام وتشـاورت مـع الأصدقـاء والأهـل، وكمـا هـو متوقّـع تباينـت الآراء بيـن مؤيّـدٍ متفهّـم ومعـارضٍ متشـدّد.

"هنـا، فـي بـلادٍ تتكـئ علـى حريّتهـا كـي تنهـض، عليـك أن تنظـر بعقلـك إلـى كلّ المشـاهد التـي تخـرج عـن عـادات بـلادك الحزينـة، وهنـا حيـث ترفـع الحريّـة أفـق الـروح فـي الأجسـاد والأشـياء، عليـك أن تحتـرم اختيـارات غيـرك وعـادات غيـرك التـي

تمـرّ دون المسـاس بحلمـك، وهنـا حيـث النـاس يؤمنـون بـأنّ السـلوك يرسـم منحنـى الـروح، ولا يرتهـن لأيّ تقليـد أو انتمـاء، عليـك أن تعتـرف بقانونهـم الـذي يتمـدّد كـي يشـرّع حقوق النـاس، هنـا يـا صديقـي يعترفـون بالمثليّـة الجنسـيّة منـذ عـام ١٩٤٤م أي قبـل ولادتـك ب ٣٨ عامـاً، كمـا أنهـا شـطبت مـن سـجل الأمـراض منـذ ١٩٧٩م أي قبل ولادتـك بثـلاث سنوات. فمـا الـذي تحاكمـه بربّـك؟ لا يشـبه القمـرُ الشـمس لكنـه لا يعاديهـا، هـو يكتسـي مـن خيـوط سناها كـي يكتـب حرفـاً في قصيـدة اكتمـال الكـون، ولا تشـبه الأرضُ السـماء لكنّهـا لا تحقـد عليهـا، هـي ترجـو للغيـم أن يبـرد فيبكـي، فتتلقـف هـي الدمـع وتخضـرّ، إنّهـا الطبيعة التـي تؤلّـف الاختـلاف والتنـاقـض، كـي نفـكّ مع كلّ اختـلاف حرفـاً عصيّـاً مـن لغز معرفتنـا الغامـض. ليكـن هـذا الاختـلاف تحدّيـاً أمـام انتمائـك لذاتـك فـي مـكانٍ لا يشـبهك، وأمـام همّـة حلمـك علـى التحليـق فـي فضـاءٍ يتسـع لأجنحـةٍ سـواك، دون أن يعتـرض جنـاحٌ جناحـاً آخـر. بوسـعك أن تعبـر دون الانتمـاء للمحطّـة، ودون نكرانهـا علـى طريـق وصولـك، وبوسـعك أن تتنفّـس عنـادك وتمضـي دون أن تحمـل مـا يثقـل عزيمـة حلمـك مـن الـكلام" كان هـذا الـكلام أجمـل مـا سـمعت مـن هاجسـي العزيـز!

قبلـت التحـدّي وقـرّرت العيـش مـع تلـك العائلـة بالرغـم مـن انتقـاد الآخريـن الشـديد لــي.

*****

كالمار

مسافر أنت لا يعود

حتى لو عاد

فلا بيت لك هنا أو هناك

بين يدي مورفيوس[١٣] تحلم بغدٍ أفضل

(1)

في كالمار، كان المكان يضجّ حيويّةً وجمالاً، لذا بدا الوقت أكثر ألفةً وأكثر رحابةً لإنجاز كثير من الأمور الجيّدة. تغيّر روتين حياتي إلى حدّ كبير، فضلاً عن انتظار صدور الإقامة، كان لديّ الوقت لركوب دراجة هوائيّة، وهو أمر لم تتح لي طفولتي البائسة أن أحظى به، والذهاب إلى المكتبة لقراءة بعض الكتب، وإرسال شهاداتي من أجل التعديل، ووضع خطّة لتعلّم السويديّة انطلاقاً من كتابة أسماء الأشياء بالسويديّة على قصاصات ورقيّة وإلصاقها على مسمّياتها من أغراض المنزل، إلى تجاذب الحديث مع صاحبيّ البيت باللغة السويديّة، وإن كانت هذه الأحاديث لا

١٣- مورفيوس: يشير إلى إله الأحلام في الأساطير الإغريقية. وهو أحد أبناء هيبنوس إله النوم. كان يعتقد أنه يأخذ شكلاً آدميًا ويظهر للناس في نومهم، كما أنّ كلمة مورفين كمخدر جاءت من اسم هذا الإله.

تزيد غالباً على مفردات السلام والشكر.

في كالمار، كان الاختلاف بمثابة المسار الذي يعزّز معرفتي، ولأنّني جئت لأعرف أكثر، كان عليَّ أن أفرد ثقافتي أمام ثقافات غيري كي ترى صدق نفسها حين تلتقي وترى عيب نفسها حين تختلف. ولأنّ كلّ لغةٍ تنفرد بنبض خاصٍ في حروفها، كنت أمرّن قلبي على حبّ اللغة، كي ألمس جوهر الاختلاف في وقع الكلمات المتشابهة، الأمر الذي أيقنت أنّه سيساعدني في تجنب كثير من الصدامات التي قد تنتج عن سوء الفهم. فمثلاً في ثقافتي حين تقول: سأحاول فعل شيء ما، تعني أنّك بنسبة تسعين بالمئة ستنجز ذلك، بينما هنا قد يصبح المعنى معكوساً ودلالة على عدم الرغبة في القيام بالشيء المذكور. لكنّ بلادي تقصّ أجنحة الحروف منذ الولادة، وتحاكم الصوت الذي يقلق أمن الطغاة، لذا كان لابدّ للقيود أن تترك آثارها البغيضة، وتجعلني أقلّ ثقةً بحروفي التي لم يكن ينقصها سوى التدرّب على التحليق، وتجعلني أبالغ في جلد معرفتي التي كانت تستحقّ منّي الثقة والاعتناء بحضورها.

شعرت بضرورة القراءة عن تاريخ المجتمع السويديّ والنقاط المفصليّة فيه. وفعلاً وجدت نفسي أقرأ وأدوّن أشياء لا أعلم ما إذا كان كثير من السويديين أنفسهم يذكرونها. قرأت عن تأسيس أقدم أبرشية في سكارا،

وقـرأت عـن اسـتيلاء بيرجـر يـارل علـى السـلطة بعـد حـربٍ أخـذت حصّتهـا مـن دمـاء الإنسـانية، وفشـلت مثـل كلّ الحـروب فـي قتـل الحيـاة علـى الأرض، فتأسسـت بعدهـا مدينـة اسـتوكهولم، قـرأت عـن المـوت العظيـم الـذي تجسّـد فـي وبـاء الطاعـون ليقطـف أرواح الكثيريـن مـن أبنـاء السـويد. قـرأت عـن همـم الفلاحيـن التـي تعاضـدت بوجـه الظلـم كـي يصبـح للفقـراء أصـوات تصـوغ حقوقهـم. قـرأت عـن غوسـتاف فاسـا، أكثـر الملـوك اسـتبداداً فـي تاريـخ السـويد، كيـف تولّـى الحكـم بعـد إعـدام مئـة شـخص فـي مذبحـة اسـتوكهولم، وجعـل مـن السـويد مملكـةً تعلـو كلمـة الملـك فيهـا علـى كلمـة الحـقّ، وتوسّـع سـلطة الدولـة علـى حسـاب سـلطة الديـن والكنيسـة. قـرأت كيـف يعـود الفضـل فـي بنـاء مدينـة رائعـة مثـل جوتنبـرج، لطاغيـة يدعـى غوسـتاف الثانـي، جعـل مـن السـويد قـوةً عظمـى تهـزم روسـيا وبولنـدا، وتجبـر الدانمـارك علـى التنـازل عـن "سـكونه وهالانـد وبليكينـج وبوهوسـلان".

وقـرأت كيـف هلكـت القـوّة العظمـى السـويديّة فـي معركـة بولتافـا، وكيـف خسـرت السـويد أراضيهـا فـي الحـرب الفنلنديّـة ١٨٠٨ عندمـا تعرّضـت للهجـوم مـن روسـيا، وأجبـرت علـى السـلام فـي مينـاء فريدريـك بعـد حـرب مدمّـرة وكيـف تـمّ التنـازل عـن كلّ شـرق السـويد، فنلنـدا الحاليّـة، للـرّوس فـي العـام التالـي لسـقوط نظـام غوسـتاف

الرابع أدولف واتّخاذ السويد شكلاً جديداً من الحكومة، والذي نصّ على أنّ تقسيم السلطة سيتمّ بين الملك والشعب. قرأت عن الهجرة إلى أمريكا ١٨٥١، حيث هاجر حوالي ١,٢ مليون سويديّ إلى أمريكا بين عامي ١٨٥١ و١٩٣٠، فضلاً عن باقي الدول الأوروبيّة. وكيف مُنحت النساء حقّ التصويت بدءاً من عام ١٩٢١ فصاعداً. قرأت عن "قانون يانتا" أو "قانون السيطرة". وكنت استخدم المترجم لفهم ما هو مكتوب لأنّ بعضاً من الموضوعات لم تكن متوفّرة بلغتي الأم.

"أنت فعلاً مجنون ومهووس! لماذا تقرأ عن هذه الأشياء؟ هل ستتقدّم لامتحان بالتاريخ السويديّ؟" غالباً ما كنت أسمع هذه النبرة الساخرة صادرة من أعماقي تؤنّبني على أنّني أفني وقتي في قراءات لا طائل منها!

كان لدى جاريّ روتين معين للقيام بالأمور، وكأنّ كل شيء يقومان به يخضع لتخطيط مسبق، فلا شيء هنا يحدث بمحض المصادفة. كانا يصحوان على صوت حارس السماء حين يؤدّي التحيّة الصباحية لموكب الشمس، ويمضي كلّ منهما إلى عمله، ليعودا حين تلمّ الشمس ضفائرها عن طرحة النهار وتمضي، وكأنّهما يقسّمان التعب على طول النهار، ويقسّمان سلامهما

علـى الليـل. بينمـا كنـت أصحـو حيـن تعـرف الشـمس طريقهـا إلـى وجهـي عبـر نافـذةٍ تختبـئ عنهـا، أشـرب قهوتـي وأذهـب إلـى مكتبـةٍ تنبض برائحـة الـورق، تلـك الرائحـة التـي تفسّـر شـغفنا باقتنـاء الكتـب رغـم توفّرهـا علـى مواقـع الإنترنـت فـي هواتفنـا المحمولـة. أتـرك المكتبـة وأمضـي إلـى حيـث تأخذنـي قدمـاي، إلـى مَعلـمٍ جديـد مـن معالـم هـذا المـكان المفعـم بالجمـال، وأعـود إلـى المنـزل فـي المسـاء قبـل أن يتمّكـن التعـب منّـي، وبينمـا يخلـد صاحبـا المنـزل إلـى النـوم بعـد يـومٍ شـاقّ، أسـهر أنـا بيـن الكتـب والإنترنـت. ورغـم قلّـة لقاءاتـي معهمـا، إلا أنّنـي تعلّمـت منهمـا كثيـراً مـن العـادات وخاصّـة عنـد مرافقتهمـا فـي العطلـة الرسـميّة. مثـلاً لـم يكـن مـن السـهل علـيّ التمييـز بيـن مئـة نـوع مـن الخبـز المصنّفـة علـى الرفـوف فـي محـلات بيـع المـوادّ الغذائيّـة كـ "ICA MAXI" مثـلاً، ففـي سـوريا تجـد فـي السـوبر ماركـت خمسـة أنـواع مـن الخبـز وليـس مئـة وكلّهـا تدعـى خبـزاً مـع إضافـة بسيطة إلـى شـكل الخبـز أحيانـاً، كأنْ تقـول خبـز سـياحي، خبـز عربـيّ ...الـخ لكـن هنـا ثمّـة مئـة نـوع وكلّ نـوع منهـا لـه اسـمه الخـاصّ، وأحيانـا يكـون الاسـم طويـلاً جـداً بحيـث أحتـاج يومـاً كامـلاً مـن التـدرّب حتـى أكـون قـادراً علـى لفظـه، تخيّـل أن تجـد خبـزاً مصنوعـاً مـن اللبـن المخثّـر مـع بـذور عبّـاد الشـمس وبـذور الكتّـان"Filmjölksbröd med solroskärnor och linfrö". وكأنّنـي بتلـك الأشـياء

التي جهدتُ حتى تعلّمتها قد أعلنتُ بشكل غير مباشر عن تقبّلي اختلاف الآخر دون قيد أو شرط، حتى تقبّل أن أرى شخصين من نفس الجنس مثلاً يتبادلان القبلات والملامسات العاطفيّة سواء في المنزل أو في الأماكن العامّة!

يتصدّى الصوت داخلي ليدلي بدلوه مثل كلّ مرّة، فيحاول هنا التخفيف من قلقي ومعاناتي من فكرة التقبّل: "لربما أنت كرجل شرقيّ تحتاج إلى التمسّك بدور الرجل الذكوريّ جدّاً، لكن تذكّر يا صديقي إذا كان الأمر كذلك فهذا في حدّ ذاته يعني أنّ هذه القوّة الذكوريّة هي مفهوم هشّ، قد يُنتهك بشدّة الانجذاب إلى نفس الجنس. ثقافتك تحمّل الجنس مقداراً كبيراً من العار. هل حدث أن فكّرت يوماً ما برغباتك الجنسيّة بطريقة مريحة دون الشعور بالعار؟ هل منحت نفسك الفرصة لاكتشاف حقيقة ميولك الجنسيّة ولو مرّة واحدة؟ أو على الأقلّ هل سمحت لنفسك بالتفكير في هذا الاتجاه وحسب؟ الآن أنت هنا تناقش الفارق بين النرجس وعبّاد الشمس، بين الأوّل الناظر إلى الماء والقائل لا أنا إلّا أناي، والثاني الناظر إلى الشمس والقائل: ما أنا إلّا ما أعبد! تحتاج أوّلاً إلى التحرّر من هذه الثنائيّة الإجباريّة بين

الشرق والغرب ليضيق الفارق ويتّسع التأويل. فأنت اليوم لست سويديّاً ولست عربيّاً، أنت ستصبح مزيج حضارتين مهما ادّعيت وتمسّكت بإحداهما"

كان فصل الشتاء قد بدأ في السويد، وما أصعب أوّل شتاء هنا، فهو في السويد قاسٍ ومظلم، يخيّم فيه الظلام الساعة الثانية بعد الظهر، حتى تتمكّن الشمس الواهنة من إجلائه عند الساعة التاسعة صباح اليوم التالي، هذا الشتاء الذي أرهق حتى الشمس، كان لابدّ أن يلقي ظلاله عليّ، فقد تملّكني البرد حتى أنهك قواي وأجبرني على البقاء في المنزل دون ممارسة أيّ نشاط خارجه. رغم دفء المنازل التي كانت درجة حرارتها تصل إلى ٢٢ درجة مئويّة بينما تكون في الخارج ١٥درجة مئويّة تحت الصفر، إلّا أنّ هذا التباين في الطقس جعلني أشعر بفقدان طاقتي في كثير من الأحيان. ولأنّ العقل السليم يسنده جسم سليم، كان لابدّ لجسدي المنهك أن يُقلق عقلي ويفسد سلامه بين حينٍ وآخر. كلّ ما استطعت فعله في تلك المرحلة هو محاولة تعلّم السويديّة بكلّ الوسائل المتاحة. دوّنت كلّ ما عرفت من الأفعال والصفات السويديّة، واشتريت منهجاً لتعلّم السويديّة للمبتدئين. لكن في حقيقة الأمر كنت قد افتقدت جدّاً الحديث مع الناس وشعرت بوخز وحدتي التي تستغلّ غياب

الأهل والأصدقاء كي تتوسّع في أفق روحي.

كنت أشعر بالملل القاتل، وينقصني أن أجد صديقاً يؤنس وحشة روحي، فحتى أولئك الأشخاص الذين شكّلت علاقات طيّبة معهم في مركز التجمّع لم أعد أرى أحداً منهم بعد انتقالي إلى كالمار.

حاولت أن أكوّن صداقات جديدة في مكاني الجديد، لكنّ الأمر بدا كأنّه نوع من الضرب بالرّمل، حتى بلغ بي الإحساس أنّني ربّما أحتاج حياة أخرى كي أحظى بصديق واحد هنا، وهذا ما أطلقت عليه حينها "الانغلاق السويديّ". جعلني هذا الأمر ألتجئ إلى عَالمٍ افتراضيّ يقودني إلى حوارٍ مع أشخاص وهميين من وراء شاشة باردة. لكنّ العلاقة الطيّبة مع الطبيعة ساهمت في توازني النفسيّ وسلامي الداخليّ وكانت خير دواء للتخفيف من حدّة الشعور بالوحدة. أمضيت وقتي مصغياً الى الصمت، وقد تبخّر واختبأ في ثنايا روحي. ذلك الصمت الكثيف الذي أصبح صوتاً في خلدي يسعفني في صياغة أفكاري وأحاسيسي، وقد تصل به الأمور أن يثور ويغضب كأنْ يأمرني مثلاً: "قم لنرجع فالبحر ليس لأمثالنا". ذاك الصمت بدا حافلاً بحزن عميقٍ عريقٍ يسري في عروقي، لكنّه في أحيان أخرى كان هادئاً كحكمة مكتسبة من شيب الروح. أنه شيب بلا شيخوخة يشبه الشباب لكنّه أكثر رصانة وقد امتزجت مرارته بهدوء التأمّل الفكريّ

الـذي خفـف كثيـراً مـن قسـوتـه.

*****

(2)

الأول مـن شـهر أكتوبـر، وهـو اليـوم الـذي ألهمنـي فـنّ عشـق الحيـاة، وأوثـق روحـي بأجمـل انتمـاءٍ وأجمـل حـبّ، هـو عيـد ميـلاد طفلتـي "نـاي"، ونـاي هـي لـون الفـرح فـي دم وجهـي، وضحكتـي التـي عبـرت كلّ قلبـي وانتمـت إليـه، تمنيّـت فـي ذلـك اليـوم أن تتسـلل روحـي فـي غفلـة الحـدود كـي تزيّـن الدنيـا فـي عيـد ميلادهـا الأوّل، تمنيّـت لـو أنّ المسـافات تضيـق مـن مـدّ الحنيـن، لكنـت أعدمـت أطـول المسـافات بحنيـن قلـبٍ واحـد.

انتزعنـي هـذا اليوم مـن المكـان وانتخـب لـي نجمـةً تطـلّ علـى شـبّاك فـي وطنـي، وخلفه ناي تزفـر أنفاسـها الرقيقة كـي تنفـخ علـى لهـب شـمعةٍ ولا تطفئـه، وهنـاك حيـث زوجتـي تقسّـم دقّـات وقتهـا علـى أوتـار سـعادة نـاي، انتزعنـي هـذا اليـوم مـن كلّ الجمـال حولـي، وسـلّمني لذاكرتـي حيـث نثـرت قلبـي فـي أعماقهـا علـى الصـور. لكـنّ صـوت زوجتـي كان يغـرق معـي كـي يلمّنـي وينتشـلني مـن جديـد، ويمسـح الخـوف عـن نبضـي وهـو يـردّد لا عليـك، سـنحتفظ بحصتـك مـن فـرح هـذا اليـوم الـذي لـم يكتمـل، كـي نكملـه والحلـمَ معـاً فـي الغـد القريـب.

باستعادة شيء من سلامي الداخلي، قرّرت أن أعدّ لناي قالباً من الحلوى، رغم خبرتي القليلة في شؤون المطبخ شعرت بقدرة الحبّ على جعلي أنجز الأشياء الجديدة عليّ بأجمل صورها. بحثت عن بعض الوصفات، وأحضرت الموادّ المطلوبة، فجهّزت قالباً من الحلوى بطعم حبّي لـ "ناي"، وبنكهة الحياة الحلوة في ظلّ وجودها.

"ناي هي سّكر الحلم وطهر ملح التعب، سفر البال في الجمال بين سطور الكتب، "ناي" شرود ناظريك عن كلّ الورد من حولك، ونفح الخير في قوافل السحب. نم الآن يا صديقي! فهذا الحنين تعمّد بروح ماء الحبّ، والحبّ أصدق نوايانا، والنوايا الحسنة إيمان، وإيمانك سيلقي بالسلام على من تحبّ، نطق صوتي الداخلي بهذا الكلام المجيد."

في هذه الفترة كنت قد تعرّفت إلى بعضٍ من أصدقاء جاريّ في المنزل، والذين يعملون في نفس مجال عملي، فضلاً عن أولئك الذين عرفتهم من مواقع التواصل الاجتماعيّ وتطبيقاته. ويوماً ما تواصلت مع شخص يُدعى "جويل"، أخبرني أنّه يعمل مرشداً نفسيّاً في مجال دعم اللاجئين، وكان ينسّق للعمل على مشروع الدعم النفسي للاجئين في استوكهولم التي

تبعد عن مكان تواجدي مسير ثلاث ساعات بالحافلة. كما أخبرني جويل أنّ المجموعة التي تعمل معه تضمّ اختصاصيين من السويديين والعرب. وخلال حديثنا المطوّل أطلعت جويل على الشهادات التي حصلت عليها وعن مجال عملي في سوريا، فقدّم لي دعوة للعمل معهم قبلتها دون تردد. وهكذا، وبعد عدّة أيام سافرت بالقطار المتّجه إلى استوكهولم للاطّلاع على حيثيّات المشروع وكيفيّة مساهمتي فيه.

كانت المرة الأولى التي استقلّ فيها قطاراً ضمن السويد، شعرت بالارتياح حين تفقّدت التذكرة ولم أجد مدوّناً فيها رقماً للمقعد، فدخلت إحدى المقطورات، وجلست في مقعد فارغ جانب شخص أشقر في حوالي العقد الرابع من العمر. وقبل أن تسكن الطمأنينة نفسي، بل قبل أن يدفأ مكاني على المقعد البارد، جفل الشخص الجالس جنبي ورمقني بنظرةٍ تقطر ازدراء وتذمّراً، وكأنّ أنفاسي قد عكّرت روحه برائحة كريهة، أو كأنّ وجهي انعكس في مرآة نفسه كنوع من وباء معدٍ! ولأنّه لا يستطيع منعي من الجلوس جمع حاجيّاته بسرعة، ونهض ليغيّر مكانه دون أن ينطق بحرف واحد. وليترك مكانه الفارغ للحيرة التي جاورتني طوال الطريق. حينها لم أستوعب بالضبط لماذا فعل ذلك، لكنّني استطعت أن أفهم السبب جيّداً بعد مرور سنة تقريباً.

استقبلني "جويل" في استوكهولم، فذهبت معه للقاء زملائي في العمل الجديد. جلسنا معاً وناقشنا المساهمة في مشروع مساعدة اللاجئين، من خلال تقديم الدعم النفسيّ لهم وخاصّة لأولئك الذين يواجهون صعوبةً في التأقلم والتكيّف. كان قد مضى على وجودي في كالمار شهران كاملان، لم أتحدّث خلالهما مع أحد سوى جاريّ في السكن، ومع أفراد أسرتي في سوريا طبعاً، لذلك لم يكن غريباً أن أشعر بنوع من الشغف للحديث مع الناس، وبحاجةٍ شديدة لتبادل الأفكار مع الآخرين والتمتّع بخفقان أجنحة الكلام.

في مساء ذلك اليوم، رافقت جويل لحضور حفلة عيد ميلاد أحد أصدقائه. كان المكان الذي قصدناه يشبه نسيجاً سويديّاً صرفاً يشعّ بالألوان الزاهية، وبدوت فيه كخيطٍ بلون الثرى في زحمة الخيوط الصفراء والزرقاء، فلم يكن صعباً أن أبدو الغريب الوحيد بينهم، وأن أكون مثاراً لتساؤلات الجميع، من هذا؟ وماذا يفعل هنا؟

غير أنّ إحدى العائلات الموجودة في الحفل أبدت اهتماماً بي، أو ربّما دفعها الفضول لمعرفة المزيد من المعلومات عن بلادي التي بعثرت الحرب أبناءها وألقت بهم على أبواب المنافي، فانثالت عليّ برزمة من الأسئلة التي سبق أن سمعتها في أماكن أخرى من أناس لا يعرفون شيئاً عن الحروب والمنافي إلّا

من أحاديث اللاجئين المعذّبين. كنت أحاول أن أهذّب أجوبتي التي اكتظّت بملامح الحرب والدمار والغربة والحنين حتى تبدو أقلّ قسوة وأكثر لطفاً على مسامعهم المدرّبة على أصوات الفرح، تناولت كأس الشمبانيا ورحت أمحو آثار الحديث رشفةً رشفة، لحظتها تغيّر مسار الأسئلة عن الحرب ليضعني بمواجهة سؤالٍ آخر لم أكن أتوقّعه هنا:

ما هي ديانتك؟ سألتني سيدةٌ بدت كأنّها مطّلعة على بعض تقاليد الأديان في بلادي أو ربّما أتاحت لها أخبار الحرب شهوة القراءة عنها.

شعرت، رغم غربة المكان، أنّني أملك أفقاً أوسع من ذاك الذي كنت أحظى به في بلادي حين اتحدّث عن ديني. شرحت لها عن عقيدتي التي تلتقي جوهر كلّ الديانات قبل أن تحرّفها بعض اجتهادات البشر، عندها أخبرتني السيدة أنّ والدتها كانت تعمل معلّمة في إحدى المناطق التي يدين أهلها بالعقيدة الدرزية في "إسرائيل"، هذه الانعطافة في الحديث جعلتني أتحسّس الخطوط الحمراء التي نشأتُ في كنفها، ففي بلادي لا نعترف بوجود شرعيّ ل "إسرائيل"، وما نزال حتى الآن نسميّها كياناً يحتلّ فلسطين العربيّة. بينما أنا الآن في مكان أهله يؤمنون بوجود "إسرائيل" دولة ذات شهرة واقعيّة، ولأنّني لم أرد الخوض في الأحاديث السياسيّة، كان عليّ أن أرسم مسارات الحديث التي

تصل الإنسان بالإنسان دون المرور بمنحنيات معتقدات الواقع.

أخبرتني تلك السيّدة أنّها تنحدر من عائلة يهوديّة كانت تعيش في رومانيا ثم هاجرت إلى فلسطين بعد وعد بلفور الذي منح اليهود وطناً لهم هناك، ومنذ زمن هاجرت عائلتها إلى السويد بينما هي في سنّ التاسعة، لكنّها تتذكّر جيّداً بعض التفاصيل التي كانت والدتها تتحدّث عنها، وأخبرتني أنّها زارت إسرائيل وقصدت بعض المناطق مثل "الجولان" الذي لم ترَ ملامح هويّته السوريّة، رغم سطوعها، و"الخليل" الذي لم ترَ الدم الفلسطيني الذي ما يزال يخضّب ثراه كلّ يوم!

في البداية كنت متردّداً في التعبير عن رأيي في هذا الموضوع، لكنّني بعد قليل نفد صبري، ولم أحتمل عتب الحقّ والحقيقة عليّ، فذكّرتها بالمجازر التي أزهقت أرواح البشر والشجر على أرض فلسطين، ومهدت الأرض والتاريخ تحت أبراج إسرائيل، وذكّرتها كيف يمسك طفلٌ طفولته بيد، وباليد الأخرى يمسك حجراً ليعيق تقدّم دبّابة، وأنت تعلمين سيّدتي أن لا شيء سوى الانتماء هو ما يجعل طفلاً في التاسعة من عمره يفعل ذلك. تقبّلت السيّدة اليهوديّة رأيي دون أن تنفي رأي أجدادها بمشروعيّة كيانهم وحقّهم في أن يكون لهم وطن!

في ختام الحديث طلبت منّي رقم هاتفي، فأعطيتها الرقم بينما يجيش في نفسي فكرة مرحة:

ماذا تريدين منّي؟ فأنا لستُ درويش وأنت لست ريتا! اقتضى الحديث بضع دقائق من وقت وجودنا في الحفلة والتي لم تدم سوى ساعة واحدة فقط، قررت بعدها المغادرة بصحبة رفيقي الذي اصطحبني إلى هنا بعد أن عرض عليّ المبيت في منزله في استوكهولم.

مقابلتي مع تلك السيّدة، فتحت الباب لحوارات لا تنتهي ومشادّات حادّة بيني وبين ذاك الصوت القابع في أعماقي. فقد راح يفرد أوراق ذاكرتي عمّا قامت به إسرائيل من تجريب كلّ أنواع القتل والتشريد على الشعب الفلسطينيّ لطمس المعالم العربيّة العريقة في تلك البقعة المقدّسة من الأرض، لتغدو فلسطين محض يافطات ثلاث، أولاها: شتاتٌ يؤثّث المنافي حاملاً هويّته مؤمناً بعودةٍ محتومة لا ينقطع البحث عن أطراف خيوطها. وثانيها: باقون متجذّرون في الوطن من فئة نذرت أن تفي بوعدها للتراب الذي ينبض من حنوّ الأكفّ الصلبة ولليمون الذي يمتصّ عرق الكدح كي يفوح بأريج البسالة والحياة، حتى لو كان ثمن ذلك منتهى الصمود والصبر على صلف الإسرائيليين الذين فرضوا عليهم هويّتهم قسراً.

وثالثها: يمثّلها هؤلاء الذين احتفظوا بالهويّة الفلسطينية تحت وطأة العنف والتوسّع الإسرائيليّ الذي حرمهم حتى من معانقة مواسم أرضهم الخصبة وقد احتكرها لنفسه، فكان عليهم تحت وطأة السياسة التي تساوم عليهم كلّ يوم، أن يثقوا بالحجر أكثر من ثقتهم بقادتهم الأذلّاء.

استبسل صوت ضميري، فراح يعيد على مسامعي ما كنت قد قرأته يوماً من كتابات أدونيس عن "الحوار بين نفيين"، وحوار حمادي الصيد مع تيودور كلاين حول الحوار الإسرائيليّ الفلسطينيّ.

أكاد أسمعه جهراً وهو يتساءل غاضباً: "كيف لمثل هذا الحوار أن يستمرّ؟" إنّ استمرار حوار كهذا يقارب المسافة بين جهتين متباعدتين في الجوهر، أو أن يزيد التقارب بين جهتين متقاربتين في الواقع. فالحوار ينزع فتيل التحارب بين جبهتين أو أقلّه يرسم الحدود بأقلام السلام، والحوار يقيم الحقّ بين المتحاورين بلغة العدل وليس بلغة الرصاص والقتل.

فالإسرائيليون ما فتئوا يردّدون أنّ ثمّة رابطاً تاريخيّاً بين اليهود وأرض فلسطين، لقد رتّبوا ذاكرة يهوديّة تفتح صفحات التاريخ وتدلّ على السطور التي وثّقت وجودهم في فلسطين، في

الجهة المقابلة ذاكرةٌ تنبض بحروف اللهجة الفلسطينيّة وتعبق برائحة الليمون الفلسطينيّ، هي ذاكرة الحياة اليوميّة، ذاكرة انتماء الروح للجسد، فكيف يمكن لذاكرة أن تتحوّل من يهوديّة إلى فلسطينيّة، أو العكس؟

كلا المقالتين تحدّثتا عن القلق الإسرائيلي ووصفتاه بأن "حالة سيكولوجيّة قوميّة" يعاني منها كافّة اليهود في اسرائيل. من المعروف في علم النفس أنّ الخوف هو حالة نفسيّة يمكن تحديد مصدرها، كأن تخاف من دبّ في الغابة. لكن القلق هو حالة نفسيّة مجهولة المصدر، كأن تقلق من حدوث شيء في المستقبل على الرغم من احتماليّة عدم حدوثه. انطلاقاً من هذا فإنّ القلق الإسرائيلي لا يمكن أن يكون من مصدر معروف، لكن في هذه الحالة يمكن أن نعزوه إلى الوجود الديمغرافيّ الفلسطينيّ، الذي أرادوا له أن ينتهي بالقتل والتشريد والنفي وشتّى صنوف التعسّف، علماً أنّ انتهاء الوجود الفلسطيني، لو افترضنا حدوثه، لن يغيّر أبداً الحالة السيكولوجيّة القوميّة الإسرائيليّة. فعلى ما يبدو أنّ هذه الحالة لا ترتبط بالوجود الفلسطينيّ بقدر ارتباطها بالذاكرة الفلسطينيّة-العربيّة. كلا الطرفين لديه ذاكرته وحالة من الدفاع المستميت للتشبّث بتلك الذاكرة. وهذا في حدّ ذاته، هو نوع من الانتحار المتواصل لليهودي والفلسطينيّ على حدّ

سواء، كما يقول أدونيس. وفي النهاية كيف لمثل هذا الحوار أن يستمرّ؟ فاليهوديّ انطلاقاً من حالة القلق الموصوفة سابقاً لا يقتل الفلسطينيّ لكونه فلسطينياً، بل يقتله لينجو من قلقه الداخليّ. كيف يمكن لعربيّ إذاً أن يحاور قاتله؟ لكن يبقى السؤال الأهمّ: هل هو الشعب من يعاني من حالة خوف سيكولوجية قوميّة أم أنّها الحكومات والأنظمة هي الي أصبحت هذه الحالة علامة فارقة في تاريخها؟

يطرح أدونيس التساؤلات التالية: "ألا يمكن أن نكون في حالة حرب مع بريطانيا، وسلام مع شكسبير؟ ألا يمكن أن نكون في حالة حرب مع ألمانيا، فرنسا، وإيطاليا، وفي الوقت نفسه أصدقاء لبيتهوفن وغوته، ديكارت ورامبو، لدانتي وليوناردو دافينشي؟"

بالنسبة لي كان الجواب نعم، فالحرب مع إسرائيل لن تحدّ من احتمالية مصادقتي لتلك السيّدة التي أسميتها في مخيلتي "شمسٌ في ظلمة شتاء استوكهولم" وأسميت عائلتها "عائلة سيّدة الشمس."

بعد زيارتي إلى استوكهولم، فكّرت ضمنيّاً بالبحث عن فرصة عمل هناك، فمن المعروف أنّ فرص العمل في العواصم والمدن الكبيرة أكثر منها في المدن الصغيرة، ولكن كيف لي أن أجد عملاً بشكل قانونيّ؟ قرّرت في نفسي عدم قبول العمل في

"الأسود" كما فعل العديد من المهاجرين. الكلّ يعلم أن الوضع الاقتصادي للاجئين سيّء في المرحلة الأولى، ونظراً لافتقارهم للأوراق التي تفتح أمامهم فرص العمل، كانوا عرضة للاستغلال بشكل كبير، ويحدث أن يعمل اللاجئ مقابل نصف الراتب الذي يمكن أن يتلقّاه لو عمل في "الأبيض"، والعديد من اللاجئين اضطروا للعمل عشر ساعات لقاء أجر العمل لساعتين في القوانين السويديّة، وهي إحدى الحالات التي لا يتمّ الإفصاح عنها. رفضي لعروض العمل التي قُدمت لي ساعدني في التركيز على ما أقوم به وعدم الانجرار وراء المكاسب الماديّة السريعة، فقرّرت أن أتطوّع للعمل في الدعم النفسيّ مع تلك المجموعة التي قابلتها، حتى تتوفّر لي فرصة عمل أرضى عنها. بالاختصار كان قراري هو الصبر لتحقيق ما أريد في حياتي المستقبليّة في السويد.

كنت أطمح في يوم ما أن أعمل في مجال تخصّصي. وهذا ما بدأت التفكير فيه فور عودتي إلى كالمار، فرحت أولاً أبحث عن مكان للسكن في استوكهولم، وبعد بحث موسّع دام أسبوعين كاملين، وجدت إعلاناً مكتوباً من طالب نرويجيّ الأصل يدرس في السويد يبحث عمّن يشاركه مسكنه. تواصلت معه عبر برنامج التواصل المرئي والمسموع "سكايب"، واتفقنا على قيمة الإيجار وما إلى ذلك. في نفس الليلة، تلقّيت

رسالة على هاتفي موقّعة باسم "عائلة سيّدة الشمس" التي التقيتها في استوكهولم، تقول:

- "مرحباً وسام! قلت إنّك تودّ الانتقال للعيش في استوكهولم، فهل انتقلت؟"
- أجبتهم بأنّي قد حصلت للتوّ على غرفة في منزل طالب نرويجيّ في استوكهولم،

ففوجئت برسالة أخرى منهم:

- "نحن لدينا غرفة إضافيّة في منزلنا، قد نوفّرها لك، لكنّ منزلنا لا يقع في وسط استوكهولم تماماً، بل نسكن في منطقة خارج العاصمة تبعد حوالي الساعة عن قلبها"
- فأجبتهم أنّه لا مانع لديّ من النظر في الأمر وأودّ ان أعرف منهم قيمة الإيجار لتلك الغرفة فأرسلوا لي:
- لا نريد منك إيجاراً للغرفة!

ورغم سعادتي الداخليّة، إلّا أنّني شعرت بشيء من القلق والتوجّس، فسألت:

- وما الذي تتوقّعونه منّي في المقابل؟

- فقالوا: لا شيء!

دعوني إلى منزلهم في عيد الميلاد لمعاينة الغرفة بنفسي ومن ثم اتخاذ قراري.

"شعور غريب ينتابك، شعور يتراوح بين عشق الوطن وبين الأفكار المتّصلة ببعض الأجندات. كيف يمكن لشخص يدين باليهوديّة وكان يوماً ما يعيش في إسرائيل، أن يدعو شخصاً عربيّاً سوريّاً إلى منزله ليقيم معه دون مقابل؟ لو أنّك وتلك السيّدة كنتما على خطّ النار، لكان على أحدكما أن يقتل الآخر! ولكان وجود أحدكما بالتأكيد سينفي وجود الآخر، أمّا الآن وأنتما تعيشان في المجتمع نفسه، مجتمعٍ، أنتما معاً، تعتبران من مكوّناته الآن، وجودكِ يتمّم وجودها ووجود كليكما يسهم في اكتمال هذا المجتمع. كم هي متناقضة هذه الحياة! هل تفكّر تلك السيّدة بمثل تفكيرك؟ هل وجود العداء بين بلديكما لن يمنع قيام صداقة بينكما؟ كم هي كثيرة تلك المعادلات التي تدور في فكرك وتخيفك! ما الذي تخبّئه تلك الدعوة خلفها؟ أنت لست بالشخصيّة الهامّة لكي تصبح هدفاً مشبوهاً لهم، كم من الإنسانيّة يلزمهم لكي يقوموا بذلك بعفويّة ودون غايات مبيّتة؟

هل أنت مستعدّ أن تفتح بيتك لاستقبال شخص غريب كلّياً لا تعرف عنه شيئاً ولا تعرف سلوكه أو تصرّفاته؟ وماذا لو كان هذا الشخص يحمل جواز سفر إسرائيلياً؟ هل كنت، فعلاً، سوف تقوم بذلك؟ هم فعلوا ذلك بكلّ بساطة!" جاءني الصوت من وسط تساؤلاتي المشوّشة.

رتّبت لزيارة "عائلة سيّدة الشمس" في عيد الميلاد، قطعت تذكرة الحافلة وغادرت كالمار بعد شكري للعائلة التي استقبلتني هناك. وعند وصولي إلى استوكهولم، اتجهت مباشرة إلى محطة تدعى "سلوسن" ومنها انتقلت بالحافلة باتّجاه منطقة "فارمدو"، هناك كانت "عائلة سيّدة الشمس" بانتظاري في موقف الحافلات. مشيت معهم نحو المنزل، الذي كان يبعد عن الموقف مسير حوالي ٢٠ دقيقة على الأقدام. وفي الطريق إلى المنزل أخذوا يلفتون انتباهي إلى نقاط علّام ويشرحون لي كيف سيكون طريقي حينما أنوي الذهاب بالحافلة إلى استوكهولم، وكأنّهم كانوا قد جزموا سلفاً بأنّني سوف أقيم عندهم.

وصلنا إلى المنزل الذي كان أشبه بفيلا من طابقين يحلم كلّ سوريّ أن يمتلك مثلها، منزلٌ بأرضيّات خشبيّة بالكامل، وبإطلالة مباشرة على البحر، يحوي مجموعة من الغرف المستقلّة، وغرفة نوم في الطابق

السفليّ تنفرد بذاتها، إضافة إلى غرفة مكتب، ومكتبة، وغرفة غسيل، ومستودع. في حين اشتمل الطابق العلويّ على مطبخ كبير مفتوحٍ على غرفة المعيشة من إحدى جهاته، وثلاث غرف نوم مستقلّة تجمعها صالة صغيرة في الوسط فيها البيانو، أمّا الحمّام فهو مشترك. كان لدى العائلة أربعة من الأبناء وقطّة، أحدهم متزوّج ويعيش في بريطانيا، وثلاثة منهم ما يزالون يعيشون في السويد، انتقل أحدهم مؤخّراً للعيش في منزله الخاص، وهو الذي شغرت غرفته وأصبح من المفترض أن أكون أنا نزيلها. أما الباقيان من أبنائهم، وهما فتاة وفتى، فهما يعيشان في المنزل، لكلّ منهما غرفته الخاصّة في هذا الطابق. كانت معظم واجهات المنزل من الزجاج، فأينما نظرت وقعت عيناك على صفحة البحر اللامعة كالمرآة.

عاينت الغرفة التي أرادوها لي. إنّها غرفة جميلة جدّاً، لها بابان أحدهما يطلّ على الصالة المشتركة بين الغرف الثلاث، والآخر يقود إلى درج خشبيّ ينزل نحو البحر. كانت الغرفة مجهّزة بالكامل، تضمّ كنبة تتحوّل سريراً وسجّادة وتلفازاً وخزانة ومكتباً وبعض الرّفوف. أخبرني السيّد والسيّدة أنّ هذه الغرفة كانت لابنهما الذي انتقل للتوّ من منزلهما، وأنّها ستكون غرفتي إذا ما قرّرت العيش معهم. كنت ما أزال تحت تأثير الصدمة! هل أنا ذلك الطفل المدلل

الـذي يريـد أن يعطيـه الله أكثـر ممـا يسـتحقّ؟ ولمـاذا أكـون أنـا بالـذات؟

كان يمكـن لتساؤلاتي أن تستطرد أكثر لـولا أن الصـوت جاءنـي سـريعاً وحاسـماً: "اصمـت، وكفـاك انتقاصـاً لذاتـك!"

أقمـت تلـك الليلـة عندهـم، وطرحـت عليهـم فكرتـي مـرّة أخـرى:

- لا أعتقـد أنّ ثمّـة شـيئاً مجانيّـاً هنـا فـي السـويد، وأنـا حقّـاً متفاجـئ مـن كرمكـم هـذا، لـذا أخبرونـي رجـاء، مـاذا تـودّون منّـي مقابـل سـكني فـي منزلكم؟

أكّـدوا لـي أنّهـم لا يريـدون شـيئاً بالمقابـل، ولكـي يرفعـوا عنـي الحـرج، طلبـوا منّـي مبلغـاً رمزيـاً مقابـل الغرفـة يعـادل مئـة كـرون، وأن أقـوم بطبـخ نـوع مـن الأكلات العربيـة مـرّة فـي الشـهر! تفاجـأت فأجبـت:

- مئـة كـرون؟ أي مـا تعـادل ١١ دولاراً، لغرفـة يمكن أن تؤجّر بأربعة آلاف كرون في الشهر!

- نحـن نعلـم ذلـك، لكـنّ سـيّدة المنـزل كانـت قـد عملـت فـي دائـرة الهجـرة واحتكّـت بالعديـد

من الأشخاص وتعرف أنّ المبلغ الذي يحصل
عليه اللاجئ لا يتعدّى سبعمائة كرون شهرياً!

من هناك كان عليّ أن ابدأ رحلة جديدة، رحلة التعمّق في الثقافة السويديّة من الداخل، رحلة الصدامات الحقيقيّة بين الثقافتين، العربيّة والسويديّة، رحلة الإحساس بأنّ لديّ عائلة، رحلة نحو الاستقرار وسط مرحلة من الضياع، رحلة نحو التعلّم.

"كم أنت محظوظ يا وسام! فبالرغم من كلّ ما مررت به، وبعد مضيّ أربعة أشهر فقط على وجودك في السويد، يُفتح لك باب من أبواب الجنّة، ها أنت تعيش في واحد من أفضل الأماكن في السويد، في منزل فخم يطلّ مباشرة على البحر، مع عائلة سويديّة تحترمك رغم أنّك عربيّ، في الوقت الذي قد تخيف كلمة عربيّ بشراً لا تُحصى أعدادهم!" الآن نبرة الحسد بدت واضحة في الصوت القادم من أعماقي!

*****

استوكهولم

نشيد سلامٍ

وزهرة الثلج

استوكهولم

أبحر في زرقة مياهك وبرد شتائك

لألتمس الدفء من رائحة قهوتي.

أتوهّج اعترافاً بالحبّ

لأكتشف مدينة الحلم فيك

لأرمي مفكّرتي في مقاهي الغياب

وأقرأ ميلاد النّهار من جديد.

(1)

كانت الحياة عند "عائلة سيّدة الشمس" تشبه تجربة الإبحار الى جزيرة جميلة نائية، بعيدة بقدر يفسّر عناء الرحلة، وجميلة إلى درجة نسيان ذاك العناء. منحتني العائلة مساحتي الخاصّة فكان ذلك أوّل ما أشعرني بسعادة داخليّة لأنّهم يحترمون خصوصيّتي ومساحتي الشخصيّة، فيعترفون أنّ تلك الغرفة لي،

ومنذ يومي الأوّل هناك زوّدوني بكافّة التعليمات؛ أين سأضع أغراضي الخاصّة، حتّى أنّهم خصّصوا لي رفّاً في الثلّاجة لأضع فيه طعامي الخاصّ، وكذلك أحد أدراج المطبخ!

كان سيّد المنزل يعمل في مدينة أخرى ممّا يضطرّه للسفر أياماً عدّة أحياناً، في حين كان باقي أفراد العائلة يعملون ضمن استوكهولم، فهم يغادرون المنزل منذ الساعة السادسة صباحاً، ولا يعودون قبل الساعة السادسة أو السابعة مساءً. فكنت أقضي أغلب الأوقات في المنزل مع أصغر فرد من تلك العائلة، وهو تلك القطّة التي تبدو غير أليفة مطلقاً، فقد كانت تشبهني في رغبتها بالبقاء وحيدة، فتكتفي أن تمرّ بغرفتي أحياناً، تبقى بضع لحظات ثم تغادر. وضحكت حين عرفت المصادفة الغريبة؛ أنّ يوم ميلادها يتوافق مع يوم ميلادي في الثلاثين من شهر كانون الثاني/يناير، فكان أن احتفلنا بعيد ميلادنا معاً باحتفاء من باقي أفراد الأسرة.

في أول أيام إقامتي معهم، بقيت مشغولاً بالبحث عن سبب مقنع لاستقبالهم لي، حتى أنّي عدت وناقشت الأمر مع سيّدة المنزل مرّات ومرّات، وظلّت الإجابة التي أتلقّاها دائماً: أنّهم، بكلّ بساطة، أحبّوا القيام بأمر إيجابيّ مثل مساعدة شخص في ضائقة، فكيف إذا ما كان هذا الشخص لطيفاً ويستحقّ كلّ ما يفعلونه

لأجله، على حدّ وصفهم لي، كما أنّهم على يقين أنّي قد أضطرّ للعيش معهم سنة كاملة حتى أشقّ طريقي في المجتمع الجديد. لم تكن تلك الإجابات كافية لإقناعي تماماً بهذا التصرّف النبيل، وبقيت أفكّر بين الحين والآخر هل حقّاً كان الأمر كما حدث بالفعل؟

أمّا السؤال الذي لم يكن يفارقني في تلك الفترة: ترى ما هو التصرّف الذي يليق بمثل هذه المواقف هنا؟ كنت أحاول أن أفهم ما يحقّ لي وما ليس لي به شأن، كي أتمكّن من جعل سلوكي لائقاً في مكاني الجديد من البداية. في الوقت ذاته كنت أعتقد أنّ إحدى طرق ردّ الجميل لتلك الأسرة الكريمة لن يكلّفني سوى بعض التعديلات على سلوكي ليكون متناسباً مع أسلوب حياتهم، فأكثر ما يهمّني الآن ألّا أكون شخصاً ثقيلاً على أيامهم الهادئة. وكثيراً ما كان يقودني هذا الهدف إلى لزوم الصمت في بعض المواقف، حذراً من أنّني قد لا أُوفّق في صياغة عباراتي كما يقتضي ذلك الموقف! وهذا ما أتعبني كثيراً، وجعلني في قلق ينغّص سكينتي، حتى أنّني كنت أستطرد في تأمّلاتي فأسأل نفسي:

ترى كيف ستكون الحال فيما لو تبادلنا الأدوار بيننا؟

كطفل تركه والداه وحيداً، كانت حالي لدى "عائلة سيّدة الشمس"، متخبّطاً بين الثقافة التي ربيت عليها

وبين الثقافة الطارئة التي عليّ أن أعيش في كنفها الآن.

وربّما كان هذا القلق كلّه مردّه عُقدي الكثيرة التي جئت أحملها من مجتمعي البائس الضارب في الكبت والحرمان، فسرعان ما علمت أنّ عائلة سيّدة الشمس، مثل معظم عائلات السويد، يتمتّعون بأعلى درجات اللباقة الاجتماعية، والتي لا تسمح لهم بتنبيهي حين أخطأ في تعبيرٍ أو تصرّف ما، لذلك كان عليّ أن أقرأ ملامح الوجوه كلما نطقتُ بحرف، وكان عليّ أن ألج عميقاً إلى مشاعرهم من خلال انطباعهم عن كلّ سلوك يبدر منّي، وبذلك فقد أنهكتُ عقلي بتحليل كلّ تصرفاتهم وأنهكت ذاكرتي بحفظ كل التفاصيل لديهم حتى وإن كانت عابرة.

"ارحم نفسك يا عزيزي! فأنت تبدو كذلك الغراب الذي حاول تعلّم مِشية الطاووس، فكان فشله في مهمّته ذريعاً؛ فلا هو نجح في تعلّم المشية الجديدة، ولا استطاع أن يحافظ على مشيته الأصليّة، فصار يزوك بمشية ليس ثمّة ما هو أقبح منها.

أنت تفكّر في الأمور أكثر ممّا ينبغي، فأنت تخشى الخطأ قبل أن يحصل بكثير، أرجوك، لا تفرّط بثقتك بنفسك، وتذكّر أنّك لم ترمِ بنفسك

عليهم، بل هم الذين أرادوا استضافتك بشدّة، والصمت لا يعني بالضرورة السكوت على الخطأ، فكثيراً ما يكون الصمت ارتياحاً أو اقتناعاً أو ذهاباً في عمق التفكير. عليك أن تشغل نفسك بشيء ما يفيدك ويخرجك من لجاجة تأمّلاتك الهوجاء، فالوحدة والفراغ يجعلانك تفكّر في الأشياء بطريقة سخيفة، وأنت تظنّها ذات قيمة" كانت النصيحة القادمة من الأعماق تمسك بيدي وتقودني نحو ركن هادئ ومريح!

كانت الاختلافات الثقافيّة مع "عائلة سيّدة الشمس" شاسعة ومتعدّدة. فعلى سبيل المثال، كنت معتاداً على تناول طعامي وحدي بسبب اختلاف أوقات وجباتنا، وفي يومٍ ما وصلتني الرسالة التالية على هاتفي المحمول من أحد أفراد العائلة: ما رأيك أن نتناول العشاء معاً هذا المساء؟ أجبت مباشرة: بكلّ سرور!

رغم أننا نعيش في المنزل نفسه، إلّا أنّهم دعوني لمشاركتهم الطعام بأسلوب لم أعتد عليه في عادات بلدي، ربما أرادوا منحي فرصة للتفكير في عرضهم دون إحراجي بشكل مباشر، أو ربما يكون جوهر الرسالة هو توضيح أسلوبهم في الدعوة. هذه الأمور البسيطة كانت ترهقني عند التفكير بها ومقارنتها بتقاليدي التي أحملها معي. ففي ثقافة مجتمعي قد

يعتبر هذا التصرّف بعيداً عن أصول كرم الضيافة الحقّة، ويمكن أن يُفسّر حسب منطقنا أنّه استخفاف بأصول الدعوة وبالمدعوّ معاً، وبالتالي قد يخلق شرخاً بين أفراد المجتمع. التفكير بتلك المواقف الحياتيّة اليوميّة، غالباً ما كان يلقي بظلاله السلبيّة عليَّ ويجعلني أقلّ حيويّةً وفرحاً، بل وأكثر حساسيّة. فعلى الرغم من اللحظات السعيدة التي جمعتني مع أفراد عائلة سيّدة الشمس، وبالأخصّ مع سيّدة المنزل ذاتها، إلا أنّني بقيت أجهل الطريقة المثلى للتصرّف الذي ينقذ روحي من التوتّر والارتباك!

أحياناً كان يكفي أن يمرّ أحد أفراد العائلة بجواري دون أن يحدّثني، ليجعل أفكاري مشوّشة، ولأقوم بجرد كامل لتصرّفاتي في ذلك اليوم، مع خشية دائمة أنّني ربّما فعلت شيئاً خاطئاً.

”تسمو بك الروح حيناً وتختصر المسافات في أزقة الحياة. وتحترق الدمعة في مقلتيك حيناً آخر. ولترمم بقايا ذاتك التائهة في مخاض التفاصيل. تُكلل حاضرك بالصمت خوفاً من إثم الخطيئة، ويتربّع الشكّ في حناياك باحثاً عن إثبات صحّة افتراضاتك. تسترق اللحظة لترضي ذاتك بمتعة التأويل. أنت الباحث عن أنت!“ بعبارات تشبه شطح الصوفيّة محضني صوت

روحـي هـذا التعقيـب علـى أفـكاري التائهـة!

كانـت سيّدة المنـزل هـي الأكثـر قربـاً منّـي دون جميـع أفـراد الأسـرة، تأتـي بعدهـا القطّـة التـي كانـت قـد ألفتنـي وأصبحـت أشـبه ب "ويلسـون" فـي فيلـم توم هانز الشـهير Cast Away، كلاهمـا كانتـا تسـمعانني وتحاورانني حتـى النهايـة. أحيانـاً كنّـا أنـا وسـيّدة المنـزل نسـافر فـي قطـار الذكريـات معـاً، فهـي تعلـم تمامـاً معنـى أن تتـرك كلّ مـا تألفـه ثـم ترحـل لتعيـش فـي مجتمـع آخـر، هـي نفسـها عاشـت هـذه التجربـة مرّتيـن فـي حياتها، مـرّة حين سـافرت طفلـة مـن رومانيـا إلـى إسـرائيل، ومـرّةً عندمـا هجـرت إسـرائيل لتعيش فـي السـويد. كانـت تضحك معي علـى الفتـرة المجنونـة التـي تطلّبهـا الحصـول علـى إقامـة فـي السـويد، وكنـت أضحـك معهـا علـى بعـض مفارقـات المجتمـع السـويديّ وثقافتـه. وكنـت أشـاركها بمشـاعري فـي مختلـف مراحـل تكيّفـي مـع المجتمـع السـويديّ. ولهذا كلّـه فقد اعتبرتهـا الأقـدر علـى فهم أفـكاري ومشـاعري مـن جميـع أفـراد أسـرتها الآخريـن.

فـي الوقـت الـذي كانـت علاقتـي بسـيّدة الشـمس جيّـدة جـدّاً، كانـت علاقتـي ببقيّـة أفـراد الأسـرة تقتصـر علـى إلقـاء التحيّـة وبعـض النقاشـات العابـرة التـي كانـت تـدور تحـت مظلّـة الاحتـرام وملامـح الارتيـاح المتبـادل، إلّا أنّ طابعهـم فـي التعاطـي مـع الأمـور كان أكثـر جفـاءً

وأقلّ ليونة منه عند سيّدة الشمس، التي أضفى عليها اختلاف الانتماءات والثقافات مدىً شاسعاً يتّسع لاستراحة ذكريات عجيبة، بينما غلب على البقيّة طابع الصمت والحياد. وهذا الأمر كثيراً ما أعاد إليّ حيرتي وارتباكي عن مدى قبولي أو رفضي شخصاً غريباً وضيفاً ثقيلاً عليهم! ربّما كان هؤلاء الأشخاص أكثر تجسيداً للطباع السويديّة من سيّدة المنزل، فمعروف عن أهل السويد توخّي الحذر في الانفتاح على الغرباء، والميل إلى الصمت وعدم زجّ أنوفهم فيما لا يشكّل تماساً شخصيّاً مع كلّ منهم، كلّ ذلك طبعاً يصنّفه العربيّ القادم من بلاد الدبكات والأهازيج الشعبيّة على أنّه برود اجتماعي. لذلك كان من الصعب عليَّ معرفة حقيقة ما يشعر به الآخر نحوي، فربّما يجيبك بعضهم بكلمات طيبة جدّاً مع أنّه غاضب منك فتراودك الحيرة، على أيّ الوجهين يجب أن أحكم؟ على ما ينكشف لي أم على ما تبطّنه الأسارير؟!

إجمالاً، سمحت لي إقامتي لدى "عائلة سيّدة الشمس" بالتعرّف على التقاليد السويديّة المرتبطة بالمناسبات الوطنيّة والدينيّة مثل حفلات منتصف الصيف، عيد الميلاد وعيد الفصح، إضافة إلى ذلك كانت بعض العبارات العابرة والتعليقات غير المباشرة والمواقف التي تحدث مع أفراد الأسرة تساعدني على فهم

طريقة التصرّف في المجتمع السويديّ، فعلى سبيل المثال، وفي إحدى المرّات، سألني أحدهم: أتريد قهوة؟ فأجبت: لا، ومن ثم سأل شخصاً آخر، فأجابه: "لا، شكرا Nej, TACK!" مع التشديد على كلمة شكراً. وكأنّه يرشدني بشكلٍ غير مباشر إلى ما كان يجب عليَّ قوله. مثل تلك التفاصيل الصغيرة في العديد من المواقف منحتني الفرصة لفهم أشياء متنوّعة من الثقافة السويديّة.

لا أعلم ما الذي خطر لي عندما وعدت عائلة سيّدة الشمس بدعوتهم لتناول بعض الأطعمة العربيّة. ربّما لأنّ الطعام يُعتبر من مكوّنات الهويّة الثقافيّة كالرسم والموسيقى ويساهم مثلها في رسم ملامح شخصيّة الإنسان، فكان لا بدّ أن أعبّر عن نفسي بشيء يروق للناس من حولي. وامتثالاً لوجوب الوفاء بالوعد رحت أشاهد بعض المقاطع على الإنترنت، وأحاول تقليد طريقة تحضير الطعام، وحين نفد صبري من تعلّم شيء لم أشعر يوماً بمتعة القيام به، دعوت العائلة على العشاء، ناكثاً الوعد الذي كنت قد وعدت به؛ أن أدعوهم لتذوّق الطعام العربيّ مرّة كلّ شهر. في تلك الليلة قمت بتحضير أطباق المقبّلات والوجبة الرئيسيّة والحلويات، والتي لم يكن ينقصها الخبرة بقدر ما كان ينقصها العشق، لذلك لم تكن تشبه صورها على الإنترنت ورغم ذلك حصلت

على إعجاب أفراد العائلة، وإن كان معظمه من باب الإطراء لكنّه كان كافياً ليشعرني بتقديرهم جهودي. خلال فترة إقامتي عند عائلة سيّدة الشمس لم أعمل في المشروع الذي أتيت من أجله في أوّل مرّة زرت استوكهولم، وهذا أتاح لي متّسعاً من الوقت لتعلّم اللغة السويديّة، ومتابعة شؤون معهدي في سوريا، والاستمتاع بمشاهدة الأفلام، منتظراً موعد التحقيق في قضية اللجوء الخاصّة بي في دائرة الهجرة السويديّة.

*****

(2)

مضت أيام وأيام وأنا ما زلت أنتظر قرار إقامتي، فكان عليَّ أن أملأ وقتي بشكلٍ أو بآخر. قرّرت أن أبدأ بالتعرّف على استوكهولم، لذا قمت بشراء تذكرة مواصلات شهريّة تسمح لي بالتنقّل في كافّة وسائل المواصلات في مقاطعة استوكهولم. كلّ صباح كان عليّ المشي مسافة كيلو متر ونصف حتى موقف الحافلة مهما تكن حالة الطقس، وذلك انطلاقاً من المثل السويديّ القائل "ليس هناك طقس سيّء، بل هناك ملابس سيّئة" ولحسن حظّي أنّني كنت قد اشتريت عندما كنت في كالمار حذاءً ومعطفاً ممتازين.

كنت يوميّاً أستقلّ الحافلة من "فارمدو" إلى محطّة المترو "سلوسن"، ومن ثم أستقلّ المترو من المحطّة الأولى إلى الأخيرة، كانت مهمتي اليوميّة متمثلة بما يلي: أن أنصت إلى ما يقوله المذياع في المترو وأتأمّل وجوه المسافرين في أوقات مختلفة من النهار. أتأمّل ذلك المسرع باتجاه عمله، وذلك اللاهي برفقة أصحابه، وذلك الشارد المهموم مثلي، وذلك الغاضب، وذلك الضاحك المقهقه، وذلك الذي يغازل حبيبته، وهاتين الفتاتين المولّهتين عشقاً، وهذا الذي يسند رأسه على كتف زوجته. كنت أطلق أحياناً العنان لمخيلتي بكلّ تلك التفاصيل التي أراها محاولاً اقتراح أسباب لغضب هذا وفرحة ونفور هذا وانشراح ذاك.

بالطبع كنت أختار كلّ يوم خطّاً جديداً للمترو وأمضي كتلميذٍ سائحٍ بين المدارس دون معلّم يصحّح أخطاء واجباته اليوميّة ودون اختبارٍ ينتظره وإنّما ما عليه سوى أن يجهّز نفسه للانطلاق. توفّر المكتبات في جميع المناطق كان بمثابة الاستراحة بين حصّتين، فكنت كلّما ضجرت من التنقل في المترو أنزل في أقرب محطّة وأقصد مكتبة المنطقة للقراءة، وغالباً ماكنت أختار الكتب البسيطة باللغة السويديّة، كملخّص لقصّة قصيرة وما شابه. وبالطبع لم أكن أملك المال الكافي لزيارة أماكن تمنحني متعة أكبر من ذلك. كلّ ما كان يهمّني هو أن يمرّ وقت الانتظار الفارغ وأن

أستطيع الحصول على إقامة تسمح لي بالتسجيل في مدرسة لتعلّم السويديّة.

بالرغم من أنّ نشاطي اليومي هذا لم يكن يحمل في طيّاته كثيراً من المتعة والشغف، لكنّ ذلك ساعدني جدّاً أن أبقى بصحّتي العقليّة فلا أصاب بجنون الانتظار. غالباً ما كنت أقوم برحلاتي وحيداً، باستثناء بعض اللقاءات العرضيّة في محطّة للقطار أو في محلات تناول الوجبات السريعة، أو لقاء أحد الأشخاص الافتراضيين الذين تواصلوا معي. كنت ألتقي بعضهم أحياناً لنشرب القهوة معاً، أو للتجوّل في المدينة. عديد ممّن التقيتهم ما كانوا يثيرون فضولي، لأنّ ما نبحث عنه لم يكن مشتركاً بيننا، فالفتاة التي تسعى إلى المتعة خاب أملها، لأنّه وسط هذا الفراغ كان خلق المتعة عندي زائداً عن اللزوم لأنّ فاقد الشيء لا يعطيه. وذاك الذي يريد زوجاً بالطبع لم أكن الشخص المناسب لتحقيق حلمه. وكذلك تلك السيّدة التي أتعبتها الوحدة وتريد بدء رحلة جديدة في الحياة. كلّ شخص التقيته، علّمني شيئاً جديداً، وبين هؤلاء من أبدى إعجابه بكيفيّة معالجتي الأمور في المجتمع السويديّ فدعمني، وبينهم من كان مدججاً بأفكار عنصريّة ضدّ اللاجئين عموماً، لدرجة أنّه يظنّنا كنّا نقطن الكهوف قبل المجيء إلى السويد، متناسياً أنّ دمشق وحلب تعتبران من أقدم المدن في التاريخ. وبين هؤلاء من

قـدّم المسـاعدة فـي تعلّـم اللغـة دون مقابـل، وبينهـم مـن أصبـح صديقـاً لـي فيمـا بعـد.

"هنـاك دائمـاً مَـن ينسـى جمـال الـورود ويفكّـر فقـط بأشـواكها! لا تفـزع إذا مـا تـمّ تقييـم معرفتـك مـن خـلال مسـتوى لغتـك وطريقـة نطقـك للكلمـات. ولا تنخـدع يـا صديقـي بالكـمّ الهائـل مـن المديـح الـذي تتلقّـاه، فهـذا المجتمـع مغـرم بالمجامـلات علـى مـا يبـدو". يصلنـي الصـوت منبّهـاً.

أحـد المواقـف التـي حصلـت معـي فـي رحلتـي مـن "فارمـدو" إلـى اسـتوكهولم، حيـن صعـدت الحافلـة جلسـت فـي أقـرب كرسـي فـارغ بجـوار أحدهـم، فرمقنـي بنظـرة أوحـت لـي بأنّـي ارتكبـت خطـأً فادحـاً، فخفـت أن أكـون قـد دسـت علـى قدمـه أو اصطـدم جسـدي بـه، هـذا الموقـف عـاد بذاكرتـي إلـى العينيـن الزرقاويـن اللتيـن حدّقتـا بـيّ سـابقاً عندمـا أتيـت بالقطـار إلـى اسـتوكهولم للمـرّة الأولـى. ومـن خـلال مراقبتـي للآخريـن في مـرّاتٍ عديـدة اسـتنتجت أنّ السـويديين اعتـادوا علـى أن يجلـس الشـخص فـي كرسـيّ مـزدوج، ولا يفضّـل الجلـوس جـوار أحـد الـركاب قبـل انشـغال كلّ الكراسـي الفارغـة، وذلـك مـن منطـق احتـرام المسـاحة الشـخصيّة المتاحـة لـكلّ منهـم. فاجأنـي هـذا المنطـق فـي البدايـة، فكيـف لشـخص قـادم مـن مجتمـع آخـر أن يخطـر ببالـه مثـل هـذه

التفاصيل؟ كيف لشخص اعتاد العيش في مدينة تعجّ بالحيويّة والحياة كدمشق أن يدرك هذه التفاصيل دون أن يخبره أحد بأنّ عليه التصرّف بالطريقة السائدة وإلّا اعتبر غير مهذّب؟!

ومن الأمور التي عليك التقيّد بها جيّداً في السويد، أنّك حينما تتحدّث إلى أحدهم عليك أن تترك مقدار ذراع مسافة بينك وبينه، مسافة شخصيّة يجب احترامها حتى ولو كنت على علاقة وطيدة به، وهذا أمر آخر جديد على ثقافتي أنا القادم من مكان يزدحم فيه الناس في كلّ الدروب المؤديّة إلى لقمة العيش، وفي كلّ الساحات التي توزّع الفرح على الأطفال. ففي سوق الحميدية[١٤] مثلًا قد يضطرك الأمر في أوقات الازدحام أن تعبر بين شخصين يتكئ أحدهما على الآخر، فكيف سيكون بمقدورك أن تترك مسافة ذراع بينك وبين أيّ شخص يجاورك!

في كثير من الأحيان كان عليّ أن أدفع ثمن كلّ درس موقفاً محرجاً حين يتضارب أسلوبي مع العرف السائد، وأحياناً قليلة كنت أجني ثناءً وشكراً حين تلتقي تقاليدنا. وكأنّي كنت أطبّق المثل الشعبي الشائع لدينا "الإنسان يتعلم من كيسه"، في إحدى المرّات،

١٤- سوق الحميدية: من أهم وأشهر أسواق دمشق القديمة، وأكثرها جمالاً ورونقاً، وهو مسقوف بالكامل بسقف معدنيّ فيه ثقوب صغيرة تسمح أن ينفذ منها ضوء الشمس أثناء النهار وهو مبلّط بالحجر - البازلت الأسود - ويعد ملتقى الزائرين والسيّاح من كافة بقاع الدنيا

وبينما أنا في الحافلة وقد غصّت بالركّاب، صعدت سيّدة سبعينيّة، وقفت في الممرّ متمسّكة بحافّة مقعدي بعفويّة تامّة، ودون أدنى تفكير وجدت نفسي أعود إلى ذاتي التي تربّت على احترام كبار السنّ ووجوب مساعدتهم، نهضت من مقعدي وطلبت منها الجلوس مكاني بكلّ احترام، منتظراً أن يرتسم على وجهها الارتياح والامتنان، فلم يكن منها إلّا أن شكرتني رافضة الجلوس دون أيّ مجاملة ولو بالكلام، بل إنّ ومضة من العناد والتحدّي لمعت في نظراتها وكأنّها تقول لي: هل تظنّ نفسك قادراً على الوقوف أكثر منـي؟. كان الموقف أشبه برشقة من الماء البارد على وجهٍ يتوخّى الدفء. قررت منذ ذلك اليوم عدم تكرار هكذا موقف إلّا في حال كان الشخص لا يقوى على الوقوف!

المشاعر التي كنت أعيشها كلّ لحظة في كافّة التفاصيل الدقيقة كانت تعلّمني المزيد عن الطريقة المثلى للتعامل مع أناس المجتمع السويديّ. وغالباً ما كنت أجلس على الدرج الخشبيّ المجاور لغرفتي والمنحدر نحو الغابة والبحر، أدخّن وأفكّر مليّاً بتلك الأحداث والمشاعر. فإذا ما سنحت لي الفرصة كنت أسأل سيّدة الشمس عنها، ويوماً بعد يوم صرت أفهم طريقة تفكير أفراد عائلة سيّدة الشمس التي مهّدت لي الطريق لفهم المجتمع السويديّ بمجمله.

”واحدة من أكثر ميّزات العلم إثارة هي عمليّة استكشاف العالم لاكتساب فهم أكبر للكيفيّة التي تجري بها الأمور من حولك. علماً أنّ بعض تلك الاكتشافات قد تتحوّل إلى تطبيقات عمليّة، وأنّ كثيراً منها سوف يوفّر الأساس للابتكارات المستقبليّة في كيفيّة فهمنا الناس والعالم. هذا صحيح بشكل خاصّ في العلوم الاجتماعيّة، حيث تكون الاكتشافات غالباً أقلّ وضوحاً وتنشأ عن غير قصد من عمليّات وملاحظات غير متوقّعة. تذكّر قانون ثورندايك للتأثير، ممّا يعني أنّك سوف تكرّر السلوك ذاته ما دامت عواقبه مرضية مع تجنّب السلوكيّات التي يكون لها عواقب سلبيّة. في المقام الأوّل يجب أن تدرك ما هو المجتمع الذي أنت فيه ثانياً، عليك أن تتكيّف وأن تبدّل بعض سلوكيّاتك لتتناسب مع الوسط الذي تعيش فيه، ولكن أيّ سلوكيّات متجذّرة فيك عليك الاحتفاظ بها وأيّها يجب عليك التخلّي عنها في هذا المجتمع الجديد؟ عليك أن تفكّر بالخيارات المتاحة وتتجاهل العقبات. فلو أنّ نارسيس رأى صورة أخرى غير صورته في مرآة البحيرة لما عشق ذاته، لكنّه لم يكن يملك خياراً آخر! أنت من يجب أن يصنع الخيارات وهنا يكمن التحدّي يا حكيم!“ رزمة جديدة من فلسفات صوتي الداخليّ اندلقت فوق هامتي.

فـي تلـك الفتـرة كنـت أعـدّ نفسـي للانطلاقـة الواثقـة وكنـت أدرّب عقلـي علـى المنطـق الـذي يقيـه مـن الضياع والرضـوخ لتأثيـر الانتقـادات المدمّـرة للـذّات واسـتيعاب الآراء التـي ليس لهـا وجهـة سـوى المزيـد مـن الخـوف والإحبـاط، وهـذا ماكنـت أحسّـه حيـن التقـي أبنـاء لغتـي هنـا، وكان هـذا سـبباً كبيـراً جعلنـي أتقصّـد الابتعـاد عـن هـؤلاء النـاس، حرصـاً منّـي علـى قـوت حلمـي مـن الأمـل والـذي كنـت أجمعـه بمشـقّة كلّمـا تبعثـر، مقابـل مـا أسـمعه مـن تقريـض ودعـم الأشـخاص المنتميـن إلـى الثقافـات الأخـرى.

"اعتـرفْ أيّهـا المكابـر، اعتـرف بـأنّ أحـد أهـمّ الفروقـات بيـن ثقافـة العرب والثقافـة الغربيّـة هـو الثقـة بقـدرات الفـرد؟ فالعـرب لا يعـونَ ضـرورة أن يدعـم بعضهـم بعضـاً بمـا يكفـي، فـإذا مـا نجـح أحـد منهـم رأيـت كثيريـن يسـرعون ليحاولـوا تثبيطـه والتقليـل مـن أهميّـة نجاحـه، وأقلّـه أنّهـم يعـزون نجاحـه ذاك إلـى فـرص الحـظّ والظـروف والمصادفـات، وليـس لجهـوده التـي استمات فـي بذلهـا. اعتـرف أيّهـا المكابـر بـأنّ الـذات العربيّـة مدمّـرة بشـكل منظّـم إلـى درجـة فقـدان القـدرة على دعـم الآخريـن، لأنّ فاقـد الشـيء لا يعطيـه. مَـن دمّـر الـذات العربيّـة فيكـم، وعلّمكـم أنّ الفقـر هـو حالـة مـن القَـدر ربّمـا تسـتحقّ التغنّـي بهـا وليسـت

عـاراً علـى قـادة الأمـم الجائعـة؟ مَـن زرع فيكـم هـذا الإيمـان بالمعانـاة وكأنّهـا الطريـق الأقصـر إلـى الجنّـة؟ مَـن جعلكـم تحلمـون بالحصـول علـى جنسـيّة أوروبيّـة متخلّيـن عـن هويّتكـم الضاربـة فـي عمـق تاريـخ الإنسانيّة؟ وأنتـم تـرون بأعينكـم أنّ متشـرداً أو مدمنـاً علـى الكحـول فـي أوروبـا يمكـن أن يحظـى بتقديـر عظيـم فـي بلـدان العـرب، لا لشـيء سـوى لكونـه قادمـاً مـن أوربـا. فكـن حـذراً، وابتعـد عـن أبنـاء جلدتـك مسـافة كافيـة حتـى لا تفقـد البقيّـة القليلـة الباقيـة مـن ثقتـك بالـذات العربيّـة وبأنّهـا إذا مـا تغيّـرت الظـروف يمكنهـا أن تنهـض فتذهـل الأمـم بأجمـل حـالات الإنسـانيّة التـي ظلّـت مقموعـة زمنـاً طويـلاً."

واصـل الصـوت فـي خلـدي إرشـاداته ومواعظـه!

كنـت علـى يقيـن فـي تلـك الفتـرة مـن أنّ مشـاعري متقلّبـة كتقلّـب طقـس استوكهولم، فبيـن مشـاعر اليـأس والوحـدة والفـراغ والهِجـران، كان هنـاك محطّـات للسـعادة والأمـل. وكنـت أعلـم أنّ مشـاعر القلـق والتوتّـر والتعـب التـي عانيـت منهـا مـرّات ومـرّات كانـت مـا تـزال فـي الحـدّ الطبيعـيّ لشـخص اختبـر مـا اختبرتُـه فـي سـوريا إضافـة إلـى ذكريـات طريـق الهجـرة. وعلـى الرّغـم مـن يقينـي هـذا، ومـن حرصـي علـى مـلء الوقـت بمختلـف النشـاطات، تفاديـاً للقلـق الـذي يحملـه الفـراغ مـن

المستقبل، إلّا أنّني كثيراً ما تملّكني اليأس والانكسار حدّ الاكتئاب.

كانت عائلة سيّدة الشمس قد ساعدتني في إيجاد مكان للتدريب في أحد مراكز الدعم النفسيّ الذي يعمل مع لاجئين يعانون من اضطرابات ما بعد الصدمة في استوكهولم. حيث سمحت لي مديرة ذاك المركز أن أكون مع الكادر يوماً واحداً كلّ اسبوع. وبالرّغم من أنّي لم أكن على تماسّ مباشر مع المراجعين إلّا أنّ وجودي هناك جعلني أطّلع على طريقة عمل الاختصاصيّين النفسيّين في السويد.

في أحد الأيام وبينما كنت في طريقي إلى المركز، ضربت السويد عاصفة ثلجيّة شديدة أدّت إلى إغلاق طرق المواصلات جزئيّاً بين استوكهولم وفارمدو حيث أعيش. في ذاك اليوم تجمّع كثير من الأشخاص ينتظرون الحافلات في محطّة سلوسن، وكان جدول الباصات يتبدّل بين لحظة وأخرى على غير العادة وربّما انتهى الأمر بإلغاء بعض الرحلات وأنا أنتظر. ما أثارَ دهشتي في ذاك اليوم هو كيفيّة تصرّف الناس في مثل تلك المواقف.

كنت أعلم أنّ ردود أفعال الأفراد إزاء الأزمات يختلف بحسب درجة حساسيّتهم وخبرتهم في التعامل مع الأزمة وحسب طبيعة الأزمات وتكرارها في بلادهم.

ففـي حيـن اعتـدت أن أرى النـاس مصطفّيـن بانتظـام دون تذمّـر مـن الانتظـار، مـع إظهـار قـدر عـالٍ مـن احتـرام الآخريـن والإحسـاس بهـم دون التدافـع للصعـود إلـى الحافلـة، لكـنّ يـوم العاصفـة الثلجيّـة كان مختلفـاً؛ رأيـت النـاس يتدافعـون عنـد قـدوم إحـدى الحافـلات، ورأيـت الظـروف القاسـية تُسـقط ظلالهـا علـى سلوك السـويديين الـذي بـدا مناقضـاً لسـلوكهم فـي الظـروف الطبيعيّـة، فغلبـت الفوضـى علـى النظـام وبـدت الجمـوع غرقـى فـي حالـة مـن نفـاد الصبـر، فـكلّ شـخصٍ يحـاول النجـاة بنفسـه ولـو كان ذلـك علـى حسـاب نجـاة طفـلٍ أو شـيخ هـرم. اكتفيـت بالمراقبـة والانتظـار سـاعاتٍ طويلـة دون جـدوى، فـي النهايـة اضطـررت للمبيـت فـي اسـتوكهولم عنـد أحـد معارفـي.

"هل يُرضيكَ مـا تـرى؟ هل هـذا كافٍ لتقتنـع أنّ أفـراد جلدتـك ليسـوا همجييـن كمـا قـد تتصـوّر؟ هـل اقتنعـت الآن أنّ عـدم توفـر وسـائل النقـل الكافيـة، والجـداول الزمنيّـة الدقيقـة للرحـلات فـي بلـدك هـو أكبـر أسـباب ردود أفعـال النـاس فـي مواقـف الحافـلات المزدحمـة بالفقـراء، وأن الحـروب والأزمـات المتلاحقـة هـي البيئـة الخصبـة للفسـاد والفوضـى؟ هـل اقتنعـت الآن أنّ ذاك الضابـط اللبنانـي الـذي وصـف السـوريين بالرّعـاع والـهمجييـن عنـد الحـدود، قـد يصبحـون فـي نظـره

حضاريين ومتطورين لو أنّ المركز الحدودي كان لديه العدد الكافي من المكاتب والتجهيزات والموظّفين؟ هل اقتنعت الآن أنّك أنت نفسك تقف بالدور هنا في السويد بينما تصارع في سوريا للحصول على مقعد في الباص كلّ يوم عند ذهابك إلى العمل والعودة منه. وأنت تحتفظ بعقب سيجارتك في جيبك هنا في السويد ريثما تصل حاوية القمامة، بينما ترميه على الأرض في بلدك دون أن يرفّ لك جفن! هل اقتنعت الآن أنّ تناول الطعام بالشوكة والسكّين لا يعكس تحضّراً، بل هو محض عادة لا أكثر ولا أقلّ؟ وأنّ تأمين لوازم العيش في البلدان تنعكس على طريقة التصرّف لدى مواطنيها، وأنّ كارثة واحدة كفيلة بإظهار كم من العنف تحمل النفس البشرية في ذاتها؟ كم أنا سعيدٌ بسقوط الأقنعة أمامك الآن يا صديقي!"

ولا تنتهي محاضرة هذا الصوت الحكيم عند هذا، بل يتابع:

"هل تعلم أنّه عندما شاهد الإنسان الطبيعة ورأى طلوع الشمس وهطول المطر وراقب تعاقب الليل والنهار ورصَد الحياة والموت، سحرَ ذلك كلُّه لبَّه وحيّره، فأخذ يبحث عن

جوهـر الأشـياء ومبتدئهـا ويحـاول حـلّ ألغـاز الوجـود الكبيـرة، مـن أيـن جـاء الكـون، كيـف جـاء الإنسـان ولمـاذا؟ وللإجابـة علـى هـذه التسـاؤلات ابتـدع الإنسـان الأسـطورة، مُرجعـاً إيمانَـه المقـدّسَ إلـى تاريـخٍ جعـل خيالـه يضفـي عليـه القداسـة اللازمـة. ومثلمـا تفقـد الأسـطورة قداسـتها فتبقـى محـضَ حكايـة عاديّـة حيـن يسـقط النظـام الـذي انبنـت عليـه، كذلـك تتلاشـى مثاليّـة أيّ مجتمـع بسـقوط مثاليّـة الظـروف التـي شـكّلته، فـلا عجـب أن تسـقط عـن ملامـح مدينـةٍ جميلـة مثـل استـوكهولم بعـض الأقنعـة التـي تحـول دون اكتمالهـا!"

كأنّما أراد الصوت الداخلي أن يوقظ الغول الراقد في نفسي !

*****

(3)

في الغربة، تضفي المسافة على الأخبار ألماً وخوفاً مضاعفَين، ويتمدّد هاجسٌ في كلّ خبر، فكيف إذا

تواعدت الأخبار السيّئة كي تصل في الوقت نفسه! في تلك الفترة كانت طفلتي "ناي" تعاني من التهاب اللوزتين الحادّ الذي اقتضى دخولها المشفى بشكل متكرّر، فكان على زوجتي أن تحمل كلّ هذا العبء وتتحمّل عناء الخوف عليّ وعلى ناي، وكيف لألم ناي ألّا يشغلني وهي التي تبلسم بضحكتها أعمق جراحي، تَرافق ذلك مع الأخبار المتعلّقة بمعهدي الذي بات على وشك الانهيار، بعد صفعةٍ على وجه الحلم من كفّ صديقٍ كان قد شدّ على يدي وعاهدني بالوفاء لكنّ ذلك انهار فجأة. قبل أن أغادر سوريا، تركت معهدي الذي أنشأته بالتحدّي والأمل في وطني الجريح، تركته في عهدة صديقي وزميل مهنتي الذي أسمّيه هنا "أحمد" وقد نصّبته مديراً للمكان. كان كلّ شيء يسير بسلاسة كما خطّطنا له في البداية، واستمرّ "أحمد" في التواصل معي بشكل يوميّ ليطلعني على كلّ ما يحدث وكلّ ما يتعلّق بأمور المعهد، وأنا بدوري أروي له عن كلّ ما يحدث معي في غربتي. مضت الأيام وبدأت محادثاته معي تقلّ، وصار يتجاهل إطلاعي على تفاصيل أمور المعهد، وفي نفس الوقت كان بعض الأصدقاء من العاملين هناك يطلعونني على أمور مزعجة جدّاً تحدث، وبوادر تشير إلى أشياء تبيّت في الخفاء. هنا بدأ القلق يساورني!

بعض الموظّفين تحدّثوا عن الفصل التعسّفي الذي مارسه "أحمد" على عليهم لأسباب متعدّدة، وهي أسباب واهية لم تكن في الحقيقة مقنعة أبداً. وتوالت رسائل مزيد من الموظّفين يخبرونني أنّهم قد تمّ فصلهم. دون أن أفهم أيّاً من الأسباب لكلّ ذلك، فمعظم من قام بفصلهم هم من قدامى الموظّفين وعملوا معي عدّة سنوات بكلّ إخلاص. ساءت الأمور بيننا، وقلّ التواصل أكثر. وذات مرّة اتصل بي أحد الأشخاص ليسألني:

- هل حقّاً تريد فتح معهد آخر في المنطقة ذاتها الموجود فيها معهدك القديم؟!

وحين عرف دهشتي واستغرابي هذا الخبر قال:

- مرّ بي أحد الأشخاص واسمه "أحمد" وأخبرني أنّك تودّ أن تفتح فرعاً آخر لمعهدك نظراً لضيق المكان، وطلب منّي أن أبحث له عن مكان مناسب!

اتصلت بأحمد الذي أنكر الأمر جملةً وتفصيلاً، وهذا ما يحدث عندما تسأل شخصاً خطّط لطعنك في ظهرك، إذا كان حقّاً قد فعل ذلك، فمن الطبيعيّ

أنّ الصدق والغدر لا يجتمعان معاً. بدا الأمر وكأنّ أحمد خطط لكلّ شيء، بما في ذلك نقل كادر المعهد وموظّفيه والطلّاب الذين يرتادون المعهد إلى معهده الجديد! الذي اعتمد على سمعتي واسمي لينشئه تاركاً الأمانة في مهبّ الريح.

شعر بعض أهالي الأطفال الذين تطوّرت قدراتهم بشكل ملحوظ في مركزي بالحرج لترك المعهد بتلك الطريقة، لذا قاموا بالاتصال بيّ وإخباري بقرارهم نقل أطفالهم من معهدي إلى معهد الأستاذ أحمد الجديد. ولكوني على معرفةٍ قويّة بأولئك الأطفال الذين أحببتهم وعرفت الطرق إلى أرواحهم وسُبل فرحهم، وانطلاقاً من أخلاق المهنة، كان يجب عليّ اعتبار مصلحة الأطفال قبل كلّ شيء وتحرير أهليهم من أيّ شعور بالذنب تجاهي، فكان جوابي:

"تصرّفوا بما ترونه الأنسب لمصلحة أطفالكم، من جهتي لا تقلقوا عليّ!"

ولأنّ الظالم يخاف من أثر خطوات المظلوم على الأرض، راح أحمد يكمل قصّة غدره كي يُجهز على أثري الطيّب في نفوس الأهالي، فأخذ يتناول سمعتي بالسوء والزور، وذلك بتسليط لسانه المراوغ على وتر الدين والسياسة، هذا الوتر نفسه الذي أشعل

نار الحقد والحرب في أحشاء بلادي الآمنة وأودى بأحلام الملايين، فكيف لا يودي بحلم رجل مثلي، هانت قواه من الغربة والخيبات، وهذا ما حرص أحمد على إنجازه بالضبط، حيث كان يصنّفني أمام الأهالي المؤيّدين للنظام في بلدي، على أنّني شخص معارض، وأنّني لا يمكنني العودة إلى سوريا يوماً ما، ويصفني أمام العائلات المتديّنة بالشخص الملحد البعيد عن الدين والقريب من فلسفة الضالّين، وراح يعدهم بتربية أطفالهم وفقاً لتعاليم الشريعة الإسلاميّة. جاء ذلك في وقت لم يكن لديّ الأوراق التي تسمح لي بالسفر لكي أدافع عن حلمي، فكانت الفرصة مواتية لأحمد لينجز مخططه الحاقد ضدّي، ويعصر تعبي كي يرشح في حلق حلمه الذي نشأ على التطفّل. كثيرة هي الاتصالات التي وردتني لكنّني لم أجد معنىً لقول أيّ شيء في ظلّ عجزي عن الفعل وأنا بعيد.

"أشعر أنّك مخذول من إيمانك بالأصدقاء! وأرى الدمع الذي يبلّل نور الكبرياء في عينيك، وأعلم تقديسك لمفهوم الصداقة. لكنّ الصداقة الحقّة يا صديقي لا تسقط، ربما تتعثّر في طريقٍ وعرة، لكنّها سرعان ما تنهض وتمسح أثر العثرة، وأقلّه أنّها تدلّ العابرين عليها كي يسلموا حين يمرّون. الصداقة تجدل ساعداً

بساعد، فيشتدّ عزم الإصرار في وجه المحن، والصداقة تقارب بين نورٍ ونور فيتلاشى الظلام بينهما ويختنق الحسد. لقد طعنك أحمد في ظهرك بغيابك، والصديق لا يحمل سكّيناً إلّا كي يقطع أوصال الهمّ في نفس صديقه، أو كي يقسم الفرح بينه وبين صديقه الغائب. مشى أحمد في ظلّك وأنت قويّ، وشاركك التعب والنجاح والثمرات، وها هو يقلّم أغصان حلمٍ تستظلّ به وتتكئ على بقائه، يجرّدك من صحبة المخلصين ويحرمك من الأطفال القادرين على رسم الابتسامة على وجهك المهموم. هذا الذي تدعوه صديقاً لا يرقى إلى قدسيّة هذا اللقب ولا يمكنه أن يشوّه ملامح الصداقة لأنّه لم يكن يوماً جزءاً منها. فلتعترف أنّك أخطأت من جديد في منح ثقتك أشخاصاً لا يستحقّونها، واعترف أنّك قد تجيد قراءة طِيبة الإنسان، لكنّك عاجز عن قراءة الغدر في وجوه الماكرين الذين يتقنون دور الطيّبين. ليس بوسعك الآن يا صديقي أن تستردّ الوقت وتصحّح اختيارك. أمامك أحد خيارين؛ إمّا أن تحمل خيبتك وألمك حتى تثقل كاهلك بالهمّ وتستسلم له، أو أن تختبر قدرتك على النجاة من عصف أمواجٍ تلاطم عنادك في بحرٍ لا يمكن التنبّؤ بمزاج أمواجه. اختر ما عليك فعله وامضِ، وانتبه لحلمك الذي يوشك

على البزوغ هنا، فهو يحتاج كثيراً لهمّتك التي تستنزفها بالندب على ما مضى وانقضى.“ هزّني الصوتُ كي ينفض عني ملامح الخيبة التي راحت تنهش ما بين ضلوعي.

طلبت من أحمد، بعد مجموعة من المشادّات الكلاميّة، مغادرة المعهد على الفور، وتوكيل الأمور لأحد أقاربي. تسبّبت تلك الحادثة بخسارات كثيرة لي، وبخاصّة الماديّة منها، إلى درجة أنّني لم أعد قادراً على دفع رواتب الموظّفين والتزامات المعهد الأخرى. لكنّها بالمقابل علّمتني كيف يصير الجرح بوصلة للنجاة من فقدانٍ أكبر في طريق الصعود.

*****

الإقامة وتعلم اللغة

بين حكمة مينيرفا[15] ولهو أفروديت[16]

ترتسم خطاك هنا.

(1)

- لماذا أتيت إلى السويد؟

- لأكثر من سبب، أحدها أنّني لا أريد لأطفالي أن يعيشوا في بيئة حرب، فجئت أبحث عن بيئة آمنة لعائلتي بعد أن أصبح من الصعب العيش في سوريا خاصّة لشخص مثلي يقف في منطقة رماديّة، فلا أنا بمؤيّد للنظام في سوريا ولا معارض له، ولا أريد أن أنتمي لأحد الطرفين، لا أريد أن أضطرّ في يوم من الأيام أن أحمل سلاحاً، فأنا لا أغيّر القاتل. السبب الثالث أنّني أنتمي لأقليّة دينيّة تعرّضت عبر التاريخ لكثير من الاضطهاد، وغالباً ما تدفع الأقليّات الضريبة الباهظة في حروب لا تعنيها بشيء. وأخيراً، لأنّني أبحث عن فرصة لتطوير ذاتي وأرى أنّ

١٥- منيرڤا: هي إلهة العقل والحكمة وربّة جميع المهارات والفنون والحرف اليدوية عند قدماء الرومان.

١٦- أفروديت: هي ربّة الحبّ والجمال والنشوة الجنسيّة في الأساطير اليونانية تهب البشر جمال الجسد وفتنته، وسبي العقل.

مجالـي سـيكون مفيداً فـي يـوم مـن الأيـام هنـا فـي السـويد.

كان ذلـك جوابـي علـى السـؤال الأول فـي دائـرة الهجـرة بمالمـو أثنـاء التحقيـق فـي قضيّـة اللجـوء الخاصّـة بـي، وذلـك يـوم ٢٠١٦/١/١٣، أيّ بعـد مضـي مـا يقـارب خمسـة أشـهر علـى وجـودي فـي السـويد.

طرحـتِ المحقّقـة علـيَّ عـدداً مـن الأسـئلة بوجـود مترجـم. سـألتني عـن معتقـدي الدينـيّ وعـن الأحـداث التـي حصلـت معـي وعـن مجـال دراسـتي، فأخبرتهـا بـكلّ شـيء بمـا فـي ذلـك التفجيـر الـذي حصـل فـي جرمانـا، واضطـراري لنقـل مـكان سـكني بعـد ذلـك إلـى محافظـة السـويداء بسـبب زخّـات الرصـاص التـي اخترقـت منزلـي. عنـد حديثـي عـن التفجيـر الـذي حصـل فـي جرمانـا لـم أتمالـك نفسـي فنزلـت دموعـي، وكأنّ وطنـي حملنـي مـن غرفـة التحقيـق وأعادنـي إلـى ذلـك المـكان الجريـح المكتـظّ بالدمـاء وبأشـلاء أجسـاد متطايرة جُمعـت بأكيـاسٍ سـود دون كفـن. كانـت المحقّقة تـدوّن كلّ شـيء، وتتابـع وصفـي أماكـن الأحـداث التـي أرويهـا عـن طريـق خريطـة الكترونيّـة متّصلـة بالأقمـار الصناعيّـة، وذلـك لتتحقّـق مـن صـدق مـا أقـول.

"أتساءل حقيقةً، هل تسجّل تلك المحقّقة ما ترويه أنت أم ما يخبرها به ذاك المترجم؟ مستقبلك الآن متوقّف على مدى دقّة الترجمة!"
تعليق عابر من صوت فكري حمل نكهة النقد الساخر.

سألتني المحقّقة:

- ماذا سيحدث لك في حال عودتك إلى سوريا؟ هل حياتك مهدّدة؟

- لا يمكنني التنبّؤ بذلك، فقد أعود إلى سوريا وأعيش كما يعيش الملايين فيها، وقد يكون عليَّ الالتحاق بصفوف الجيش إذا أُعلن النفير العام على الرّغم من أنّني قد دفعت البدل النقديّ عن الخدمة الإلزامية، وربّما أتعرّض للاختطاف من قبل الجماعات المتشدّدة أو المسلّحة، وفي تلك الحالة قد أفقد حياتي على يد شخص يعتقد أن نحر عنقي سوف يدخله الجنّة!

كلامي عن الخوف الذي يعتري نفوس الأقلّيات من ممارسات الجماعات الإسلاميّة المتطّرفة، أثار حفيظة المترجم فقال لي باللغة العربيّة:

- لماذا تدخل في كلّ تلك التفاصيل؟

- فأجبته: هذا ليس شأن، مهمّتك هنا أن تترجم ما أقوله فقط، فلا تُملِ عليّ ما يجب أن أقول رجاءً!.

بدا وكأن الموظّفة فهمت من لغة الجسد ما حدث بيننا، عندها ذكرت المترجم باخلاقيات مهنته.

غادرتُ عائداً إلى منزل عائلة سيّدة الشمس في استوكهولم ورويت لهم تفاصيل ما حدث معي. وبعد مضيّ ثلاثة أشهر تقريباً على تلك المقابلة، في يوم ١ نيسان/أبريل ٢٠١٦، صدر قرار إقامتي في السويد. وتلقّيت بريداً إلكترونيّاً من المحقّقة ذاتها تبارك لي فيه مباركة خاصّة بصدور قرار إقامتي.

"تهانينا، لقد حصلتَ على الإقامة!"

الحصول على الإقامة في بلدٍ كالسويد، يعتبر حلم الكثيرين في بلادي البائسة وأنا واحد من هؤلاء، ليس لأنّنا لا نحبّ الانتماء، بل لأنّ مهمّة الحروب أن تشوّه الهويّة فيّنا، ومهمّة السياسة أن تعبث بالتاريخ، وهذا ما يحدث في بلاد العرب. ليس لأنّنا لم نعشق تلك الربوع، بل لأنّ الجوع يقتات الأرواح هناك. وليس لأنّ ذاكرتنا تتصف بالنكران، بل لأنّ ذاكرة القيد أقوى وأشدّ سطوة حتى لتكاد تمحو شهوة العيش،

ولأنّ أكفّ الفقر قد تضطرّ أن تحتطب الربيع كي تنجو من برد الشتاء. أجل إنّها حلم لأنّ خير أرضنا لم يكن يوماً لنا، ولأنّ أحلامنا المغلولة تشتهي فضاءً أرحب ووطناً يميّز أبناءه بالإنسانية والعمل. منحني الحصول على الإقامة إحساساً بالاستقرار في بلدي الجديد، وفرصةً لأرتّب أفكاري وأبدأ خطوة الألف ميل بعناية وهدوء. فقد بات بإمكاني تعلّم اللغة السويديّة في مدارس نظاميّة للبالغين، وكذلك الحصول على بطاقة شخصيّة والتنقّل بوثيقة رسميّة. وهذا ما قمت به بدءاً بالحصول على البطاقة، حتى التسجيل في دائرة التأمين الاجتماعيّ، ومن ثمّ في مكتب العمل، حيث اطّلعوا على سيرتي المهنيّة وأخبروني بأنّهم سوف يتّصلون بي لتحديد موعدٍ أقابل فيه الموظّف المسؤول عنّي، فقد جرت العادة أن يكون لكلّ شخص موظّف مسؤول عن متابعته ومتابعة خطّة عمله. وحدث أن التقيت الموظّف المسؤول عنّي في مكتب العمل في العاشر من حزيران/يونيو ٢٠١٦، وشرح لي، بوجود المترجم، ما الذي يتوجّب عليَّ فعله، وخطّة الترسيخ الخاصّة بي، وهي خطّة مدّتها عامان يتمّ فيها إدماجي كلاجئ جديد في المجتمع السويديّ، تتضمّن تعلّم اللغة السويديّة، وتنفيذ بعض الدّورات الاجتماعيّة. كانت خطّة الترسيخ تتطلّب أن أعمل ثماني ساعات يومياً لأحصل على تعويض قيمته ما يقارب مئتين وخمسين كروناً في اليوم، وغالباً ما

يتمثـل العمـل بالدّراسـة ومتابعـة النشـاطات المطلوبـة. قدّمـت للموظّـف شـهاداتي التـي أحضرتهـا معـي وطلبـت أن تتـمّ ترجمتهـا ترجمـة معتمـدة إلـى السـويديّة، لكـي يُسـمح لـي بإرسـالها إلـى الجهـات المختصّـة لتعديلهـا. أخبرونـي بأنّهـم سـيقومون بدعمـي ومسـاندتي للحصـول علـى عمـل، لكـنّ ذلـك لـم يحـدث يـا للأسـف، فـكان الضيـاع مـرّة أخـرى عنوانـاً لتلـك الفتـرة.

"انتبـه يـا صديقـي! فاللغـة لا تبـوح بأسـرارها للغربـاء، قبـل أن يُجيـدوا لفظهـا بقلبهـم. لـذا عليـك أن تألـف اللغـة لتألفـك وتفتـح لـك أبـواب الانتمـاء لهـذا البلـد، فغالبـاً مـا يعتمـد كثيـر مـن الوافديـن الجـدد علـى مـا يخبرهـم بـه الآخـرون، لأنّهـم غيـر قادريـن علـى قـراءة وفهـم اللغـة السـويديّة، وهـذا يجعلهـم عرضـة دائمـة للخطـأ فـي نقـل المعلومـات، فسـلاحك الأمثـل للحصـول علـى معلومـات موثوقـة هـو إتقـان اللغـة." كان تنبيهـاً لطيفـاً هتـف بـه صـوت أعماقـي!

قـد يسـتغرق الحصـول علـى أيّ قـرار وقتـاً طويـلاً، وفـي حـال عـدم معرفـة القوانيـن يصبـح الأمـر أكثـر تعقيـداً. علـى سـبيل المثـال عندمـا كنـت فـي كالمـار فـي نهايـة عـام ٢٠١٥ قمـت بإرسـال شـهاداتي إلـى وزارة الصحّـة السـويدية مـن أجـل الحصـول علـى ترخيـص مزاولـة مهنـة

اختصاصيّ نفسيّ. أتذكّر أنّه وصلني بريد يقول: هل تريد أن ينظر مجلس الصحّة السويديّ في أوراقك حالياً أم تفضّل الانتظار إلى ما بعد شهر تشرين الثاني من عام ٢٠١٦؟ وبالطبع لم أكن أعلم ما فحوى ذاك البريد وما الذي يعنيه بسبب جهلي اللغة وكذلك جهلي القوانين السائدة. فاخترت خيار النظر حاليّاً، ذاك الخيار كلّفني الانتظار مدّة سنة تقريباً لمعالجة الطلب، ومن ثم وصلني رفض الاعتراف بشهادتي في علم النفس بتقييم ينصّ على أنّ دراستي مختلفة عن الدراسة السويديّة. لو علمت فحوى الخيار الثاني أنّه بعد شهر تشرين الثاني سيكون لديهم قانون جديد لمعالجة قضايا طارئة، وهو أوسع وأكثر مرونة من القانون السابق لوفّرت على نفسي معاناة الانتظار والإحباط الناتج عن ذلك القرار.

*****

(2)

الخامس عشر من شهر حزيران/يونيو ٢٠١٦، اليوم الأوّل لي في المدرسة للبدء بتعلّم اللغة السويديّة للوافدين الجدد الـSFI. مرتدياً بنطال الجينز وقميصاً خفيفاً، مبتعداً عن الملابس الرسميّة التي اعتدت ارتداءها في سوريا، دون أن أفرّط بأناقتي التي أعتبرها جزءاً مهمّاً

من شخصيّة الإنسان، لذلك اعتدت شراء ملابس أنيقة وليست باهظة الثمن. وأنا الآن أحببت أن أتصرّف كطفل يدخل المدرسة لأوّل مرّة، ملأني فرح عارم وبهيج وغمرني شعور بنداوة الروح وهذا ما سوف يجعل أزهاري تتفتّح. ذلك الوقت كنت أعرف عدداً من الكلمات باللغة السويديّة، لكنّني لم أكن متأكّداً من نطق أيّ منها بالطريقة الصحيحة، عدا كلمات وجمل بسيطة مثل: شكراً، أهلاً، وكيف حالك. حسب اختبار تحديد المستوى، وضعوني في مستوى الـ C. لم يكن في صفّي كثير من اللاجئين، لأنّ عملية الفرز في تلك المنطقة لم تكن قد تمّت بعد. كان معظم الدّارسين من الأوروبيين الراغبين بتعلّم السويديّة لسبب ما كالعمل أو الدّراسة أو الارتباط بشخص سويديّ. في البداية سارت الأمور بشكل جيّد في المدرسة، وبعد أسبوعين فقط تمّ الإعلان عمّا يدعى بالامتحان الوطني لتجاوز مستوىً من مستويات اللغة، فطلبت من المدرّس أن أشارك فيه، لكنّه قال:

- لا، أنت لست جاهزاً الآن للمشاركة في هذا الامتحان!
- أعتقد أنّني أستطيع ذلك.
- لا، أنت لا تتحدّث السويديّة بعد!

"كيف لك أن تقنعهم بأنّ نطق لغتهم ليس بتلك السهولة التي يتخيّلونها؟ كيف لك أن تفهمهم أنّ الكلمات وإنْ بدت متشابهة، لكنّها لا تُنطق بالطريقة نفسها؟ أخبرهم أنّك تدمّر موسيقى لغتهم عندما تحاول، مثلاً، نُطق حرف E آخر الكلمة! قل له إنّك لن تواصل التحدّث رأفة بمسامعه، فأنت نفسك لا تتحمّل سماع مقاطعك المسجّلة عندما تحاول تقليد طريقة الحديث بالسويديّة، حتى أنا نفسي أصل إلى حدود الغثيان حين أسمعك ترطن باللغة السويديّة! "

أوشكت أسمع قهقهة ذلك الصوت وهو يعلن سخريته السافرة من لغتي السويديّة، لكنّ حتى هذا لم يكن ليثبّط من عزيمتي.

أسكتني المعلّم، فلم أشارك في ذلك الاختبار، واكتفيت بطلب نماذج سابقة من أسئلة الامتحان الوطني لكي أتدرّب قليلاً وأختبر نفسي، فأعطاني بعضاً منها. احتوى الامتحان على أربعة أقسام: اللغة المنطوقة، واللغة المكتوبة، وفهم اللغة، والقراءة. حاولت الإجابة على امتحان غير مسجّل، وطلبت من المدرّس أن يصحّحه لي ويعطيني درجتي التجريبيّة، كان الأستاذ لطيفاً جدّاً فقبل ذلك، وكان أن أعطاني درجة C [١٧]

١٧- نظام الدرجات يتكون من A وB وC وD وF، حيثA هي أعلى درجة، وF تعني الرسوب.

فقلت لـه:

- لقد كنتُ واثقاً أنّني سوف أنجح في الامتحان، لكنّك حكمت على مظهري ووضعي كلاجئ وافترضت أنّني لست مؤهّلاً بعد!

ناقشته بشأن مراحل اللغة، وأنّ مراحل تعلّم اللغة تبدأ باللغة الاستقباليّة أوّلاً، وأنّه حتى الأطفال عندما يبدؤون بتعلّم الكلام واللغة والتواصل، يفهمون كلام الآخرين في السنة والنصف الأولى من أعمارهم غالباً، قبل أن يبدؤوا بإنتاج اللغة وصياغة الكلام بأنفسهم! نقاشي هذا أقنع المدرّس وأعجبه، فاعتذر لي عن استخفافه بقدرتي على تجاوز الامتحان.

"أستاذ يعتذر من طالب، يبدو الأمر لك غريباً ومثيراً للضحك، أليس كذلك؟ فكم من مدرسة ارتدتَ في سوريا، وقد كنت طالباً متفوّقاً، خضت نقاشات كثيرة مع بعض معلّميك وكان الحقّ إلى جانبك، ومع ذلك لم تسمع أحداً منهم يعتذر في يومٍ ما. هل تذكر معلّم الرياضيّات في المرحلة الإعداديّة عندما كان يضربك بالعَصاة على يديك، واحدةً عن كلّ درجة تخسرها من المعدّل العام، على الرّغم من أنّه لم يكن ينقصك غالباً سوى

درجة أو اثنتين. فالعصاة كانت الرفيق الدائم لمعظم المعلّمين، مقتنعين أنّ أسلوب التهديد هو الأنجع تربويّاً، لذلك فهو المفضّل لديهم. هذا المدرس الآن يقول لك لقد كنت على حقّ، وأنا أعتذر منك، وسوف أرشّحك في أقرب امتحان وطنيّ!" قهقه الصوت داخلك بنبرة شامتة واثقة.

في أحد الأيام طلبت منّا المعلّمة تلخيص "كتاب قرأته" ببضع جمل لا تتجاوز نصف صفحة تقريباً. كتبت ملخّصاً عن كتاب كنت قد قرأته باللغة السويديّة وترجمت معظم كلماته إلى اللغة العربيّة. كان الكتاب رواية بعنوان: "إمبراطور البرتغال" للكاتبة السويديّة سلمى لاغيرلوف، نُشرت عام ١٩١٤. تتحدّث الرواية عن أب يحبّ ابنته ويتعلّق بها جدّاً، وعندما تنتقل الابنة إلى استوكهولم وتنقطع أخبارها عنه بعد أن تتوقّف عن مراسلته، أصبح يُمضي وقته بالذهاب إلى الميناء يوميّاً منتظراً عودتها، لكن دون جدوى. تمضي الأعوام والأب يزداد غرقاً في عالم الأحلام حتى يتملّكه الوهم أنّ ابنته هي إمبراطورة البرتغال النبيلة وأنّه هو نفسه قد أصبح إمبراطوراً، بينما الحقيقة أنّ الابنة كانت تمارس الدعارة في استوكهولم، وتعيش حياة في منتهى البؤس والسقوط في الحضيض! ملخّص الكتاب جعل المعلّمة منبهرة بكتابتي التي

قاربـت الصفحـات الثـلاث. وأكثـر مـا أبهرهـا ولفـت نظرهـا أنّنـي اجتهدت فبحثـت فـي القامـوس عـن معنـى بعـض الأفعـال مثـل “Sätta, ta, ligga” وسـجّلت قائمـة طويلـة بـكلّ المعانـي التـي يمكـن للفعـل نفسـه أن يعبّـر عنهـا وبخاصّـة عندمـا يتغيّـر حـرف الجـر معـه. سـألتني المعلمـة:

- هـل تعتقـد بأنّـك سـوف تسـتخدم كلّ هـذه الأفعـال أثناء وجودك هنا في السويد؟

- بكلّ تأكيد سأستخدمها يوماً ما.

مـا كان مـن تلـك المعلّمـة إلّا أنّهـا رشّـحتني للامتحـان الوطنـيّ لمسـتويين معـاً C, D فدعمتنـي جـدّاً ووثقـت بقدراتـي. بعـد شـهر واحد في المدرسـة، تقدّمـتُ للامتحان الوطنـيّ للمسـتوى الأخيـر D مـن مرحلـة تعلّـم اللغـة السـويديّة للوافديـن الجـدد ونجحـت فيـه. هـذه المرحلـة التـي أنجزتهـا فـي هـذا الوقـت القصيـر، بالنسـبة للخطّـة الوطنيّـة فـي السـويد، تحتـاج مـن الشـخص مـا يقـارب سـنة كاملـة ليصـل إلـى تلـك المسـتويات، هـذا مـا جعلنـي سـعيداً جـدّاً وفخـوراً بمـا أنجزتـه. حتـى أنّ أفـراد أسـرة سـيّدة الشـمس اسـتغربوا نجاحـي السـريع فـي الامتحـان مـع أنّنـي لا أتحـدّث معهـم بالسـويديّة، والحقيقـة أنّه شـتّان بيـن تلـك اللغـة التـي تُعلّـم فـي مـدارس SFI وبيـن لغـة

الواقع، فغالبا ما كنّا ندرس لغة سويديّة قديمة أو لغة الأدب، وبكلّ بساطة فإنّ هذا كلّه لم يكن يشبه اللغة التي يتداولها الناس في الحياة اليوميّة. هذه المفارقات كانت من أهمّ الدوافع لي لمواصلة التعلّم الذاتيّ.

لم أكن قادراً على فهم أيٍّ من رسائل البريد القادمة من مؤسّسات الدولة الرسميّة لأنّ اللغة المستخدمة ليست اللغة نفسها التي كنّا ندرسها بل بدت أكثر تعقيداً، على سبيل المثال إذا كنت تعلم أنّ فعل: (Godkän-na) يعني أوافق على، فليس غريباً أن تجد فعلاً آخر له المعنى ذاته في رسائل البريد مثل (Bifalla). كذلك لم أكن قادراً على فهم ما أسمعه من أفراد الأسرة أو من المذياع وبرامج التلفاز فالكلمات هنا لا تشبه أبداً الكلمات التي ندرسها، مثلاً درسنا أنّ فعل (Förstå) يعني أفهم، في حين يستخدم الناس في الخطاب اليوميّ فعلاً لا تتضمّنه اللغة الرسمية مثل (Fatta).

غالبا ما كان الصوت القادم من ضميري يسخر من الأسلوب المتّبع في مدارس تعليم الكبار مستغرباً:

"ما دمت أنت الذي تحمل درجة الدكتوراه تجد صعوبة في فهم رسائل مؤسسة التأمين الاجتماعيّ، وبالرّغم من استخدامك المترجم، فكيف للشخص الأميّ، أو الأشخاص الذين

يعانـون مـن إعاقـة مثـلاً أن يتغلّبـوا علـى هـذه الصعوبـات؟ ومـن هنـا فليـس بالغريـب أن يعانـي اللاجئـون مـن صعوبـة الاندمـاج بالمجتمـع الجديـد إذاً".

فـي اليـوم التالـي، اسـتيقظت مبكّـراً، اغتسـلت ورتّبـت سـريري وغرفتـي، فأنـا مولـع بترتيـب الأمكنـة مـن حولـي، والفوضـى تثيـر توتّـري دائمـاً، وقـد يكـون ذلـك أكبـر الأسـباب التـي جعلتنـي اسـتعجل الخـروج مـن تجمّـع اللاجئيـن فـي بدايـة قدومـي إلـى السـويد. أعـددت القهـوة، ثـم خرجـت إلـى البحـر. نحـن الآن فـي صيـف عـام ٢٠١٦، تمامـاً فـي شـهر حزيـران، حيـث يكـون الطقـس جميـلاً فـي السـويد، والطبيعـة زاهيـة الخضـرة والغابـات مشـرقة تحـت أشـعة الشـمس الدافئـة اللطيفـة. وردنـي فـي ذلـك اليـوم اتصـال مـن دائـرة الهجـرة يخبروننـي فيـه: "لقـد أرسـلنا مؤهّلاتـك إلـى إحـدى الجامعـات السـويديّة فـي اسـتوكهولم، وهـذه الجامعـة أبـدت رغبتهـا فـي مقابلتـك قريبـاً!" بهـذا أخبرنـي المتحـدّث عبـر الهاتـف.

رقصـتُ فرحـاً لهـذا الخبـر! فتلـك الجامعـة تعـدّ إحـدى أكبـر الجامعـات الأوروبيّـة المتخصّصـة فـي المجـالات الطبيّـة وهـي مصنّفـة عالميّـاً ضمـن أرقـى الجامعـات. سـتكون مقابلتـي بعـد عـدّة أيـام مـع رئيـس أحـد الأقسـام الهامّـة جـدّاً فـي الجامعـة. حتـى أفـراد عائلـة سـيّدة

الشمس تفاجؤوا عندما أخبرتهم بذلك، مثلما تفاجأت، وسعدوا لأجلي مثلما سعدت!

جاء يوم المقابلة في الجامعة، فراودني بعض الشكّ في نفسي، هل يمكنني القيام بذلك؟ علماً أنّ لغتي الإنجليزية تعتبر جيّدة جدّاً بالنسبة لشخص تعلّمها في سوريا، لكنّها بالتأكيد ليست ممتازة بالنسبة لمن تعلّمها في أوروبا، فكنت أحسّ أنّه ينقصني كثير من المفردات، إضافة إلى مشكلة الطلاقة في التعبير عمّا يجيش في فكري. رغم ذلك كلّه كنت واثقاً من قدرتي على تجاوز عائق اللغة في المقابلة.

وصلت في الموعد المحدّد، فالتقاني شخص يرتدي بنطالاً كتّانياً بلون فاتح، وقميصاً يميل إلى اللون الأخضر الغامق، بلحية محدّدة الحواف، وابتسامة لطيفة. رحّب بي وهو يقول: تفضّل من هنا.

قهقه الصوت داخلي مرّة أخرى: "كم من الأسوار بنيت في مخيّلتك عن هذا المسؤول. كيف لمن هو في مثل هذا المنصب، أن يبدو شخصاً عاديّاً بهذه الطريقة، وليست سكرتيرته الجميلة هي التي تقود زوّاره إليه، في حين أنّك تحتاج ألف وسيط لكي تخطو إلى عتبة مدير مكتب أحد المسؤولين من الدرجة الثالثة في وطنك، وليس إلى المسؤول نفسه؟ الآن

أتفهّـم تقديسـك للسـويد جيّـداً".

دخلنـا إلـى غرفـة تضـمّ عـدّة أشـخاص يرتـدون الملابـس الرسـميّة، بينمـا كنـت مرتديـاً بنطـالاً مـن الجينـز وقميصـاً غيـر رسـميّ. تحدّثـت معهـم وأجبتهـم علـى أسـئلتهم المتعلّقـة بمجـال عملـي فـي سـوريا. أثنـوا علـى مقاطـع الفيديـو التـي تشـرح كيفيّـة عملـي فـي المعهـد، ونصحونـي بمتابعـة العمـل فـي المجـال نفسـه، كمـا أخبرونـي أنّهـم بحاجـة إلـى مـن يعمـل معهـم فـي أحـد المشـاريع البحثيّـة، وهـم يعلمـون أنّنـي أحمـل درجـة الدكتـوراه، لكنّهـم كانـوا يتوقّعـون أنّ لـديّ ترخيصـاً للعمـل فـي السـويد. ومـع إشـادتهم بأهميّـة اختصاصـي فـي مجـال الطفولـة أعلنـوا حاجتهـم الماسّـة إلـى شـخص يبحـث فـي المجـالات الطبّيـة أكثـر وأن يكـون قـد أنجـز أبحاثـاً منشـورة فـي مجـلّات عالميّـة محكّمـة، الأمـر الـذي نفتقده فـي سـوريا. وبالنتيجـة لـم أوفّـق بالحصـول علـى فرصـة العمـل تلـك، وهـذا مـا شـكّل انتكاسـة وعـودة إلـى لجاجـةِ أزمـة الثقـة بنفسـي وقدراتـي، وسـاهم بإحباطـي أكثـر. فعلـى الرّغـم مـن أنّ البروفيسـور كان لطيفـاً جـدّاً حيـث أرسـل لـي بعـض الروابـط التـي قـد تفيدنـي، ورغـم كلمـات المديـح التـي أمطرنـي بهـا، إلّا أن ذلـك لـم يكـن كافيـاً للتخفيـف مـن نوبـة الشـكّ التـي عصفـت بـي. رافقتنـي هـذه الحالـة طويـلاً، بينمـا السـؤال المدبّـب ينهـش روحـي: هـل أنـا، فعـلاً، قـادر علـى تحقيـق النجـاح فـي هـذه البـلاد؟

"منذ وصولك إلى السويد، اهتزّت كلّ ثقتك بنفسك التي كنت تملكها سابقاً، لكأنّما قد أصبحت نصف وسام، يُعجزك التعبير عن ذاتك كما ترغب، وتغضب لأنّك لست ملمّاً بالجوانب الثقافيّة كلّها في هذا المجتمع. كفاك تهديماً لذاتك وكن على تمام الثقة بأنّك سوف تحصل على فرصة أفضل لاحقاً، ربّما عندما تستقرّ ظروفك أكثر، هي بضعة أشهر فقط مضت على وجودك في السويد، وأنت ما زلت لا تتقن لغة البلد، ولا تتحدّث الإنجليزيّة بطلاقة، وأوراق العمل الخاصّة بك ليست جاهزة ولا موثّقة بعد، ومع ذلك نجحت في اجتياز المرحلة الأولى من مراحل اللغة في فترة قياسيّة. ارحم نفسك يا عزيزي!" أتتني النغمة من روحي رحيمة ومنطقيّة في الوقت ذاته، فشدّت من أزري قليلاً.

في تلك الأثناء كانت بداية فصل الصيف، والمدرسة سوف تغلق أبوابها مدّة خمسة أسابيع. ومع الإحباط المتكرّر الذي كنت أعيشه في محاولات تكيّفي مع الوطن الجديد، كانت الأخبار تردني من سوريا، بأنّ صحّة أمّي تتدهور، وكذلك أخي، فكلاهما يعانيان من مشكلات في القلب. كما أنّ ابنتي كانت قد أُدخلت المشفى مرّات عدّة، وكان على زوجتي وبمساعدة من

أسرتي الاعتناء بها، وفوق ذلك كلّه كانت مخطّطات من كنت أعتبره صديقاً بدأت تنجح في تدمير سمعتي وتشويهها، وهذا في حدّ ذاته قد ترك مؤشّرات سلبيّة جدّاً على كافّة أفراد أسرتي، فليس من السهل أبداً أن تنتشر إشاعة كاذبة عن شخص يُسرد فيها أنّه تمّ نفيه من وطنه بسبب معاداته للنظام الحاكم. آلمني جدّاً هذا اللؤم الفاحش لأنّ ظروف البلد مواتية لتجعل بعض الناس يصدّقون مثل هذه الأكاذيب، ولا بدّ أنّ ذلك سوف يمسّ أسرتي بالسوء، وكنت أكره أن أحتمل خسارات جديدة، فقد خسرت ما فيه الكفاية، وقبل ذلك كلّه ما كنت أريد أن أحرق آخر حلم لي بالعودة إلى وطني.

"تجلس على الدرج الخشبيّ المنحدر نحو البحر، تفكّر بعائلتك، بخساراتك، بأحلامك، بمعهدك الذي أصبح مهدداً بالإغلاق. تفكّر بسمعتك، بكيفيّة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من معهدك، مراجعاً اللحظات الأولى التي عشتها وحدك هناك بين ثنايا الروح وخمرة النجاح، منتشياً بإنجازك المتحقّق للتوّ، حالماً برؤية وجه قمرك وملاكك الحارس ناي تركض أمامك على الشاطئ الرمليّ وتلتفت نحوك لتمدّ يدها تاركة قطرات الماء تتسرب من بين أصابعها الصغيرة وهي تناديك: بابا، أمسك بي. تفكّر

بوجـوه أمّـك وزوجتـك وأخوتـك وأحبائـك راسـماً إيّاهـم علـى صفحـة السـماء الممتـدّة فوقـك، متخيّلاً نفسـك ذاك الطيـر المحلّـق فـوق البحـر منتشـياً بأشـعة الشـمس الذهبيّـة بعيـداً عـن الشـعور بقيـود اللجـوء وغيـر ذلـك ممّـا يكبّـل روحـك فـي هـذه البـلاد! أعلـم يـا صديقـي أنّ كلّ مـا تحتاجـه فـي هـذه الفتـرة هـو وجـود شـخص يثـق بإمكانيّاتـك، شـخص يجسّـد مـا اعتـادت ليلـى واتسـون[18] أن تقـول: (إذا أتيـت إلـى هنـا لمسـاعدتي، فأنـت تضيّـع وقتـك، أمّـا إذا أتيـت لأنّ تحريـرك مرتبـط بـي، فدعنـا نعمـل معـاً). ربّمـا هـذا مـا كنـت تبحـث عنـه، وقـد وجدتـه فـي تلـك المعلّمـة العائـدة إلـى العمـل بعـد التقاعـد خلافـاً للآخريـن جميعـاً. قليـل مـن جنـون الحريّـة مـا أنـت بحاجتـه الآن، نـل قسـطاً مـن الراحـة أيّهـا المحـارب فأنـت تسـتحق!.“ أمرنـي الصـوت بلهجـة حازمـة ونهائيّـة.

لـم يطـل الأمـر كثيـراً حتـى تجلّـى الجنـون واقعـاً ملموسـاً، فقـد سـارعتُ لحجـز تذكـرة سـفر وغـادرت السـويد متجّهـاً إلـى حيـث بـدأت!

*****

١٨- ليلى واتسون (مواليد ١٩٤٠) هي فنّانة بصريّة من موري (من السكان الأصليين الأستراليين) وناشطة وأكاديميّة تعمل في مجال قضايا المرأة ونظريّة المعرفة الخاصّة بالسكّان الأصليين.

العودة

من رمادِ الحنين تتجدّد الروح

كطائرٍ فينيقٍ عاد من رماد وطن.

(1)

صيف عام ٢٠١٦، كان قلبي مشرقاً بالسعادة لأنني سأرى وجه طفلتي أخيراً، وسألتقي مجدّداً بعائلتي التي حُرمت منها بسبب الحرب، ولأنّني أخيراً سأحمل حقيبة ظهري المحمّلة بالذكريات، لكن هذه المرّة متجّهاً بها إلى وطني. عزمت على البقاء في سوريا شهراً حيث كان فصل الصيف قد حلّ.

أثناء وجودي عند عائلة سيّدة الشمس، كنت قد تمكّنت من بناء علاقة صداقة حقيقيّة ربطتني بشخص تعرّفت عليه عبر وسائل التواصل الاجتماعيّ، اسمّيه هنا "كيم Kim". كنّا نلتقي لنحتسي القهوة أحياناً في استوكهولم، ويساندني في تعلّم اللغة السويديّة، ويشرح لي تفاصيل بعض القضايا المتعلّقة بالمجتمع السويديّ. في الحقيقة كان هذا الصديق يخفّف عنّي ألم الغربة، ويواسيني ويشدّ أزري ويدفعني دائماً إلى الأمام. كان قريباً منّي كقربي لذاتي، بينما أنا كنت أبوح له بكلّ ما يحدث لي، فراح يساعدني في فهم

بعـض الأمـور التـي أراهـا مبهمـة اثنـاء وجـودي فـي منـزل أسـرة سـيّدة الشـمس. وجـود هـذا الصديـق فـي حياتـي فـي مجتمـع غريـب كان كافيـاً ليمدّنـي بالقـوّة اللازمـة لمواجهـة التحدّيـات. وها هو صديقـي يصطحبني إلـى المطـار فـي طريقـي لزيـارة سـوريا، وقبلهـا كان قـد كفلنـي لـدى شـركة الطيـران التـي رفضـت بدايـة بيعـي تذكـرة إلـى بيـروت لأنّنـي لاجـئ، وبيـروت تمنـع دخـول اللاجئيـن السـوريين المهاجريـن إلـى أوروبـا مـن المـرور فـي أراضيهـا، فاسـتغلّت شـركة الطيـران ذلـك طالبـةً مبلغـاً إضافيّـاً لتسـمح لـي بالسـفر. "كيـم" هـو الـذي سـاعدني حينمـا تكفّـل بإقناعهـم وتعّهـد لهـم بأنّـه سـوف يتحمّـل أيّ تبعـات ماديّـة أو غرامـات، فقـد أخبرونـي أنّـه سـيتمّ فـرض غرامـة علـى شـركة الطيـران تصـل إلـى الـ ٢٥٠٠ دولار عنـد نقلهـم اللاجئيـن السـوريين علـى متـن طائراتهـم، فأجبتهـم أنّـه فـي حـال حـدث ذلـك فسـوف أتكفّـل بسـداد الغرامـة. لـم يكـن تصـرّف "كيـم" فـي ذلـك الموقـف مـن السـمات المألوفـة فـي المجتمـع السـويديّ بشـكل عـام، فالتدخّـل فـي الأمـور الماديّـة للآخريـن لـم تكـن مـن الحـالات المرغوبـة، لكـنّ صديقـي كان يعـي تمامـاً مـاذا يعنـي لـي أن أرى طفلتـي بعـد طـول غيـاب.

صعـدت الطائـرة وسـافرت، وطـوال وقـت الرحلـة كانـت عائلـة سـيّدة الشـمس تتواصـل معـي لتطمئن علـيّ، وكذلك فعـل صديقـي. فهـم جميعـاً يعلمـون كـم هـو صعـب أن

تعود إلى بلد غارق في الدماء، إلى مخاضٍ عسير لمّا ينتهِ بعد، لكنني كنت أردّد في سرّي: وطني ليس مخيفاً لي كما يبدو مخيفاً لكم! ومسحت من رأسي آخر هواجس الخوف حينما أقنعت نفسي أنّني، حتى لو متّ فأنا أموت قريباً من عائلتي، متمنيّاً ألّا يحدث ذلك إلّا بعد أن أرى أحبّائي جميعاً. لا أنكر أنّ سفري كان يشبه مغامرة مجنونة ومخاطرة كبيرة، لكنّ دوافعي للسفر كانت أكبر وأهمّ من أن يقف أيّ عائق في وجهها! أمّي، أخي، طفلتي، معهدي، سمعتي، استعادة الثقة المفقودة في ذاتي واسترجاع الشعور بقدرتي على زرع الأمل لدى الكثيرين ممّن أحبّ. كانت عودتي تحمل أملاً لعدد كبير من العائلات التي وضعتْ ثقتها في المعهد، وائتمنتني على أطفالها، عودتي تحمل في ثناياها بهجة طفلة صغيرة بعودة والدها الذي لم يرها تكبر بين ذراعيه في الأشهر التي مضت، تحمل نشوة ضائع في صحراء واسعة عند وصوله إلى واحة جميلة مكتظّة بالماء والشجر، تحمل محاولة لملمة خيبات أمل ومداواة جراح، تحمل عودة الغائب لطمأنة القلوب المتعبة، تحمل فرحة أمّ على فراش المرض بعناق ابنها العائد من مكان بعيد.

وصلت إلى مطار بيروت الدوليّ، ومنه إلى الحدود اللبنانيّة-السوريّة، حيث أوقفوني وأعطوني تكليفاً بمراجعة دائرة الهجرة في سوريا، وعلمت حينها أنّ

ثمّة تحقيقاً في أمر غيابي وسفري، على الرغم من خروجي بطريقة قانونيّة من سوريا.

طيلة الطريق كانت تغمرني أفكاري المتلهّفة لتخيّل لحظة لقائي بـ "ناي"، ملاكي الصغير، وفرحة عمري. هل ستلقاني ضاحكة من الفرح؟ أم أنّني أصبحت غريباً عنها الآن؟

لم أكن قد أخبرت عائلتي بقدومي، لأنّني لم أكن أثق بخروجي سالماً من هذه المغامرة! فقرّرت أن أخبرهم بقدومي فور عبوري الحدود إلى داخل سوريا. وهذا ما كان، في طريقي إلى جنّتي الأرضيّة "مدينتي السويداء" كنت قد أخبرت أخي فقط بقدومي المتوقّع وطلبت منه التكتّم. كم كانت المسافة طويلة بين الحدود ومنزلي في السويداء، كان شوقي ولهفتي للقاء أكثر ممّا كنت أتخيّل، الآن سأرى أمي، أخوتي، بيتي، زوجتي وطفلتي ليضحك قلبي من جديد. ها أنا في باحة منزلنا الجميل الفقير الدافئ بجدارنه المتشققة وغرفه المتفرّقة. حيث كان بعضها مسقوفاً بصفائح الزنك. في حديقة المنزل الترابيّة كانت نافورة الماء[١٩] الدمشقيّة الطراز ماتزال تذكر حفلات سباحتنا فيها كأطفال بالرغم من صغرها. حديقة منزلنا وحدها طقس كامل من الذكريات،

١٩- النافورة دفق من الماء ناتج عن ضغطها، عبر ثقوب ضيّقة في منتصف حوض «البركة او البحرة»، فترتفع إلى مستوى معيَّن أولاً ثم تهبط. ويحصل الارتفاع طبيعياً أو اصطناعياً

انهمرت جميعاً في رأسي الآن، من رائحة التراب بعد أوّل زخّة مطر، إلى حكايات كلّ واحدة من أشجار الزيتون والتين والإجاص والليمون والرمّان والملّيسة، إلى مساكب النعناع والخضروات فضلاً عن أزهار الزنبق المنتشرة هنا وهناك. ككلّ نبتة في حديقة منزلنا كانت تلتحم بالتراب وكأنّما هي تروي قصّة عشق أبديّ لا يزول!

بكى الجميع سعادة لعودتي سالماً، وجثوت أمام والدتي أقبّل رأسها ويديها وأضمّها إلى صدري. اختطفت ابنتي من أحضان أخي، لكنّ بريق نظراتها الذي عهدته مصوّباً نحوي شعرت أنّه قد خبا، كأنّما هي تعاتبني: بابا، لماذا ذهبت وتركتني؟ جرحتني نظراتها، وأحزنني إعراضها عنّي والعودة إلى حضن عمّها الذي ألفته في غيابي، فهمتها رغم حزني، واعترفت أن لا ذنب لها في ذلك، هي تتصرّف ببراءة طفولتها، وحبّها لا يعرف نفاق الكبار وتلوّنهم، فلا ملامة عليها، وأنا وحدي من يتحمّل المسؤوليّة عن كلّ ذلك.

اكتفيت بمراقبتها عن بعد، فهي تحتاج بعض الوقت لتدرك ما الذي يريده هذا الغريب منها. كلّ ما تتذكره من "بابا" هو حديثه معها عبر محادثات الفيديو. كنّا نتحادث ساعات طويلة، نتبادل الضحكات والأشواق، وتدريجياً، بعد قليل تواشجت الذكريات، وبدأت

طفلتـي تخطـو خطواتهـا الأولـى نحـوي، هـذه الخطـوات كانـت أكثـر مـا يعنينـي، مـا أعـذب ابتسـامتها وهـي مقبلـة نحـوي، ومـا أغلـى رؤيتهـا وهـي تتلمّـس وجهـي بيديهـا الرقيقتيـن كقطعتـي حلـوى شـهيّة.

مضـت الأيـام بسـرعة شـهاب يعبـر صفحـة السـماء. أمضيـت الشـهر برفقـة أسـرتي وقـرب ابنتـي، ثـم برفقـة أطفالـي فـي المعهـد، ومـع الموظّفيـن، برفقـة المـكان الـذي أشـعر بالانتمـاء إليـه، فمعهـدي كان جـزءاً حميمـاً مـن وطنـي.

رغـم الحـرب والأوضـاع غيـر الآمنـة، كنـت أذهـب كلّ صبـاح إلـى المعهـد، أجتمـع بالأطفـال وأهليهـم، كانـت الطاقـة الإيجابيّـة لـدى العامليـن قـد زادت فـي فتـرة وجـودي، والمعنويّـات ارتفعـت بشـكل ملحـوظ، فشـعرت أنّ كلّ شـيء فـي معهـدي، بفرعيـه، يزدهـر ويزهـر ويثمـر. لـم يعـانِ فـرع المعهـد فـي السـويداء فـي غيابـي كمـا عانـى فـرع جرمانـا، فرحـت أخصّـص الوقـت الأكبـر والجهـد الأكثـر لـه متنقّـلاً بيـن المدينتيـن بكثيـر مـن الحـذر والخـوف. والأهـمّ أنّ الحيـاة عـادت تـدبّ فـي معهـد جرمانـا مـن جديـد، بعـد أن غـدا زهـرة ذابلـة علـى وشـك المـوت، جهـدت كـي أكـون المـاء الـذي يـردّ الـروح إليهـا!

اسـتمتعت بالعمـل مجـدّداً مـع الأطفـال فـي الصفـوف،

وبمناقشة تفاصيل حياة كلّ طفل منهم مع أسرته، وأسديت نصائح مهمّة للأهل بقصد التوصّل إلى حلول مدروسة للمشاكل التي قد تواجه أطفالهم التوحّديين، ودعمت العاملين في المعهد لأن شعورهم بالأمان هو أقوى ما يدفعهم للعمل بإخلاص. سعدت وأنا أرى عيون الأطفال والموظّفين والأُسر تبرق بنشوة الفرح، فأنا أكثر ما يبهجني أن يردّد أطفال المعهد اسمي بعد فسحة من اللعب والرقص والضحك معاً!

كم هو جميل أن ترى طفلاً متّهماً بأنّه لا يشعر بالآخرين ولا يحمل نحوهم أيّ عاطفة أو مشاعر، ما إن يلمحك حتى يركض نحوك لاحتضانك وقد بدا في أقصى الشوق إليك بعد غيابك الطويل! نعم، هذا ما فعله بعض الأطفال التوحّديين في المعهد، وهذا ما جعلني أشعر كأنّني أملك الدنيا وما عليها، فكم سعيت لأجعل طفلاً توحّدياً يرغب أن يمدّ يده ليصافح الآخرين وأن يقول "مرحباً" بكلّ محبّة، وكم اجتهدت ليعبّر طفل توحّديّ عن مشاعره بطريقة ما قد يبتكرها بعفويّته، أدركت في تلك اللحظات أنّ عدم التعبير عن المشاعر عند بعض أطفال التوحّد ليس قسريّاً هو اختيار محض. حتى أنّني كنت أشعر بسعادة غامرة عندما يهرب أحد الأطفال من صفّه ليأتي إلى مكتبي، فقط ليناديني باسمي.

شرح لي أولياء الأمور ما الذي حدث في غيابي

بالمعهد، وكيف حدث، ولماذا حدث. ونجحت في إعادة بناء ذلك الحلم وترميم مملكتي التي حاول العدو تدمير قلاعها. كانت عودتي المؤقّتة فرصة لتجديد الأمل لدى عدد من الأُسر وعودة الشعور بالاطمئنان على أطفالهم، وهذا ما جعلني أشعر بالفخر وأنّ حِملاً ثقيلاً من الهمّ قد انزاح عن صدري.

"أنت الآن هنا ترشف قهوتك الصباحيّة، على صحن فنجانك بعضٌ من زهرات الياسمين زيَّنه بها الشخص الذي أعدّ لك القهوة، ليعبّر لك عن محبّته وفرحته بعودتك سالماً. أنت الآن حيث ترى أشخاصاً لا تربطهم بك قرابة دم، يعانقونك وأعينهم تفيض بالدموع. أنت الآن تستعيد كلّ المشاعر التي افتقدتها، في غربتك، الطِيبة والتعاطف والألفة الاجتماعية، والضحكات النابعة من القلب برغم وجع الظروف التي تفترس حياة الناس، الآن تنطلق الأرواح بعفويّة للتعبير عن المشاعر كما هي دون الحاجة لكتمها أو تزويقها كما في السويد. أنت الآن تعيش شخصاً كاملاً وليس نصف شخص كما في السويد، شخصاً يستطيع التعبير عمّا يريد والتفاعل كما يريد دون حاجة للتأقلم وبذل المشقّة لتغيير عاداته وطباعه. أنت بكلّ بساطة سعيد يا صديقي وتشعر بأنّك موجود حقّاً.

أيعقل أن تحمل بلاد تنهشها الحرب ويكتنفها الدمار شعوراً بالأمان والسلام لروحك أكثر ممّا منحتك أرض آمنة هاجرت إليها؟ هل من تفسير سوى أنّك هنا أنت في وطنك، بينما أنت هناك غريب غريب؟" كان الصوت يشاركني ويلخّص بهجة روحي.

طبعاً لم تنجُ زيارتي من بعض المنغّصات وهي تلك التحقيقات التي كانت تعكّر مزاجي، بينما أنا أسرع لأجعلها تتلاشى بلقاء شخص أحبّه أو البقاء في مكان أشعر بالانتماء إليه. تمّ التحقيق معي وطرح كثير من الأسئلة عن سبب سفري، وتمّ فتح التقرير الذي كُتب ضدّي في الجامعة، فعاد كلّ ذلك إلى الواجهة من جديد. لم أكن شخصاً أهتمّ بأيّ أجندة سياسيّة يوماً، فلقد فهمت السياسة جيّداً، وهذا ما جعلني أستبدل بها أجندة إنسانيّة تبعدني عمّا تنفر منه روحي، وتضعني في المكان الذي أعشق. أنا شخص لا أجد نفسي إلّا بالعمل مع الأطفال التوحّديين، هذا أنا بالضبط، وهذا ما حاولت أن أشرحه للمحقّقين. سارت الأمور بشكل لا بأس به، وسريعاً مرّ الوقت وحان الموعد لأترك كلّ ذلك ورائي مجدّداً، وأستعدّ للرحيل!

بدأت صحّة والدتي بالتحسّن، فعلى ما يبدو أنّ فرحتها وطمأنينة قلبها الطيّب بعودة ابنها الغائب كانت

علاجاً لم يُدرج في وصفات الأطباء والصيادلة الذين عالجوها. زيارتي إلى سوريا ذاك الصيف حملت السعادة لعدد كبير من الأشخاص، في حين أنّ هذه السعادة غالباً ما ضلّت طريقها إلى قلبي، فبالرغم من فرحي لوجودي في سوريا لكنّي كنت أشتاق أيضاً للسويد. فتفكيري بسفري المحتوم بدا وكأنه سيقصم ظهري مرّة أخرى. وحنيني لوطني الجديد أوقعني في حَيرة وكثير من التساؤل.

مثلما فتحت زيارتي التحقيقات في سوريا عن سبب هجرتي، فإنّها فتحت التحقيقات من قبل دائرة الهجرة السويديّة مرّة أخرى بعد خمس سنوات من تاريخ تلك الزيارة، بنيّة سحب صفة اللاجئ والإقامة السويديّة منّي، وجعلتني أعيش تهديداً جديداً بعدم الاستقرار.

*****

(2)

"عمَّ سترحل الآن؟ ومن سوف تفارق؟ كم من الصور سوف تحمل معك في حقيبة ذكرياتك؟ كم من الفرح ستترك هنا واعداً بأنّك ستعود يوماً لترسم تلك الابتسامات على الوجوه الحزينة من جديد؟ كم من الأفكار ستحمل معك إلى عالمك الجديد، ولأصدقائك هناك خلف البحار؟ وكم من

مشاعر الانتماء وعدم الانتماء سوف ترافقك لتظلّ مشغولاً بها؟ كيف لك أيّها المجنون أن تعيش نفس المشهد مرّتين؟ والمشهد الثاني أمرّ وأقسى! ها أنت تختار أن تفارق من جديد، أن تعبر مأساة الحدود من جديد، أن تودّع أحلامك من جديد، أن تترك معشوقتك الأولى "سوريا"، وجنّتك الأرضّية "السويداء"، ومملكتك "معهدك"، وأسرتك وملاكك "ناي"، ودفء قلبك "أمّك"، ورائحة تراب وطنك من جديد!"

"احزم أمتعتك يا صديقي، فأنت مغادر. احزم أمتعتك، فأنت ما اخترت الرحيل إلّا لتحمي طفلتك من ثقافة الدم، طفلتك التي تبكي الآن لرحيلك وهي التي بالكاد اعتادت على وجودك قربها. احزم أمتعتك، ولملم جراحك، وكابرْ على ألمك، وابتسم، فوجودك في السويد أمان لك ولعائلتك مستقبلاً، ولمعهدك الذي سيصبح بمقدورك دعمه ماديّاً. إنّها مفاضلة بين حياة وحياة إحداهما فقط تصلح للعيش."

تعود لجاجة الصوت المجنون القابع في أعماقي حاضرة حادّة النبرة!

"تحتسي قهوتك صباح آخر يوم لك هنا، في

وطنك، أرضك، عشقك، ذكرياتك، لتأخذ معك دموع أمّك، وتصرّ حنينك في أكياس من شغف الذكريات، لتحتفظ بها في ثلّاجة الغربة من جديد. ترتشف قهوتك، وتدخّن سيجارتك، وتتطاير أفكارك مع الدخان كالغياب. ما الذي ستأخذه أيضاً؟ أعائدٌ أنت إلى وطنك الجديد؟ أم ذاهب أنت إلى غربة جديدة؟ تتناثر مشاعرك بين مكانين من الأرض أصبح بينك وبينهما رابط. هل ستعود إلى تلك الغابة السويديّة التي طالما صرخت فيها عالياً في لحظات ضعفك؟ إلى تلك القطّة التي تعلم مدى حزنك وانكسارك، والتي جاءت لتجلس بجوارك ناظرةً إليك في اللحظة التي سُلب منك فيها مركزك، لتقول لك "دع الحزن عنك"؟ إلى تلك العائلة التي احتضنتك في الوقت الذي لم تكن تملك فيه شيئاً؟ إلى صديق وقف بجوارك ومدّ يد العون لك؟ أهي مفاضلة بين ما ستعيشه هناك وبين اللحظات التي عشتها هنا؟ أنت تعلم أنّه لا يمكنك أن تجمع المكانين معاً. كلّ ما عليك أن تفعله هو أن تشطر نفسك إلى وسامين؛ وسام المغترب، ووسام العائد إلى وطنه. أن تعيش ممزّقاً بين جذورك، وبين تفرّعات أغصانك. ولأن طفلتك تستحقّ، سرْ أيّها الغائب الحاضر دون أن تنظر خلفك!"

أمرني الصوت بثقة وحزم.

"اصعدْ إلى سيارة الأجرة تلك، وحاذر أن تلتفت، فمنذ لحظات أخبرت أسرتك أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، احذر أن يروا كم أنت كسير القلب! وحذار أن تفقد ما تبقّى من رباطة جأشك وأنت تنظر عبر نافذة السيّارة وتتأمّل الأراضي على طول الطريق! حذار أن توقظ حجارتُها السوداء الحنينَ فيك فتعدل عن سفرك في لحظة جنون!" يتابع الصوت شدّ ازري! "ها أنت تعايش المشاهد التي عشتها من قبل، وتمرّ بطريق الهجرة الذي عبرته، وكأنّه أحد أفلام الرعب يغريك أن تشاهده مرّة ثانية. أنت تعلم تماماً أنّ عبورك إلى داخل الحدود اللبنانية وأنت تحمل إقامة في دولة أوروبيّة أفضل بكثير من عربيّ يودّ زيارة دولة عربيّة أخرى. كلّ أيام دراسة مقرّرات القوميّة العربيّة في مناهجنا الدراسية لم تكن سوى ضحك على الذقون، كم كنّا ساذجين حينما اقتنعنا أنّ العرب أمّة واحدة، وأنّ الوطن العربيّ لا يتجزّأ، يا له من هراء! هراء تراه في عيون كلّ الواقفين بالساعات الطوال على الحدود بين الدول العربيّة. تضيف المزيد إلى ملفّ ذكرياتك، وتسافر عبر مطار بيروت الذي

صرت تألفه، لكنّك أصبحت أكثر بروداً الآن، فالنظرات التي أثّرت فيك هنا في رحيلك الأوّل تناثرت حولك كالغبار، نظرات الازدراء من موظفيّ المطار، أصبحت عندك جزءاً ثابتاً من هندسة مطار بيروت"

"في الطائرة، تتذكّر وجه "أحمد" ذاك الذي ظننته صديقك، عندما التقيت به مصادفة في إحدى الدوائر الحكوميّة خلال زيارتك سوريا، تتذكّر نظراته الحائرة المرتبكة ووجهه العابس المسودّ لحظة لمحك، ربّما أسعدتك تلك الصعقة التي أصابته لأنّه لم يكن يتوقّع أن يراك في سوريا أبداً، فتلعثمت الكلمات في فمه. نعم، لقد أسعدك ذلك! وكم زدت في ارتباكه حينما لم تبادره بالعتاب كما كان يتوقّع أحمق ولئيم مثله، بل رحت بكلّ سخريتك الواثقة تمدّ يدك إليه مسلّماً وأنت تقول: "سررت برؤيتك!"، ولكي يكتمل المشهد جاء من يسأله: "هل سبق والتقيت بالدكتور وسام؟" أجاب بأنفاس تكاد تتقطّع: "نعم، نحن نعرف بعضنا، نعرف بعضنا! كم في هذه الحياة من مصادفات عجيبة! لقد كان لقاء غير متوقّع أبداً، كأنّما القدر ساقه لكي يقف أمامك تلك الوقفة الذليلة البخسة. أنت ترى أنّه حتى المصادفات تنتصر

لـك وتعيـد إليـك بعضـاً مـن حقوقـك المهـدورة، ورغم ذلـك تظلّ تشكو وتتـأوّه! اتـقِ الله في نفسـك يـا رجـل" راح الصـوت يمـلأ فـراغ صمتـي بسـبر الأحـداث وتحليلهـا."

بيـن صمتـي التـامّ وثرثـرة ذاك الصـوت فـي خلـدي. سـمعت الطيّـار يعلـن: أهـلاً بكـم فـي اسـتوكهولم، الحمـد لله علـى السـلامة.

حطّـت الطائـرة فـي مطـار اسـتوكهولم، وخرجـت مـن المطـار فـوراً، ووجهتـي منـزل عائلـة "سـيّدة الشـمس" فـي "فارمـدو" حيـث مـا زلـت أسـكن. مـن نافـذة السـيّارة كنـت أتأمّـل شـوارع اسـتوكهولم، بـدت لـي وكأنّـي أزورهـا للمـرّة الأولـى وأنّنـي لـم أقـضِ هنـا عامـاً كامـلاً. كانـت زاويـة الرؤيـة قـد اختلفـت، نظرتـي الآن هـي نظـرة العائـد الـذي يشـعر أنّـه حـرّ. أدركـت فجـأة كـم هـي جميلـة، مدينـة بجمـال فتـاة شـابّة بـدأت للتـوّ تشـعر بجسـدها يتفتّـح صِبـاً ونضـارة، كـم هـي جميلـة اسـتوكهولم حقّـاً! راودنـي إحسـاس عـارم بالفـرح، فـرح العائـد إلـى بيتـه، فـرح أكمـل ذلـك الشـعور الـذي كنـت أعيـش لحظاتـه فـي كل مـرّة أتلقّـى فيهـا رسـالة مـن اسـتوكهولم للسـؤال عـن حالـي وأنـا فـي سـوريا. فأفـرح لأنّـه هنـا فـي هـذه البقعـة النائيـة مـن الأرض ثمّـة مَـن يكتـرث لأمـري حتـى وإن كنـت بعيـداً.

كانـت سـيّدة المنـزل بانتظـاري بابتسـامتها المعهـودة، وشـعرها الأبيـض المتناثـر حـول وجههـا كبهـاء الشـمس بعـد يـوم مظلـم كئيـب، بادرتنـي:

- أهلاً بعودتك إلى الوطن!

كم كانـت جميلـة تلـك الكلمـات المرحـة! وهـي تسـتقبلني بـكلّ ترحـاب وتعانقنـي وكأنّهـا لـم تكـن تصـدّق أنّنـي سـوف أعـود حيّـاً مـن تلـك البـلاد! كـم كانـت متلهّفـة لسـماع مـا حـدث معـي بـأدقّ التفاصيـل. دعتنـي لتنـاول القهـوة معهـا، فرحـت أخبرهـا بـكلّ مـا حـدث وأفـرغ مـا بجعبتـي مـن أخبـار رحلتـي، دون أن أغفـل عـن أيّ تفصيـل مهمـا يكـن صغيـراً. أخبرتهـا عـن فرحتـي برؤيـة سـوريا، أسـرتي وعائلتـي ولقـاء طفلتـي الصغيـرة، عـن كلماتهـا الأولـى وأريتهـا بعـض مقاطـع الفيديـو التـي صـوّرت نـاي فيهـا. بعدهـا دخلـتُ إلـى غرفتـي لكـي أزيح عـن كاهلـي بعـض ذكرياتـي، وأحـاول أن أرتّـب نفسـي مـن جديـد، لأنّنـي الآن صـرت هنـا ولـم أعـد هنـاك، فمـن الصعـب جـدّاً أن تعيـش فـي مـكان، وروحـك تقبـع فـي مـكان آخـر. حاولـت اسـتعادة هدوئـي مسـتعيناً بنظـرات القطّـة الجالسـة قبالتـي هنـاك، حدّثتهـا عـن مـدى سـعادتي عندمـا كنـت فـي سـوريا. اتصلـت لأطمئـن عائلتـي بوصولـي سـالماً، وخلـدت إلـى النـوم علّ حلمـاً يأتينـي ويحملنـي إلـى مـكان قـد يجيـب علـى أسـئلتي المعلّقـة، أو

علّـه يرسـم لـي خطـوات جديـدة فـي مشـواري، فالهـرب إلـى الأحـلام كان كلّ مـا أملـك حينهـا. فأنـا، بالرغـم مـن سـعادتي بالعـودة، كان مـا يـزال هنـاك شـيء ناقـص؛ كـم كان جميـلاً لـو كانـت طفلتـي الآن معـي تحتضننـي كتلـك الصـورة التـي التقطتهـا عدسـة الكاميـرا لنـا ونحـن ننظـر فـي عيـون بعضنـا بعضـاً؟ لـو أنّهـا الآن هنـا تنـام إلـى جانبـي آمنـة مطمئنـة! تمنّيـت لـو أنّ الحلـم يأخذنـي إلـى هنـاك!

كان قـد تبقّـى لـديّ بضعـة أيـام مـن الإجـازة قبـل العـودة لارتيـاد مدرسـة تعلّـم اللغـة مـن جديـد، فقابلـت بعـض الأصدقـاء. واسـتمتعت بصيـف اسـتوكهولم مهيّئـاً نفسـي لمتابعـة دراسـة المرحلـة الثانيـة مـن اللغـة السـويديّة بشـغف أكبـر، تلـك المرحلـة التـي تدعـى مرحلـة الـ SAS.

*****

العمل وخيبات الأمل

أعبء ثقافيّ أنت؟

أم أنّك هدهدٌ على مرآة نارسيس؟

يقتلون فرح الولادة فيك

لتناجي ثيمس[٢٠] في محطّة النسيان.

(1)

مرّت الأيام متشابهة، أنهض في الصباح الباكر، أتّجه إلى مدرسة تعلّم اللغة لأبقى هناك ثماني ساعات، وأحياناً نصف هذا الوقت، وبعدها يمكنني أن أنصرف إلى بعض أموري كلقاء الأصدقاء أو الذهاب إلى المكتبة. وفي أيام الإجازات، كنت أمضي معظم الوقت مع الأصدقاء وبخاصّة صديقتي الطبيعة! ففي تلك الفترة من السنة كان عليّ أن أخترع أموراً أملأ بها ساعات النهار الطويلة جداً، حيث تشرق الشمس في الثالثة فجراً وتغرب في الحادية عشرة ليلاً، الأمر الذي جعلني أشعر بالأرق أحياناً. كنت أحرص على إسدال الستائر بإحكام كي لا أستيقظ عند دخول الضوء. لكن في المقابل كان طول فترة النهار يجعلني

٢٠- ثميس: هي إلهة يونانيّة قديمة. وصفت بأنها «الموعظة الحسنة»، وتجسيد للأمر الإلهي وللقانون والعرف.

أشعر بالنشاط والرغبة بإنجاز الكثير من الأمور.

قرّرت الاستمرار في دراسة اللغة والبحث عن عمل في آن معاً، وعدم انتظار مكتب العمل ليوفّر لي فرصة. فرحت أبحث عبر الإنترنت عن عمل يناسب مجال تخصّصي، ومع معرفتي أنّه كان عليّ أن أنتظر معادلة شهاداتي، لكنّني بدأت بالتجريب على كلّ حال. وجدت إحدى فرص العمل وتحدّثت عنها مع المسؤولة في مدرسة اللغة، فساعدتني في إرسال أوراقي إليهم، كما ساعدتني في التواصل مع مديريّة التربية ووزارة الصحّة، فحصلت على ترجمة معتمدة لشهاداتي وتوثيق كامل لها، وهذا كان كافياً ليحفّزني أكثر للبحث عن عمل.

فرصة العمل التي وجدتها، كانت في مدرسة تبعد عنّي ما يقارب مسير ساعة في الحافلة، حينها كنت قد بدأت أتحدّث قليلاً باللغة السويديّة، وهذا أسعدني غاية السعادة. وعندما قابلت مديرة المدرسة، اتفقنا أنهم سيتواصلون معي بعد أن يقوموا ببعض الإجراءات. مرّت ثلاثة أسابيع قبل أن يرسلوا لي: "نحن جاهزون، أهلاً بك معنا". كانوا مهتّمين بالحصول على مساعدة مكتب العمل لهم بدفع راتبي لأنّني ما أزال في مرحلة الترسيخ وفقاً لقوانين السويد. حيث يقوم مكتب العمل بدفع مرتّبي مدّة سنة لصاحب العمل الذي يوظّفني في مؤسسته بعقد ما.

ناقشنا كلّ التفاصيل ولم أعترض على أيّ منها، فكلّ ما كنت أريده هو أن أبدأ فقط. وصلنا إلى فقرة الراتب الذي سوف أتقاضاه، ولأنّني كنت قد اطّلعت مسبقاً على رواتب اختصاصيي التربيّة الخاصّة في السويد وأنّها تتراوح ما بين ٣٦ ألفاً إلى ٤٠ ألف كرون في الشهر، كنت قد أجريت محاورة عقليّة قبل اللقاء مع نفسي وقرّرت أنّني سأقبل بما يعادل ٢٨ ألف كرون راتباً مبدئيّاً تبعاً لوضعي كمقيم جديد في السويد لم يتقن اللغة بعد! عرضوا عليّ راتباً يبلغ ٢١,٥٠٠ كرون في الشهر، في تلك اللحظة شعرت بأنّهم ينظرون إليّ باستخفاف واستغفال، فذلك الراتب هو نفس المبلغ الذي سيحصلون عليه من مكتب العمل، وهذا يعني أنّهم لا يريدون أن يدفعوا لي كروناً واحداً من حسابهم! فكان ردّي حازماً:

- لو كنتم ستوظّفون شخصاً يحمل أقلّ من شهاداتي لكنّه يتقن السويديّة أكثر، فلا بدّ أنّكم ستدفعون له راتباً يصل إلى ٤٠ ألف كرون، وأنا لا أقبل العمل بمرتّب يقلّ عن ٢٨ ألفاً، وأترك لكم أن توفّروا اثني عشر ألفاً فضلاً عن المساعدة التي ستتلقونها من مكتب العمل.

رفضت المديرة قراري معلنةً إنّهم لا يمكنهم القبول بمرتّب أعلى ممّا عرضوه عليّ، بحجّة أنّي لم أكن

قد عملت في السويد قبلاً، كما أنّني لا أجيد التحدّث بالسويديّة من جهة ثانية!

استفزّتني إشارتهم المتكرّرة إلى عجزي عن التحدّث بالسويدية، ومحاولاتهم الحثيثة للتركيز على الجوانب التي أفتقدها أكثر من التركيز على كفاءاتي، لأبدو وكأنّني أطالبهم بما لا أستحقّ، فما كان منّي إلّا أن حزمت أمري:

- إذن، أنا أرفض فرصة العمل هذه!

حقيقة كانت خيبة الأمل تلك قد حزّت في نفسي، لأنّني كنت أعتقد حينها أنّ المجتمع السويديّ عادل إلى درجة أن يعطي كلّ ذي حقّ حقّه، لكنّ الذي بدا لي أنّ نزعة الاستغلال يمكن أن تطال ببساطة من كانت ظروفه تشبه الوضع الذي أنا فيه. آلمني ذلك الشعور حدّ البكاء!

بعد خروجي من المقابلة، ذهبت إلى مدرسة اللغة فوجدت أنّ الخبر قد سبقني إلى هناك، حتى أصبحت قصّتي موضوعاً للنقاش بين الجميع؛ ذاك اللاجئ رفض أن يعمل براتب جيّد. بينما أنا ما كان يؤلمني ليس ضآلة المرتّب، بل المبدأ في استغلال وضعي لأتحوّل إلى موظّف بنصف مرتّب يتقاضاه أيّ موظّف آخر. كلّ ما كنت أسعى إليه هو الحصول على حقّي،

فمن الصعب أن أبدأ مستقبلي المهنيّ وأنا أشعر منذ البداية بالغبن واستغلال الآخرين لي.

"كم أنا سعيدٌ لسقوط قناعٍ آخر أمامك اليوم، وكم أنا سعيدٌ لأنّك سافرت إلى سوريا واستعدت قدرتك على رفض ما ليس يليق بك على الرّغم من خيبة الآمال التي ترافق ذلك. لا عليك، دعهم يفعلون ما يريدون، فلم تكن تلك هي المرّة الأولى ولن تكون الأخيرة التي سترفضها وتقول "لا"، فما أكثر ما كنت شخصاً رافضاً لكلّ ما يستحقّ الرفض من وجهة نظرك!" جاءني التعليق من الصوت الذي يترصّد حركاتي!

عدت ذاك المساء، فاستقبلتني سيّدة المنزل متلهّفة تريد أن تعرف ما حصل معي في المقابلة، جلسنا في الشرفة أمام باب المنزل، وأخبرتها بما حصل تماماً، واصفاً لها ما شعرت به دون أن أستطيع حبس دموعي! أحسست في تلك اللحظة أنّها لم تكن مقتنعة بما يكفي للتعاطف مع مشاعري، بل أحسست أنّها تنحاز إلى موقف الآخرين أكثر. هذه المرّة بدا واضحاً أنّها ليست في صفّي حقاً، كأنّه لم يكن كافياً لتسويغ رفضي شعوري بأنّ لديّ الحقّ أن أقول "لا" حتى لو كنت لاجئاً، حتى لو كنت مختلفاً! ربّما كان ذلك الصمت منها هو ما يسمّونه بالبرود السويديّ، حيث

يلتـزم الشـخص منهـم الاسـتماع والصمـت دون التعبيـر عـن حقيقـة مـا يـدور فـي خلـده. لم يطـل صمتهـا، فراحت تحـاول مواسـاتي، لكـنّ محاولتهـا ظلّـت بـلا طـائـل وبقيت المعادلـة فـي عقلـي هـي نفسـها لـم تتغيّـر. ربّمـا أحسّـت أخيـراً بفداحـة ألمـي، لا أعـرف، كلّ مـا أحسسـته فـي تلـك اللحظـة أنّنـي وحيـد تمامـاً. أنـا فـي مجتمـع يرفـض رفضـي، عـدت فتذكّـرت كلامهـم لعلّنـي أجـد فيـه ولـو لمحـة يمكـن اعتبارهـا إيجابيّـة لكـي تكـون حافـزاً فـي خطواتـي القادمـة، لأمتلـك حجّـة أقـوى تجعلهـم يقتنعـون أنّنـي أسـتحقّ أكثـر ممّـا يعرضـون علـيّ، فكّـرت: هـم لا يعرفـون كـم أنـا مخلـص فـي عملـي وكـم لـديّ مـن الطاقـات لتقديـم أكثـر بكثيـر ممّـا آخذ، والأهـمّ مـن ذلـك كلّـه أنّهـم يجهلـون كـم أعشـق العمـل مـع الأطفـال!

لـم أسـتطع النـوم تلـك الليلـة، حنينـي لماضـيّ وجـد طريقه إلـيّ وإلـى حاضـري الفـارغ، وإلـى شـعوري بأنّـي لا شـيء. أتذكـر أنّنـي نشـرت صـورة فـي تلـك الليلـة، علـى إحـدى وسـائل التواصـل الاجتماعـي، لشـخص قـزم ويـد كبيـرة تزيـد بأضعـاف عـن حجمـه، تضغطـه بإصبعهـا لتسـحقه أرضـاً، وكان التعليـق علـى الصـورة "الحيـاة تسـحق!" بعـد عـدة أيـام اشـتريت هدايـا للمعلميـن فـي مدرسـة تعليـم اللغـة وكذلـك لمسـؤولة الدراسـة لمصادفـة عيـد المعلـم فـي سـوريا فـي ذلـك اليـوم. حاولـت فـي اليـوم التالـي أن أتحـدّث إلـى مسـؤولة العمـل لكنّهـا

رفضت مواجهتي، وكذلك مسؤولة الدراسات التي كنت أعرف أنّها تكنّ لي الاحترام والتقدير، ذهبت إليها لتقديم الهدية، فرفضتها حينها سألتها:

- إنّني لا أستوعب ما الذي يحدث، أكلّ هذا لأنّني قلت لا لفرصة عمل لا تنصفني؟

ما فهمته حينها، أنّه كان عليّ قول "لا" قبل ترتيب اجتماع خاصّ لمناقشة العقد وليس أثناءه أو بعده، لكنّني لم أكن أعرف مسبقاً أنّ الراتب سيكون كذلك، فكيف سأرفض شيئاً لا أعلمه؟ لكن مسؤولة الدراسات اعتبرت أنّ وجب عليّ معرفة ذلك كون فرصة العمل مندرجة تحت ما يدعى مساعدة مكتب العمل لرب العمل، لكن لم يكن أحد قد شرح لي ذلك.

بعدها، شعرت بأنّي منبوذ من مسؤولة العمل ومن منسّقة الدراسات، كأنّني تحوّلت في عيونهم تلك اللحظة من الملاك الذي كانوا يدعمونه ويشجّعونه إلى شيطان رجيم! كلّ ذلك لأنّني قلت "لا!" وقد أهدرت وقتهم الثمين. كانت نظراتهم المصوّبة نحوي توشك أن تنطق: "من تظنّ نفسك؟!" متناسين حقّي في أن أرفض وظيفة بمرتّب لا يتناسب مع نصف مؤهّلاتي!

عزّاني أنّي كنت محظوظاً بوجود أصدقاء من ثقافات

أخـرى حولـي، غيـر السـوريّين الذيـن هاجـروا وهـم مقتنعـون بنظريّـة المؤامـرة.

جـاء "كيـم Kim" ليرفـع مـن معنوياتـي، فقـد محضنـي رأيـاً محبّـاً؛ أن أتجاهـل كلّ مـا حصـل وأن أركـز علـى نفسـي والسـعي لتطويرهـا فقـط. كنـت أشـعر أحيانـاً أنّ السـويد تحمـل التطـرّف الفكـريّ والعنصريّـة غيـر المعلنة مثلمـا تحمـل الجانـب الإيجابـيّ، لكـنّ الافتـراض المسبق بوجـود نظريّـة المؤامـرة مـن شـأنه أن يؤخّـر مـن تكيّـف الفـرد أو حتـى قـد يمنـع تقبّلـه للآخـر لاعتقـاده أنّ الآخـر يحمـل النوايـا السـلبيّة ضدّه سـلفاً. ويتضمّن ذلك إسـقاطات كثيـرة لمناحـي التفكيـر والخبـرات السـلبيّة فـي البلـد الأمّ علـى المجتمـع السـويديّ وبخاصّـة فـي مجـال ممارسـات المؤسّسـات السـويديّة الرسـميّة. اقتنعـت بنصيحـة "كيم". وفـي اليـوم التالـي أرسـلت أكثـر مـن عشـرين طلبـاً للعمل فـي فـرص رأيتهـا تتناسـب مـع تخصّصـي، فالمختصّـون فـي التربيـة الخاصّـة فـي السـويد مطلوبـون علـى الـدوام.

صدمتنـي خيبـة أمـل ثانيـة بـأنّ طلبـي للحصـول علـى ترخيـص كاختصاصـيّ نفسـيّ تـمّ رفضـه، وذلـك لأنّـه كُتـب علـى شـهادتي "كليّـة التربيـة" رغـم أنّ اسـم الكليـة الأصلـيّ فـي جامعـة دمشـق هـو "كليّـة التربيـة وعلـم النفـس"، وهـذا مـا جعلهـم يقـرّرون أنّنـي تخرّجـت فـي اختصــاص "التربيــة" وأنّ عملــي يقتضــي أن أكــون معلّمـاً وليـس اختصاصيّـاً نفسـيّاً. صعـب علـيّ أن أفسّـر

لهم ذلك، فكيف يمكنني أن أتجاوز عقبات الترجمة! لكنّي عزمت على مواصلة الطريق ومتابعة دراستي للغة. كما واصلت رفضي القاطع لكلّ عروض العمل بالأسود (دون ترخيص) التي جاءتني. ساعدني ذلك على التركيز على ما أقوم به وعدم الانجرار وراء المكاسب الماديّة العابرة.

توالت خيبات الأمل بعدم إقرار أيّ مقابلة لفرص العمل المتعدّدة التي تقدّمت إليها، فقد دعتني جهة واحدة لمقابلة عمل، في الشهر الثالث من عام ٢٠١٧. ذهبت إليها، وكانت لغتي السويديّة قد بدأت تتطوّر أكثر بعد قضاء ثمانية أشهر في المدرسة والوصول إلى مستويات جيّدة جدّاً بدرجة A، ولم يتبقَ سوى مستويين اثنين فقط لإتمام مراحل تعلّمي اللغة. سارت المقابلة بشكل جيّد، فطلبوا منّي مراجعة مكتب العمل.

بادرتهم بالسؤال:

- قبل أن أذهب إلى مكتب العمل، أودّ أن أعرف مقدار الراتب الذي ستعرضونه عليّ، فأنا لا أريد أن تتكرّر التجربة المريرة ذاتها التي عشتها من قبل، فأجابوا:

- لأنّك لمّا تحصل على ترخيص للعمل بعد، فنحن نفكّر بعرض مبلغ ٣٠ ألف كرون مرتّباً

شهريّاً لك.

فقبلت مباشرة، مقتنعاً أنّ لديهم الحقّ في أخذ نقاط ضعفي بعين الاعتبار، المهمّ ألّا يشعروني بأنّي أقلّ من غيري بكثير. قمت بعدها بنقل ملفّي من مكتب العمل الذي كنت مسجّلاً فيه إلى مكتب آخر في استوكهولم لكي أتحاشى الحديث مع مسؤولة مكتب العمل التي بدأت تنبذني. تواصلت بعدها مع مكتب العمل الجديد، حيث جهّزوا عقد العمل الإضافيّ الداعم لربّ العمل لكي يمكنه الحصول على مساعدتهم. كانت مديرة تلك المدرسة داعمة ومتقبّلة جدّاً لي ولخلفيّتي الثقافية، وهذا ما شجّعني وزاد من رغبتي في قبول فرصة العمل هذه. بعد شهرين أصدر مكتب العمل قرار الموافقة على عملي كاختصاصيّ تربية خاصّة غير حاصل على الترخيص. كانت الإجازة الصيفيّة على وشك البدء، فنصحتني مديرة المدرسة باستغلال ذاك الوقت بالتركيز على دراستي اللغة، لأنّ المدرسة سوف تغلق أبوابها قريباً، هذه النصيحة زادت من اطمئناني للدعم الذي تقدّمه المديرة لي.

"لا تثق بنصيحتها. تذكّر رمزيّة الأفعى والثعبان في الأسطورة! تذكّر قدرتها على تجديد جلدها لتبدو بالنسبة للناظر إليها وكأنّها ولادة جديدة. ارقص رقصة الأفعى كما يفعل شعب هوبي في

أمريـكا الشـمالية دعـاءً لأرواح الغيـوم والرعـد والبـرق حتـى يتسـاقط المطـر ويـروي المحاصيـل المتناميـة. أنـت بحاجـة للانبعـاث مـن جديـد يـا صديقـي، لـذا فاسـرقْ نبتـة الحيـاة كمـا سـرقتها الأفعـى مـن جلجامـش بعـد ذلـك الصـراع الدامـي فـي بحثـه المريـر عـن الخلـود. استغلّ هـذا الوقت بالسـفر إلـى المـكان الـذي يشـعرك أنّـك شـخص قـادر ومكافـح ناجـح والدليـل معهـدك فـي سـوريا. اذهـب إلـى الأشـخاص الذيـن تعتبـر رؤيـة وجوههم كفيلـة بمـدّك بالطاقـة اللازمـة للاسـتمرار فـي المحاربـة "نـاي وعائلتـك" زمجـر الصـوت فـي داخلـي واثقـاً وحنونـاً."

ولـم أكـذّب الخبـر، فقـرّرت السـفر إلـى سـوريا مـرّة أخـرى.

مضـى علـى وجـودي مـع عائلـة "سـيّدة الشـمس" مـا يقـارب سـنة وخمسـة أشـهر، وكنـت مؤخّـراً قـد بـدأت ألحظ بعض التصرّفـات التـي استوحيت منهـا أنّـه صـار علـيّ البـدء فـي البحـث عـن مـكان آخـر للسـكن. كانـت الملاحظـات المدوّنـة علـى قصاصـات ورقيّـة قـد بـدأت تتزايـد أكثـر، فـكان ذلـك طارئـاً عنـدي.

اعتبرتهـا إشـارة موجّهـة إلـيّ، فالسـويديّون غالبـاً مـا يسـتخدمون القصاصـات الورقيّـة لكـي يعبّـروا عمّـا

يجـول فـي دواخلهـم تجـاه بعـض المواقـف، بـدلاً مـن المواجهـة. وددت لـو أنّهـم يخبرونـني بمـا يريـدون وجهـاً لوجـه، لكـن لا بـأس، فلـكلّ شـخص طريقتـه، وربّمـا لـم يكـن ذلـك موجـوداً سـوى فـي وهمـي. فـكان بعدهـا أنّنـي أصبحـت أطيـل الغيـاب عـن المنـزل.

قـررت الرحيـل، فبـدأت البحث عـن منزل جديـد، وبالطبع لـم يكـن ذلـك سـهلاً أبـداً. لأنّنـي أردت أن أبقـى حـذراً مـن الانجـرار للوقـوع فيمـا يسمّـى بضغـط المجموعـة وإيجـاد سكن فـي المناطـق التـي تتمتّـع بالأغلبيّـة العربيّـة. حيـث يميـل عديـد مـن اللاجئيـن إلـى خيـار عـزل أنفسـهم عـن المجتمـع باتخـاذ قـرار السـكن فـي مناطـق منعزلـة، أو فـي مناطـق يتحـدّث المقيمـون فيهـا لغتهـم الأمّ. وبالرغـم مـن أنّ ذلـك قـد يجعـل حياتهـم أسـهل علـى المـدى القصيـر لكنّنـي كنـت مـدركاً أنّـه سـيترك آثـاره السـلبيّة علـى المـدى البعيـد. لـذا حاولـت البحـث عـن سـكن فـي مناطـق ذات أغلبيـة سـويديّة.

"تائـه أنـت فـي ثنايـا روحـك! تتأرجح بين وثـاق حبّ قديـم وبريـق حاضرٍ مؤلم. ففي سـاعة تريد أن تتوحّد مـع الثقافـة السـويديّة، وفي سـاعة أخـرى ترفض كلّ محـاولات الآخريـن لجعلـك سـويديّاً!" هـذر صوتـي الداخلـيّ منتقـداً ارتباكـي الـذي أسـماه ضياعـاً.

ذات مصادفــة، بينمــا كنــت عنــد صديقــي ”كيــم“ فــي منزلــه، كان يبحــث لــي عبــر الإنترنــت عــن ســكن مناســب، فوجــد لــي شــقّة بســعر معقــول فــي منطقــة قريبــة مــن مــكان ســكني الحالــيّ. اتفقــت مــع أصحابهــا علــى أن أســتلم الشــقّة بعــد شــهر. لقــد آن الأوان للرحيــل مــن منــزل عائلــة ”ســيّدة الشــمس“، فهــم قــد اســتقبلوني ورحّبــوا بــي وكانــوا فــي غايــة اللطــف معــي طــوال هــذه الفتــرة، وكانــوا كرمــاء جــدّاً معــي، فقدّمــوا لــي كلّ مــا كنــت بحاجــة إليــه تمامــاً.

انتقلــت مــن المنــزل فــي يــوم عمــل حيــث كانــوا فــي الخــارج، فأنــا أكــره لحظــات الــوداع! رتّبــت غرفتــي كمــا كانــت عندمــا اســتلمتها منهــم، وتركــت فيهــا زهــرة وقصاصــة ورقيّــة كتبــت عليهــا:

شكراً لكم لاستضافتي هنا معكم، شكراً جزيلاً لكلّ شيء فعلتموه لأجلي!

(2)

بــدأتُ عملــي الجديــد مــع بدايــة الشــهر الثامــن، وقــد كانــت مهمّتــي الأولــى ملاحظــة الأطفــال فــي الصفــوف والتحدّث مــع فريــق العمــل، أي مــع اختصاصيــيّ التربيــة الخاصّــة الموجوديــن فــي المدرســة، والذيــن لــم يرحّبــوا بوجــودي إطلاقــاً! فكنــت كلّمــا وددت طــرح أيّ فكــرة

تفاجئنــي ردود الفعـل مـن مثـل:

مـاذا قلـت؟**!** وهو سـؤال مـن طريقة صياغته الاسـتنكارية كان يزحــم عقلــي بكثيــر مــن الاســتغراب. تــرى هــل نطقــت الجملــة بشــكل خاطــئ؟ هــل ثمّــة طريقــة أســلم للنطــق بهــا؟ هــل أخطــأت فأخللــت بــأيّ مــن القواعــد؟ أم أنّ كلامــي غيــر مفهــوم؟ أم فــي النهايــة لأنّنــي أجنبــي وغريــب عنهـم وهـم لا يريدوننــي بينهـم؟ وأسـئلة كثيـرة مماثلــة تنـدرج جميعـاً تحـت مـا أسـميته **"**قلـق الأقلّيـات**"**.

"نحن لا نعمل بهذه الطريقة هنا في السويد**!"**

ذاك الـردّ مـع مـا فيـه مـن تهذيـب ظاهـريّ كان يذكّرنــي دائمـاً بأنّــي غريـب وأنّنـي لا أعـرف أين أنـا. فكنت أسـرع بالعـودة إلــى المراجــع والأدلّــة الخاصّــة بالتعليــم وأنظمتــه فــي الســويد، وغالبـاً كنـت أكتشـف أنّهـم لـم يكونـوا علــى صــواب، وأنّهــم يقولــون ذلــك لإحراجــي ومنعــي مــن المبــادرة بــأيّ خطــوات أو اقتراحــات جديــدة.

" يــاا، يــاا**!"** هــي صيحــة يطلقونهــا فــي وجهــي، تعنــي أنّ حديثــي غيــر مقبــول، وليــس مثيــراً لأيّ اهتمــام. فــإذا مــا ســألت مستفســراً عــن الطريقــة المثلــى لســير الأمــور، كان الــردّ ذاتــه يتكــرّر بفجاجــة واضحــة:

أنّ عليّ أن أقرأ وأطّلع أكثر لمعرفة المطلوب.

لــم يســمحوا لــي بتاتــاً بممارســة دوري كاختصاصــيّ

تربيـة خاصّـة، فبـدأت أشـعر أنّ الأبـواب مغلقـة أمامـي فـي بيئـة العمـل تلـك، حتـى أنّ قيـام المديـرة بتخصيـص غرفـة مكتـب لـي لمتابعـة عملـي فيـه لـم يكـن موضـع ترحيـب منهـم.

ربّمـا كان أيضـاً حماسـي الزائـد واندفاعـي للبـدء بالعمـل أحـد أسـباب عـدم تكيّفـي مـع بيئـة العمـل تلـك. على سـبيل المثـال، قـرأت خطـط أحـد الطـلاب فـي المدرسـة علـى مـدار سـبع سـنوات فـي ملفّـه، فناقشـت إحـدى المختصّـات أنّـه قـد تـمّ وضـع هـذا الهـدف للطفـل منـذ سـبع سـنوات، ثـم تكـرّر نفـس الهـدف فـي خطّتـه الفرديّـة، فأيـن التقـدّم فـي مثـل هـذه الحالـة؟ فقـد اعتـدت فـي معهـدي أن أقـدّم للأهالـي تقريـراً أسـبوعيّاً بمـا يطـرأ علـى الطفـل مـن تقدّم. بالطبـع لـم ينـل انتقـادي هـذا أيّ رضـاً منهـا رغـم أنّـه علـى صـواب تمامـاً، ولمّـا يكـن قـد مـرّ علـى وجـودي بينهـم سـوى أسـبوعين فقـط! شـعرت حينهـا أنّنـي ارتكبت بملاحظتـي هـذه خطـأً فادحـاً.

"إنّهـم يحتجّـون علـى كلّ شـيء، إنّهـم كزجـاج هـشّ يسـهل تحطيمـه! يعشـقون التفاصيـل كعشـق الزهـور لقطـرات النـدى، ويغفلـون عـن إضافـة لمسـة جديـدة مهمـا تكـن بارعـة! أتسـاءل الآن: كيـف لـك أن تعيـد تعريـف الضغط والإهانـة، والهامّ والأهـمّ؟" لخّـص صوتـي الداخلـيّ مـا قـد رأيـت!

عدم الترحيب بي ونبذي دفعني للانغلاق على نفسي، فأنا لم أسلم من التعليقات والنظرات التي شعرت بأنّها تحمل كثيراً من الإهانة لي. كنت أتمنّى في قرارة نفسي أن أصرخ في وجوههم غاضباً: بأيّ حقّ ترفضون وجودي هنا، لماذا لا تبادلونني احترامي لكم بمثله؟ هل لأنّ شعري أسود وبشرتي سمراء؟

في موقف آخر، أرادت نائبة المديرة ذات مرّة أن تناقشني في أمر ما، فقلت في عرض حديثي معها: إنّني أحمل شهادات عليا في مجال النقاش، كما أنّني قد بحثت فيه سابقاً، وربّما أواصل البحث فيه هنا. فصرخت: "يا ها!!" هل تعتقد أنّك سوف تتمكّن يوماً من القيام بأبحاث هنا في السويد؟ والدتي أيضاً أتت إلى السويد وهي تحمل درجة الدكتوراه، لكنّها لم تعمل أكثر من معلمة!

"تذكر! في البداية يتجاهلونك، ثم يسخرون منك، ثم يحاربونك، ثم لا بدّ أن تنتصر، ألم يقل غاندي هذا؟" شجّعني الصوت الهاتف في خلدي.

هذه المرّة لم أستطع أن أصغي إلى أيّ كلام كهذا. كانت حالة أخرى تتخمّر في رأسي، فبعد ثلاثة أسابيع من بداية عملي في المدرسة، وخلال أحد

الاجتماعــات، أعلنــت بالفــم المــلآن: أنــا لا أشــعر أنّ وجــودي هنــا مرحّــب بــه، فــإذا كان حدســي صائبــاً أرجوكـم أن تخبرونـي، وسـوف أرحـل مـن هنـا فـوراً! ابتسـموا ابتسـامات صفـراء قائليـن: لا علـى العكـس! القضيّـة تتعلّـق بـك، فـإذا كنـت لا تشـعر بالارتيـاح هنـا، يمكنـك أن تقـدّم اسـتقالتك وتبحـث عـن عمـل آخـر!

دفعتنــي المديــرة لتقديــم اســتقالتي رغــم أنّــي لــم أطلــب ذلــك، ونصحتنــي بــأن أبحــث عــن عمــل فــي مناطــق الأقليّـات حيـث أنّ شـرط التحدّث باللغـة السـويديّة بطلاقة قـد يكـون أقلّ أهميّـة، ربمـا كانـت تحـاول مسـاعدتي لكن ذلـك لـم يقلـل مـن مـدى جـرح هـذه العبـارة، وقـد زوّدتني بوثيقـة تثبـت أنّـي قـد عملـت فـي مدرسـتها طالبـة منّـي ألّا أري تلـك الوثيقـة لأربـاب العمـل فـي المسـتقبل. كتبـتِ المديـرة فـي تلـك الوثيقـة أنّنـي كنـت قارئـاً جيّـداً جـدّاً بالسـويديّة، وأنّنـي قمـت بـأداء عملـي المطلـوب بملاحظـة الصفـوف بشـكل جيّـد كذلـك، لكنّـي لسـت مؤهّـلاً للعمـل فـي مدرسـة سـويديّة، ولـم تنـسَ أن تذكـر أنّنـي عبّـرت لزملائـي عـن عـدم سـعادتي فـي مـكان العمـل وأنّنـي أفكّـر مليّـاً بتقديـم اسـتقالتي!

"ربّمـا تختلـف الطريقـة لكـنّ النتيجـة هـي نفسـها، ممارسـات ضغط بأسـاليب مختلفـة. ألـم يكن مـن الأفضل أن يجـدوا لـك مرشـداً يسـاعدك علـى الاندمـاج؟ أليـس مـن الجديـر بهـم أن يقدّمـوا لـك الدعـم الحقيقـي بـدلاً

من مدحك في حضورك ثمّ اغتيابك بأسوأ الأحاديث عنك؟ إنّه نفاق وتلوّن لا يليق ببشر متحضّرين. أتفهّم سأمك من تلك العبارات فارغة المعنى من مثل أنت جيّد...، ما أجمل ...، ما ألطف...، ما أروع...، ثمّ يكفي غيابك لحظات حتى تنعكس الصورة. كيف لذلك اللاجئ أن يندمج؟ كيف لشخص اعتاد أن يقرأ من اليمين إلى اليسار أن يبدّل نمط قراءته في فترة وجيزة ودون أيّ دعم؟" تعليق ساخر أطلقه الصوت من قرارة روحي.

وقّعت على الورقة وخرجت، شاعراً بأنّ حملاً ثقيلاً قد انزاح عن صدري، كانت فترة ثمانية وعشرين يوماً أمضيتها في المدرسة، وقد راودتني فيها أحلام وكوابيس لم أعتد عليها رغم كلّ ما مرّ بي.

"كن ممتناً لقرارك ترك هذا العمل، فهو أشبه ما يكون بعقاب سيزيف[٢١] بالنسبة إليك يا صديقي! هذه التجربة وعلى الرغم من سلبيّتها لكنّها ستجعلك أكثر ثقة بنفسك وسوف تتلاشى شكوكك في ذاتك، فأنت تستحقّ الأفضل،

٢١- سيزيف أو سيسيفوس كان أحد أكثر الشخصيات مكراً بحسب الميثولوجيا الإغريقية، حيث استطاع أن يخدع إله الموت ثاناتوس مما أغضب كبير الآلهة زيوس، فعاقبه بأن يحمل صخرة من أسفل الجبل إلى أعلاه، فإذا وصل القمة تدحرجت إلى الوادي، فيعود إلى رفعها إلى القمة، ويظل هكذا إلى الأبد، فأصبح رمز العذاب الأبدي.

وستحصل على الأفضل في يومٍ ما..“ جرعة مواساة عالية واساني بها صوت ضميري ويتابع ”أجمل ما في الأمر أنّ تقديسك للمجتمع السويديّ، واعتقادك بأنّه المدينة الفاضلة بدأ يتلاشى يوماً بعد يوم. فهنا، كما في أيّ مكان على هذا الكوكب، تجد كافة صور الحياة، من العنصريّة إلى التحرر ومن الظلم إلى العدالة، من الأسود القاتم إلى الأبيض الناصع. الأمر ليس أكثر من واجهة من الرخام لإخفاء عيوب الجدران الإسمنتية. تماماً كتلك الابتسامة البازغة على وجهك، وهي ليست إلّا لإخفاء عيوب انكسار الروح فيك. واصل البحث يا صديقي! لكن تخلّ عن مبدأ التقديس لكي ترى أبعاد الحياة كلّها، وليس البرق الذي يلمع على السطح وحسب. دعني أخبرك بشيء؛ إنّ أجمل ما في هذا البلد أنّه يمنح الفرص ويهيّئ الظروف الإيجابيّة للناس على أنّ ذلك حقّهم الطبيعيّ، لذا فإنّ كل ما عليك أيّها المهاجر أن تواصل صعود الدرب وأن تكافح لاستغلال تلك الفرص التي هي في طريقها إليك، وكما يقال في الكلام الشعبيّ: ”إنّ ربّ العالمين يقول للإنسان: اسعَ يا عبدي حتى اسعى معك“.

فـي ذاك المسـاء، أرسـلت سـيرتي الذاتيّـة إلـى عـدد مـن المعلنيـن عـن وجـود فـرص عمـل لديهـم، ومـن ضمنهـا الجامعـات التـي تقبـل البحـوث، علـى رأسـها جامعـة اسـتوكهولم.

*****

أمّا بعد

من أنين روحٍ أتعبها الفراق

ونسيم أمل على قلب تَعب

ترسم من رحم حبٍّ

انعكاس الذات فيك على جدارن وطن

وتمضي إلى بقيةِ حلمٍ.

(1)

بالرغم من الألم الذي رافقني في فترة عملي، وخيبات الأمل والانكسار والضغط النفسيّ الذي كانت أعراضه بادية عليّ بوضوح، ثمّ تراكم المواجهات وانتقالي للعيش وحيداً، إلّا أنّني كنت ما أزال أكثر حظّاً من غيري من اللاجئين. فأنا حصلت على كثير ممّا افتقده غيري، كوجود "كيم" الصديق الداعم، وأسرة سيّدة الشمس التي وفّرت لي الاستقرار، إضافة إلى قدرتي على انتشال نفسي من بئر الإحباط المتكرّر.

قرّرت أن أبدأ علاجاً خاصّاً بي باستراتيجية التفريغ على الورق. فرحت أفرغ مشاعري وانفعالاتي وغضبي على بياض الأوراق، وفي نفس الوقت أدوّن

الأفكار التي تمدّني بالقوّة وأعلّقها بحيث أراها دوماً. اقتضى الأمر منّي قرابة الشهر للخروج من الآثار النفسيّة التي خلّفتها التجارب البائسة في مشاعري. كنت أحاول أن أتعاطى بشكل منطقيّ مع تجربتيّ العمل اللتين اختبرتهما؛ العمل الأوّل الذي رفضته قبل البدء فيه، أي لحظة شعوري بالغبن، والعمل الثاني الذي لم يدم أكثر من ثمانية وعشرين يوماً. وكنت أقنع نفسي دائماً أنّ اختلاف الثقافات قد يكون السبب الأهمّ في انتكاسة هاتين التجربتين، ربّما سوء التفاهم، وربّما طريقتي في التعبير. المهمّ أنّني لن أستسلم لجلد الذات حتى لو كنت أنا وحدي سبب ما حدث من فشل، لأنّني لم أكن استحقّ تلك الطريقة من العقاب حتى لو ثبتت عليّ التهمة بالغلط، لا أستحقّ أن أعاقب بتلك الطريقة أبداً، ما دمت قادراً على تصحيح مساري والمثابرة على المحاولة من جديد.

كان عليّ أن أعيد التفكير بكلّ ما حدث لي والولوج إلى دقائق التفاصيل ثمّ صياغتها من جديد يرافقني ذاك الصوت المجنون المتمرّد القابع في أعماقي، يظلّ ماثلاً، لا ينام ولا يسهو، تتنوّع نبراته بين الدعم المتفائل حيناً قبل أن ينقلب إلى ثائر غاضب أو ساخر لاذع. كان عليّ استبعاد الطريقة السلبيّة التي كنت أفكّر بها، وهجر السوداويّة التي كانت تخيّم على مزاجي، واعتماد طرق تفكير جديدة تعيد إليّ ثقتي

بنفسي وقدرتي على المضي قدماً، وتحقّق لي المتعة بما أنجزه. ولحسن حظّي كانت شقّتي التي انتقلت إليها في الطابق الثاني فوق روضة للأطفال، كأنّما الأطفال هم قدري البهيج السعيد الذي ينتظرني أينما قادتني قدماي! فكثيراً ما صادف أن يكون الأطفال جزءاً من علاج روحي من الوهن وشحذ طاقتي وإمدادي بالقوّة لأصنع المستحيل! كنت أجلس على شرفة شقّتي أتأمّل الأطفال في الروضة وهم يلعبون ويضحكون، فيخفّ توتّري وأشعر بسعادة غامرة. كنت أحاذر دائماً ألّا تصل بي النكسات إلى حافّة الانهيار، أو إلى نقطة لا أستطيع عندها أن أركّز مع نفسي. وقد كان لصديقي المقرّب "كيم" أثر كبير في مساعدتي ومساندتي لتحقيق ذلك، فهو بكلّ بساطة يصغي إليّ ويدعمني ويساعدني في كلّ محاولة بحث عن عمل جديد.

أنهيت مستويات تعلّم اللغة، وكانت معلّمتي قد وصفتني: "أنت أشبه بحصان كهل، يتلمّس حرارة الدم في عروقه وينطلق بسرعة أكبر مع مضي الوقت". مدّني ذلك التشبيه بشحنة من القوّة اللازمة للمضيّ قدماً بخطاً واثقة. فبعد شهر واحد، حصلت على مقابلة عمل مع إحدى المدارس التي تُعنى بشكل مباشر بالأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصّة. سار كلّ شيء على ما يرام، وبدأت الأمور بالتحسّن

بعد رزمة من خيبات الأمل الصغيرة. كنت ممتنّاً لصوتي الداخلي الذي أقنعني أنّ خيبات الأمل تلك ليست سوى غيوم سوداء عابرة سرعان ما تنجلي لتعود السماء صافية من جديد، وأنّ كلّ ما مررت به ليس مستقبلي النهائيّ الذي أريد رسمه، إنما هو صورته في زمان ومكان مرتبطين بالظروف التي أحاطت به. كثيراً ما كان يواسيني بأنّه في كلّ مجتمع ثمّة من يتقبّل المختلف ومن يرى فيه عدوّاً يكشف نقائصه، إنّها طبيعة أيّ مجتمع، فهو وسط يحتوي كافّة ألوان واختلافات طباع الأشخاص وثقافاتهم.

بدأت العمل في تلك المدرسة، وحمدت الله أنّني كنت اختصاصيّ التربية الخاصّة الوحيد فيها، حيث لا صدامات ولا نزاعات، كان فريق العمل مسالماً ولم يشكّل وجودي تهديداً لهم، ولم يكن بينهم من يشعر بمنافستي له أو الخوف من أن أحلّ محله، والأهمّ أنّه لم يكن بينهم من يحاول جاهداً أن يجعلك سويديّاً لكي يتقبّل وجودك!

استطعت إثبات نفسي في تلك المدرسة، للمرّة الأولى منذ قدومي إلى السويد، كان ذلك في الشهر العاشر من عام ٢٠١٧، أي بعد ما يقارب السنتين من لحظة دخولي إلى السويد. استغرقني الأمر سنة وأربعة أشهر منذ حصولي على الإقامة لأجد عملاً مناسباً. عملت في المدرسة فترة ثلاثة أشهر، قبل أن يعرضوا عليّ

عقد عمل ثابت، وبالفعل فقد تمّ تثبيتي في العمل في الشهر الأول من عام ٢٠١٨.

أتذكّر أن مديرتي دعتني ذات مرّة لما يسمّى حديث التطوّر السنويّ، حيث يعقد مدير العمل لقاء مع كلّ موظّف على حدة ليسأله عمّا تمّ إنجازه وما يخطّط له مستقبلاً. مع التساؤلات عن بيئة العمل، ومدى ملائمة التجهيزات والمعدّات ودرجة الراحة التي يعيشها الموظّف في هذه المؤسسة. وطيلة فترة حديثي مع مديرتي عن هذه الشؤون كدت أن أسمع صدى ضحكات، بل قهقهات صوتي الداخلي بما يشبه سخريته المعهودة:

"لماذا لا تخبرها أنّك كنت تكتب بحث رسالتك في الدكتوراه وأنت تستمع للموسيقى الكلاسيكيّة أثناء جلوسك في شرفة ذلك المنزل المطلّ على البحر؟! بينما أنت الآن تشعر بالقهر إذا ضعف نور المصباح قليلاً أو إذا أحسست أنّ جهازك الآيباد أصبح قديماً؟ بل لماذا لا تروي لها أنّك كنت تكتب بحثك للدكتوراه بيد بينما تمسح باليد الأخرى الغبار المنبعث من التفجير في الحارة المجاورة؟ أم أنّك تفضّل الصمت عن أمورك هذه! لا تلمهم يا صديقي، فهم لا يدركون ما الذي فعلته الحرب بكم. مطلوب

منك وحدك أن تخلق التوازن بين ما تعيشه وما قد عشته هناك. إنّها مفارقات عليك أن تؤمن بها، أنتجتها الظروف الفارقة بين أزمنة الأمان والحبّ وبين وجه الحرب البشع!“

في تلك الفترة، بدأت أستمتع حقّاً بعملي مع الأطفال، وبدأت أحقّق النجاحات معهم، وعرفت كم هو مهمّ أن أتلمّس قدرتي على الإنجاز حتى تظلّ مسيرتي صعوداً. رافق ذلك بناء علاقات جيّدة مع زملائي في العمل. ولأوّل مرّة من زمن بعيد شعرت حقّاً أنّ الحياة بدأت تمنح السلام الداخليّ لذاك الغريب المترصّد لليل المزيّن بالنجوم، علّ نجماً يتهادى قربه لكي يضيء له عتمة الدرب.

”ها أنت هنا أيّها العاشق الحياة! العاشق الركض في حقول ممرعة بالندى والأقحوان، لم تعد مضطرّاً لنقل زهرة الأوركيد من مكانها علّها تبدّل عبق النسيم اللطيف في شرفة منزلك. لم تعد مضطرّاً أن تسدل ستائرك المخمليّة، وإطفاء النور في مخدعك منتظراً ضوء نهار جديد. لم تعد بحاجة لتزيّن ذاتك ببجامتك الزرقاء قبل النوم علّ الحب يزورك في حلمك المشتهى. لم يعد ذاك الصمت المنسلّ من عتمة الليل يؤرّقك. حجرا عينيك

العسليتين يبرقان شوقاً لعناقٍ قريب في تلك الزاوية المظلمة من حجرتك. يطرد برودة الثلج المتراكم على شرفتك ويتقاطر دفئاً في دماء قلبك المعتقة التي باتت تروي ذاك البرعم فيك. كيف لا، وزوجتك وناي في طريقهما إليك." تغنّى صوتي الداخلي شارحاً نبضات فؤادي وأنا في لهفتي لتحقيق حلمي الآتي.

بالرغم من الدعم الكبير الذي تلقّيته في تلك المدرسة إلّا أنّه في ذات مرّة، مازحتني مديرتي:

- هل تعلم أنّ ممرّضة المدرسة هي من لفت انتباهي إلى كفاءاتك، فصورتك في سيرتك الذاتيّة حقيقة لم تلفت انتباهي.

ضحكت متابعاً حديثي بتوجيه الشكر لممرضة المدرسة، لكنّي شعرت بأذىً يخدش بعضاً من روحي.

"هنا تقف الآن كعنصر في لوحة فنيّة اختار مبدعها أن يفصل بين ألوان الطبيعة بخريفها وترابها وحجارتها وبين ألوان السماء بزرقتها وغيومها. فأنت تقف الآن في قلب مجتمع معزول ضمن مجتمع أكبر، متسائلاً كيف تبدو

صوركم يا أبناء جلدتي في سيركم الذاتيّة؟ كم من الإحباط تجرّعتموه مع قهوتكم الصباحية؟ هل اخترتم الانعزال كبلسم لانكسار الروح أم كان الانعزال خياركم الوحيد المتاح لكم في مناخات القهر؟ كم مرّة سخر منكم ذات يوم مديروكم لأنّكم لفظتم حرف P كما يلفظ B؟ هل حالكم هنا يشبه حال السويديين بإسبانيا؟ أين أنتم الآن من مسيرة الاندماج اللعينة، وأنتم ما تزالون ترزحون تحت ثقل الطرق التي كان عليكم عبورها؟ إنّها الهجرة وقصّتها التي سنظلّ نروي حكاياتها حتى تندمل جراحنا الغائرة، هذا إذا كانت الأزمنة، مهما امتدّت، قادرة على شفائها!" صيحة قهر أخرى هتف بها صوت مشاعري.

*****

(2)

حصلت أسرتي على موافقة لمّ الشمل بعد طول انتظار، صدرت الإقامات وسافرت إلى سوريا، لأعود بزوجتي وابنتي إلى السويد في السادس والعشرين من شهر يناير، عام ٢٠١٨حاملاً طفلتي "ناي". كنت قلقاً من أن تشعر زوجتي وناي بالغربة

والانفصال عن محيطهما وبيئتهما التي اعتادتا عليها. خفت كثيراً، لكنّ الأمور مرّت بسلام، وبدت ناي وكأنّها أقدر من أبيها على التكيّف مع الوسط الجديد!

وصول زوجتي وابنتي إلى السويد، جعلني أعود إلى مسيرة استصدار الأوراق والوثائق، وكثير من الإجراءات الروتينيّة التي تحتاج وقتاً طويلاً. كنت ألجأ إلى مساعدة بعض الأصدقاء، بسبب طول فترة وجودي في عملي الذي كان يقتضي منّي الخروج من المنزل في السادسة والنصف صباحاً والعودة في السابعة مساء، أي أنّني أظلّ بعيداً عن زوجتي وابنتي أكثر من اثنتي عشرة ساعة يومياً، وهو وقت فراغ يصبح مملّاً لهما إذ لم يكن لديهما ما تنشغلان به، فناي لم تكن قد تسجّلت في الروضة بعد، وهذا ما جعلها تشعر بالوحدة وأحسسنا كأنّها تتمنّى لو كان لها أخ أو أخت تمضي الوقت معها.

الحبّ الأبويّ يحمل في طيّاته الخوف على الأسرة، وهو نابع من اللهفة لحمايتها بشتّى الطرق، وهكذا فإنّ وجود أسرتي معي بقدر ما حمل الفرح لقلب متلهّف للأمان، حمل معه أيضاً كثيراً من القلق والتفكير بالمستقبل. لم أكن أخشى على ناي ألّا تتعلّم اللغة الجديدة، فالأطفال دائما يبدعون في هذا المنحى، لكن قلقي كان أبلغ عمقاً يشبه مداعبة الورود حيث يمتزج الإحساس بجمالها بالدم المتقاطر من

أصابعك. بل قد يشبه الحذر من انفجار قنبلة منسيّة تحت ركام الحرب على حين غرّة. هذه الطباع التي حملناها طول الزمان في مجتمعاتنا الشرقية، حيث مطلوب من الأسر أن تدعم أطفالها وليست المؤسّسات الحكوميّة، فتكون الهويّة الذاتيّة بعضاً من إنجازات الأسرة لا الفرد، ومن هنا تتجلّى ضرورة تقديس الحكمة والنضج الروحيّ لكبار السنّ أكثر ممّا يناله الشباب ذوو اللياقة البدنيّة والذكاء، ومن هنا أيضاً يُحرم الأطفال من اتخاذ قرارات مستقلّة دون تدخّل الأسرة. فالبرّ بالوالدين واجب وعرف، والدين هو في النهاية الضابط الرئيسيّ لكلّ من الفرد والمجتمع. هذه المفاهيم الراسخة في وعينا جعلت كومة من الأسئلة لا تفارق عقلي يتربّع في مقدّمتها: "ماذا لو؟"، ماذا لو أنّ طفلتك اختارت مستقبلاً التخلّي عن الجذور والانتماء لثقافتك الراسخة مختارةً ثقافة الحياة الجديدة وبكلّ ما فيها من تمرّد ونزوع إلى الحريّة الفرديّة مثل المثليّة الجنسيّة، المساكنة دون زواج، و... و...؟.

"عجيب هو الإنسان؛ يفكّر بماضٍ لا يتغيّر بينما المستقبل ما يزال مجهولاً، غافلاً عن الاستمتاع بحاضره. والأعجب أنّه لا يدرك ذلك إلّا بعد فوات الأوان واقتراب الأجل. دعْ عنك التفكير بالمستقبل الآن! وتذكّر أنّك في النهاية سوف تظلّ أنت أنت وليس أحداً سواك!" هاجسي

يخمـد نــار التفكيـر بالمسـتقبل البعيـد

هـذه هــي الحيــاة دائمــاً؛ تفرحـك يومــاً وتحزنـك أيامــاً. بـدأت الأوضــاع تتــأزّم مـرّة أخـرى، فمـن جهـة ازداد إحسـاس أسـرتي بالفـراغ وهـي تمضـي وقتـاً طويـلاً دون عمـل أيّ شـيء، فـكان لهـذا الضجـر المتمـدّد أن يؤثّـر بطريقـة سـلبيّة علـى حياتنـا، ومـن جهـة أخـرى بـدأت تتـوارد الإنـذارات بضـرورة إخـلاء الشـقّة التـي نقطـن فيهـا. كان إيجـاد سـكن فـي استوكهولم أمـراً فـي غايـة الصعوبـة، وقـد يضطّـر الشـخص لدفـع إيجـارات عاليـة جـدّاً إذا مـا عثـر علـى شـقّة، وهـذا مـا جعلنـي أعيـش حالـة مـن القلـق والتخبّـط مثـل غـارق فـي بحـر مـن الهمـوم تتلاطـم أمواجـه.

اعتـدت أن أؤمـن بمـا كانـت أمّـي تقولـه: "إذا انغلـق بـاب فـي وجهـك فـالله كفيـلٌ بفتـح أبـواب عـدّة أمامـك مـن حيـث لا تحتسـب"، فعكفـت علـى البحـث ونشـرت عـدداً مـن الإعلانـات بحاجتـي الماسّـة للعثـور علـى منـزل خـلال شـهر، ومـن دون سـابق إنـذار وصلتنـي رسـالة تقـول لـي:

- "لـمَ لا تشـتري لـكَ منـزلاً؟ ثمّـة عـدد مـن المنازل المناسبة للشراء في هذا الرابط"

لم يكن الرقم الذي أرسل الرسالة مسجّلاً في هاتفي تحت أيّ اسم، ففتحت الرابط لأجد إعلاناً عن منزل جميل معروض للبيع. أرسلت ردّاً على الرسالة:

- "إنّه منزل جميل حقّاً، لكنّني لا أملك الدفعة الأولى المطلوبة من ثمنه، أعرف أنّه يمكنني أن أطلب قرضاً من البنك، لكنّني أعرف أيضاً أنّه يجب أن يكون لديّ ما يقارب الـ ١٥٪ من قيمة المنزل عند نيّة شرائه!"

وصلتني رسالة أخرى:

- "لا مشكلة، يمكنني أن أقرضك المبلغ"

صدمت! فأنا حتّى الآن لم أكن قد عرفت صاحب الرقم، فأرسلت:

- "شكراً لعرضك السخيّ، لكن عذراً، يبدو أنّني لم أحتفظ بالرقم عندي ولا أعلم من المتحدّث!"

وصلني الردّ مع وجه مبتسم، وأخبرتني المرسلة باسمها، فتذكرت أنّها أخت "سيّدة الشمس". وسوف أسميّها هنا "سيّدة القمر" وتستحقّ هذا اللقب بجدارة

لأنّها بزغت فجأة كقمر مبدر لتنير عتمة كانت تستبدّ بروحي. تفاجأت أكثر وكرّرت شكري لها لكرمها، وانا أكتب لها:

- "لكنّك لا تعرفينني جيّداً يا سيّدتي، أذكر أننا التقينا مرّة واحدة ليس أكثر!"
- أجابتني: "سمعت عنك ما يكفي من أختي لأعرفك جيّداً!"

"عادت الحياة لتعلّمك درساً جديداً من دروس الإنسانيّة. لعلّها حكمة القدر، ولعلَّ عالم الغيب يريدك أن ترتقي بروحك أكثر لتعرف المعنى الأسمى للإنسانيّة الحقّة. لتعرف أنّ الحنظل على مرارته قد يكون دواءً. ولتثق أنّ كلّ ما يتمسّك به الفرد في حياته ليس أكثر من فقاعات من هواء. فالحريّة يا أيّها الباحث عن الحريّة تعني التجرّد من كلّ الأفكار المعادية للإنسانيّة والتي أساسها نفي الآخر. عادت الحياة لتقول لك كفاك عنجهيّة أيّها الصغير، فأوديسيوس لم يكن ليصل أسبارطة لو لم يكن لكبير الآلهة رغبة في ذلك. ونارسيس لم يكن ليعشق نفسه لو كان قد رأى غير صورته في المرآة. وهيدز ما كان ليحكم العالم السفليّ لولا أنْ طرده

زيوس كبير الآلهة. وإبليس ما كان ليترك دوره كطاووس الملائكة لولا لعنة الله التي حلّت به، فلولا الظلام يا صديقي لما عرفت الضوء. تجرّد ممّا أرضعوك من أفكار منذ نعومة أظافرك، تبنَّ ما يناسب روحك، فأنت أنت ولستَ ما أرادوه لك أن تكون. ما أكثر ما سمعتك تقول إنّ أصل كلّ الاشياء هو الطبيعة، وما اختلافات الأديان والأحزاب والمعتقدات والعادات والقيم والأعراق والأجناس إلّا من صنيعة البشر ذوي الغايات المختلفة. الحريّة تبدأ وتنتهي بك، آن لك أن تحرّر نفسك يا أيّها الحر.“ كان صوت روحي في أوج تجلّيه.

هي المصادفة المحضة! جعلتني ألتقي عائلة ”سيّدة الشمس“، التي اهتمّت لأمري، والآن ها أنا ألتقي ”سيّدة القمر“ فرعاً من ذلك الأصل النبيل، لتكتمل مساعيهم الخيّرة معي فتساعدني في شراء منزل يؤويني وعائلتي في هذه البلاد الغريبة، وربّما يكون ذلك نادر الحدوث في المجتمع السويديّ، فإقراض المال لم يكن يتجاوز حدود أفراد الأسرة الواحدة!

تظلّ الحياة هي المعلّمة الكبرى! دروسها الكثيرة كفيلة بتغيير أفكار البشر، فكم نقترف إثماً كبيراً حين نصنّف شخصاً تبعاً لانتمائه الدينيّ أو السياسيّ.

اكتمـل قـدري الجميـل وأحسـن مـا يتمنّـى المـرء مـن الحـظّ، ليس فقط بمصادفتـي هـذه العائلـة وبذلهـا الأشـياء فـي سـبيلي، بـل إنّنـي، فـي تلـك الأثنـاء، تلقّيـت اتصـالاً مـن جامعـة استوكهولم يخبرنـي أنّ الفرصـة التـي كنـت قـد تقدّمـت للحصـول عليهـا فـي جامعـة اسـتوكهولم لـم تعـد شـاغرة، لكنّهـم مـع ذلـك مهتمّـون بمقابلتـي، إن كان لـديّ الوقـت ومـا تـزال عنـدي الرغبـة فـي ذلـك.

كقلـب طفـل تلقّـى للتـوّ لعبة جديـدة راح قلبي يخفـق فرحاً! تخبّطـت مشـاعري وذكرياتـي، بيـن تسـريحي مـن عملـي فـي جامعـة دمشـق، إلـى الإحبـاط الـذي تعرّضـت لـه فـي عملـي الأول عنـد منعـي مـن العمـل فـي مجـال الأبحـاث فـي السـويد، إلـى إصـراري علـى إرسـال أوراقـي إلـى الجامعـات مخالفـاً كلّ مـا قيـل لـي، إلـى الاتصـال الـذي وردنـي الآن! أخبـرت مديرتـي فـي العمـل، فكانـت سـعيدة جـدّاً لعلمهـا بمـا عانيتـه سـابقاً فـي عملـي الأول، هتفـت بفـرح ظاهـر:

- "انظر لنفسك! الجامعات هنا تطلب لقاءك!"

"يـا لسـخرية القـدر! هـا أنـت بعد عاميـن ونصف فقـط مـن وجـودك هنـا سـوف تمتلـك منـزلاً، وقـد عشـت فـي بلـدك خمسـة وثلاثيـن عامـاً، دون أن تمتلـك غرفـة صغيـرة!" كان الصـوت داخلـي

يقهقـه بغبطـة سـاخرة!

يبـدو أنّ الموعظـة التـي كانـت أمّـي لا تفتـأ ترددهـا قـد تجلّـت لـي الآن بأسـمى آياتهـا؛ إنّ الله يـراك، ولـن يتـرك الأبـواب مغلقـة فـي وجهـك، ثـق بـأنّ أبوابـاً أوسـع وأرحـب سـوف تنفتـح لـك، فكـن مـع الله ولا تبـالِ بمـا يقولـه البشـر!

*****

(3)

الثلـج يتسـاقط بغـزارة، ودرجـة الحـرارة تحـت الصفـر. مرتديـاً ملابـس ثقيلـة ومعطفـاً مطريّـاً سـميكاً وحـذاء شـتويّاً مقاومـاً لتسـرّب المـاء، توجّهـت إلـى مبنـى جامعـة اسـتوكهولم، مسترشـداً بنظـام تحديـد المواقـع عبـر الأقمار الصناعيّـة تـارة، ومتتبّعـاً لآثـار خطـوات الآخريـن علـى الطريـق المكسـوّ بالثلـج لكيـلا أضـلّ طريقـي تـارةً أخـرى، حريصـاً ألّا أتأخّـر عـن موعـد مقابلتـي. البنـاء رقـم ١٠ هـو وجهتـي فـي هـذا المـكان الواسـع الغريـب، شاسـع المسـاحة، كثيـر الكليّـات المتراميـة وسـط غابـة مـن الأشـجار الكثيفـة.

أخيـراً وقبـل ثـلاث دقائـق مـن الموعـد، وصلـت إلـى

المكان المحدّد. نزعت عنّي المعطف المبتلّ وجلست إلى الطاولة، وفي الجهة المقابلة جلست عميدة الكليّة وبجانبها بروفيسورة أخرى. بلغتي السويديّة الخجلى أجبت على أسئلتهما المتنوّعة بين تقصّي تاريخي الشخصيّ والأكاديميّ إلى اختبار إمكاناتي ليقطع المحاورة سؤالٌ شنّف أذنيّ وأسعد روحي سماعه:

- "هل أنت مهتمّ بالعمل في هذه الجامعة؟"

كاد سؤالهم هذا أن يجعلني أحلّق فرحاً، لكنّ ذلك لم يمنعني من أن أجيب بتواضع وصدق:

- "لا أعتقد أنّ مستوى لغتي الحالي مناسب للعمل في الجامعة، نعم أنا أفهم السويديّة وأتكلّمها، لكن ليس بالطلاقة المطلوبة، وأنا أعلم أنّ العمل في الجامعة يتطلّب مستوى عالياً جدّاً من إتقان اللغة السويديّة"

دون أيّ تردّد أجابتني السيّدة العميدة:

- انظر إلى نفسك! عمرك الآن سبعة وثلاثون عاماً، ولديك مدرستان للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصّة في سوريا، وتحمل درجة الدكتوراه في

اختصاصك، مع سيرة عمليّة طويلة في هذا المجال، وقد تمكّنت من الصمود في وجه الظروف الصعبة في بلد تطحنه الحرب ثم استطعت الهجرة إلى بلد جديد، ونجحت في تعلّم لغته في وقت قصير. لذلك سوف أقول لك جملة واحدة: إنّني أشعر بالانبهار ممّا أنجزته حتى الآن! وختمت حديثها بالقول: ثمّة فرصة عمل في الجامعة سيُعلن عنها قريباً، فإذا كنت مهتمّاً، فقم بتقديم أوراقك.

ابتلعت ريقي، ولم أعرف بماذا أجيب!

منذ دخولي إلى تلك المقابلة لم أرَ سوى وجهٍ ناصع كالثلج ينير المكان، وبريق عينين تطلّان على مدى من الفرح والمحبّة، أمّا الابتسامة اللطيفة الواثقة فإنّها كانت تمدّ الروح بالسكينة كانتشاء العاشق بخمرة الحبّ!

تحدّثت عميدة الكلّية وكأنّها تنضح من أبجديةٍ لا تؤمن بانتماء الحروف للمكان، بل تؤمن بانتماء الإنسان إليها أينما حلّ، وبانتمائها لكلّ الطيّبين على وجه هذه الأرض، أبجدية تمنح الحروف حصّتها من السلام والعشق والحريّة، وتتركها تتآلف معاً دون قيد أو شرط. فكان وقع كلام تلك السيّدة على نفسي كقطرات الندى على بتلات وردة يوشك أن

يذبلها الوحدة والنكران، وحين سكبت الأوراق نداها انساب في أنحاء مياسمها، ليوقظ عشقه لدورة اكتمال الجمال، وهو يسرد للمكان فوحه الفريد. كان بريق عينيها ذرات بهاء نقيّة تنداح ساحبةً خيط نور يلمس مسامات روحي فتتفتّح. فرُحتُ أتنفّس بطلاقة، وأمنح كلماتي أجنحة ترفرف بها وتطير. كان رعش صوتها خفيفاً على سمعي تماماً كصوت أمّي، قويّاً بما يكفي لفكّ أغلال ارتباكي. يطلق العنان لذاتي كي تحتفي بغلالة الثقة والأمان التي غمرتني بها! أولئك هم الطيّبون الذين تراهم لأوّل مرّة فتحسّ أنّك تعرفهم منذ بدء الخليقة، فتنفتح نوافذ ذاكرتك التي تطلّ على النقاء والسلام. أنت ترى الناس تتشابه حين تتكلّم وحين تبتسم ولكنّها سرعان ما تعود مختلفة حين ترتدي أسماءها ومعتقداتها، فتدرك أنّ صلةً أبلغ من صلة الرحم تلك التي تربط الطيّبين بالطيّبين، فهؤلاء وحدهم يلمسون الروح ويدعونها إلى مأدبة الأمل، ووحدهم من يجعلون البقاء إلى جوارهم إحدى نعم العيش. لهم وحدهم نشرع أبواب أرواحنا ونبوح بخباياها دون حرج، فهم الأقدر على بلسمة جراحنا والتخفيف من فداحة نكباتنا!

غادرت حرم الجامعة وصعدت الحافلة، بينما راحت دموعي تسحّ على وجنتيّ، تركتها تنهمر دون أن أمسحها أو أخفيها!

كانـت دموعـي الغزيـرة تنـدب معـي وطنـاً يسـكن فـي شـغاف القلـب ولكنّـه طـوّح بأبنائـه فـي ظلمـات المـوت والغربـة الفادحـة، وطنـي الـذي لـم ألـقَ منـه سـوى النبـذ والنفـي؛ عملـت فـي المنظّمـة فاضطهدونـي، عملـت فـي الجامعـة فطردونـي ظلمـاً. فـي وطنـي وحدهـم أطفـال التوحّـد هـم الذيـن محضونـي السـعادة وجعلونـي أشـعر بوجـودي!

"دع لدموعك أن تعبّر عن فرح قهرك، وسعادة خيباتـك وإخفاقاتـك وفشـلك المتكـرّر بالاندمـاج أيّها الطفل البائس المشاكس، أيّها الشاب الذي عانـى وقاسـى كثيـراً، وتحـدّى كلّ العوائـق، ويـا أيّها الكهل الذي مزّقتِ الحرب روحه، وحطّمته الخسـارات المتواليـة، وأنهكـه غـدر الحيـاة".

امـضِ أيّهـا المهاجـر، امـضِ ولا تلتفـت خلفـك، فـلا بـدّ أنْ يكـون للحلـم بقيـة!

*****

حاشية

نجح وسام في العمل أستاذاً في جامعة استوكهولم بعد ثلاث سنوات من وصوله إلى السويد مهاجراً غير شرعيّ، ومازال يواصل تحدّيه لذاته والارتقاء بها، شعاره: لا أسف على ما يذهب، ولا اعتبار لمنافق، ولا قدسيّة للزخارف الرخاميّة التي تخفي عيوب الأبنية الآيلة إلى السقوط. ولم تعد "ناي" طفلته الجميلة تخشى البقاء في المنزل في أيام عطلة روضتها، فقد أنار بريقُ عيني أختها "نيلي" أيامها ودرب أبيها كلّ يوم ليكتشف عظمة الإله في ضحكاتهما، وليستمدّ قوتَ روحه من وجودهما الجميل فلا يحسّ بوحشة غربته الشاسعة، ويواصل حثّ الخطا في دربه الذاهبة صعوداً. كما بقي صوت هاجسه الساخر والداعم، المتمرد والثائر، القاسي والحنون مرافقاً له في دربه.

وسام منذر، استوكهولم ٢٠٢٢

خطوات لاهثة

غريبٌ أنت هنا

لا تملك سوى حفنة من الذكريات وبضع كلمات مشوّشة.

لا الفرح فرح ولا الحزن يشبه أحزاناً عرفتها فيما مضى.

ها أنت تلاحق حلماً لا تدرك مغزاه

غريبٌ أنت هنا

كغربة طفل حُرم من ثدي أمه

تتسابق أفكارك لتسموَ بك نحو أفق بعيد

وتتثاقل خطاك في عالم المجهول

غريبٌ أنت هنا

تسير ولا تدرك إلى أين تسير

تناغي الروح بحثاً عن أمل ضائع في زحام المطارات والأرصفة!

د. وسام نسيب منذر